

التفسير الكبير  
للإمام  
الحجة السادة

---

الجزء الثاني والثلاثون

---

الطبعة الأولى

---

الترجمان عبد الرحمن محمد  
مبتدئ الخائض الأزهر بمصر

(سورة ألم نشرح)  
(ثمان آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

(سورة ألم نشرح ثمان آيات مكية)

يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة وكانا يقرأهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما بسم الله الرحمن الرحيم والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى ( ألم نشرح لك ) كالعطف على قوله ( ألم يجسدك يتما ) وليس كذلك لأن (الأول) كان زوله حال اغتنام الرسول ﷺ من إيداء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر ( والثاني ) يقتضى أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب ، فأنى يجتمعان .

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( ألم نشرح لك صدرك )

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار . فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، وفي شرح الصدر قولان :

(الأول) ما روى أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علماً وإيماناً ووضعته في صدره .

واعلم أن القاضى طعن في هذه الرواية من وجوه : (أحدها) أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات ، فلا يجوز أن تتقدم نبوته (وثانيها) أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام ، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر ( وثالثها ) أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً ، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم (والجواب) عن (الأول) أن تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا ، وذلك هو المسمى بالإرهاص ، ومثله في حق الرسول عليه السلام كثير .

وأما (الثاني ، والثالث) فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذى غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذى يميل إلى المعاصي ، ويحجم عن الطاعات ، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لسكون صاحبه واطبأ على الطاعات محترزاً عن السيئات ، فكان ذلك كالعلامة الملائكة على كوز صاحبه معصوماً ، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام لما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيّق صدره عن منازعة الجن والإنس والبرامة من كل عابد ومعبود سوى الله ، فاتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغر عنده كل شيء . احتمله من المشاق . وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم وماترك فيه إلا هذا الهم الواحد . فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ، ولا يبالي بما يتوجه إليه من إيذائهم ، حتى صاروا في عينه دون الذباب لم يجبن خوفاً من وعيدهم ، ولم يمل إلى ما لهم ، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة ، ونظيره قوله (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وروى أنهم قالوا : يا رسول الله أشرح الصدر؟ قال نعم ، قالوا وما علامة ذلك؟ قال « التجافي عن الغرور ، والإيابة إلى دار الخلود ، والإعداد للموت قبل نزوله » وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت (وثانها) أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يفتاق ولا يضجر ولا يتغير ، بل هو في حالتي البؤس والفرح مشرح الصدر مشتمل بأداء ما كلف به ، والشرح التوسعة . ومعناه الإراحة من الهموم ، والعرب تسمى الهم وضيق صدر كقولهم (ولقد نعلم أنك بضيق صدرك) وههنا سؤالات :

﴿الاول﴾ لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب؟ (والجواب) لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال (يوسوس في صدور الناس) فإذا زالت تلك الوسوسة وإيدالها بدواعي الخير هي الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب ، وقال محمد بن علي الترمذى : القلب محل العقل والمعرفة . وهو الذي يقصده الشيطان ، فالشيطان يحجى إلى الصدر الذي هو حصن القلب . فإذا وجد مسلطاً أغار فيه ونزل جنده فيه ، وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيّق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذّة ولا للإسلام حلوة ، وإذا طرد العذر في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية .

﴿السؤال الثاني﴾ لم قال (ألم نشرح لك صدرك) ولم يقل ألم نشرح صدرك؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) كأنه تعالى يقول لام بلام ، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلى كما قال (إلا ليعبدون ، أقم الصلاة لذكرى) فأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك (وثانها) أن فيها تديباً على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام ، كأنه تعالى قال إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلى .

﴿السؤال الثالث﴾ لم قال (ألم نشرح) ولم يقل ألم أشرح؟ (والجواب) إن حملناه على نون التعظيم ، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة ، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنهه جلالته ، وإن حملناه على نون الجمع ، فالمعنى كأنه تعالى يقول : لم أشرحه وحدى بل أعملت فيه ملائكتي ، فكنت ترى الملائكة حوايك وبين يديك حتى يقرى قلبك ، فأديت

## وَوَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

الرسالة وأنت قوى القلب ولحمتهم هيبة. فلم يجيبوا لك جواباً، فلو كنت ضيق القلب لصحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جنباً فيهم، وانشرح صدرك ضيقاً فيهم.

ثم قال تعالى ﴿ ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك ﴾ وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه، لأنك لا تقول ألم وضعنا ولكن معنى ألم نشرح قد شرحنا، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ، لأنه لو كان معطوفاً على ظاهره لوجب أن يقال ونضع عنك وزرك.

﴿ المسألة الثانية ﴾ معنى الوزر ثقل الذنب، وقد مر تفسيره عند قوله (وهم يحملون أوزارهم) وهو كقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر).

وأما قوله (أنقض ظهرك) فقال علماء اللغة الأصل فيه أن الظهر إذا أنقله الحمل سمع له نقيض أى صوت خفي، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أو البعير إذا أنقله الحمل فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله صلى عليه وسلم من أوزاره.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبيا عليهم السلام (والجواب) عنه من وجهين (الأول) أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها، لا يقال إن قوله (الذي أنقض ظهرك) يدل على كونه عظيماً، فكيف يليق ذلك بالصغائر، لأننا نقول: إنما وصف ذلك بإنقراض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتنام النبي ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه، أو إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى. هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة وفيه إشكال، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضى، والله تعالى ذكر هذه الآية في معرض الامتنان، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز (الوجه الثاني) أن يحمل ذلك على غير الذنب، وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة: كانت للنبي ﷺ ذنوب سلفت منه في الجاهلية قبل النبوة، وقد أنقلته فغفرها له (وثانيها) أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له (وثالثها) الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل، وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله، وقال له (أن اتبع ملة إبراهيم) (ورابعها) أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فأمنه من العذاب في العاجل، ووعد له الشفاعة في الآجل (وخامسها) معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك، لو كان ذلك الذنب حاصلًا، فسمى العصمة وضعاً مجازاً، فن ذلك ما روى أنه حضر وليمة



## وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

فيها دف ومز امير قبل البعثة ليمسح ، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد (وسادسها) الوزر ما أصابه من الهيبة والفرع في أول ملاقة جبريل عليه السلام ، حين أخذته الرعدة ، وكاد يرى نفسه من الجبل ، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرى بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه (وسابعها) الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة ، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدهون وجهه ، و [هو] يقول «اللهم اهد قومي ، ونامها) إِنَّ كَانَ نَزَلَ السُّورَةُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيحَةَ ، فَلَقْد كَانَ فِرَاقَهُمَا عَلَيْهِ وَزُرّاً عَظِيماً ، فَوَضَعَ عَنْهُ الْوِزْرَ بَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى لَقِيَهِ كُلُّ مَلِكٍ وَحِيَاةٍ فَارْتَفَعَ لَهُ الذِّكْرُ ، فَلِذَلِكَ قَالَ ( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ) ( وَتَاسِعُهَا ) أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْوِزْرِ وَالثَّقَلِ الْحَيْرَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ قَبْلَ الْبُعْثَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بِكَمَالِ عَقْلِهِ لَمَّا نَظَرَ إِلَى عَظِيمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، حَيْثُ أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَأَعْطَاهُ الْحَيَاةَ وَالْعَقْلَ وَأَنْوَعَ النِّعَمَ ، ثَقَلَ عَلَيْهِ نِعَمُ اللَّهِ وَكَادَ يَنْقُضُ ظَهْرَهُ مِنَ الْحَيَاءِ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَرَى أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا تَنْقَطِعُ ، وَمَا كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ كَيْفَ كَانَ يُطِيعُ رَبَّهُ ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ النَّبُوءَةُ وَالتَّكْلِيفُ وَعَرَفَ أَنَّهُ كَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُطِيعَ رَبَّهُ ، فَحِينَئِذٍ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَسَهَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأَحْوَالُ ، فَإِنَّ اللَّئِيمَ لَا يَسْتَحِي مِنْ زِيَادَةِ النِّعَمِ بَدُونَ مَقَابَلَتِهَا بِالْخِدْمَةِ ، وَالْإِنْسَانَ الْكَرِيمَ النَّفْسُ إِذَا كَثُرَ الْإِنْعَامُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يُقَابِلُهَا بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخِدْمَةِ ، فَإِنَّهُ يَثْقُلُ ذَلِكَ عَلَيْهِ جَدّاً ، بِحَيْثُ يَمِيتُهُ الْحَيَاءُ . فَإِذَا كَانَتْهُ الْمُنْعَمُ بِنَوْعٍ خَدَمَهُ سَهْلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَطَابَ قَلْبُهُ .

ثم قال تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

واعلم أنه عام في كل ما ذكره من النبوة ، وشهرته في الأرض والسموات ، اسمه مكتوب على العرش . وأنه يذكر معه في الشهادة والتشهد ، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة ، وانتشار ذكره في الآفاق ، وأنه ختمت به النبوة ، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل ، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقرونا بذكره ( والله ورسوله أحق أن يرضوه ) ، و ( من يطع الله ورسوله ) و ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ) ويناديه باسم الرسول والنبي ، حين ينادى غيره بالاسم ياموسى يا عيسى ، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيعون ذكره وهو معنى قوله تعالى ( سيجعل لهم الرحمن وداً ) كأنه تعالى يقول : أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك ، بل ما من فریضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة فهم يمثلون في الفريضة أمرى ، وفي السنة أمرک وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) ( إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ) لا تأتف السلاطين من أتباعك ، بل لا جرأة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك ، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك ، والوعاظ يبلغون وعظك

## فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٦﴾

بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ، ويسلمون من وراء الباب عليك ، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ، ويرجون شفاعتك . فشر فك باق إلى يوم القيامة .

قال تعالى ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ ، إن مع العسر يسراً ﴿ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر ، ويقولون إن كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى جمعنا لك ما لا حتى تكون كأيسر أهل مكة . فشق ذلك على رسول الله ﷺ حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيراً عندهم ، فعدد الله تعالى عليه منته في هذه السورة ، وقال ( ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ) أى ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، ثم وعده بالغنى في الدنيا لينزل عن قلبه ما حصل فيه من التأذى بسبب أنهم عيروه بالفقر ، والدليل عليه دخول الفاء في قوله ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ كأنه تعالى قال : لا يحزنك ما يقولون وما أنت فيه من القلة ، فإنه يحصل في الدنيا يسر كامل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس : يقول الله تعالى : خلقت عسراً واحداً بين يسرين ، فلن يغلب عسر يسرين ، وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال « لن يغلب عسر يسرين » وقرأ هذه الآية ، وفي تقرير هذا المعنى وجهان ( الأول ) قال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالآلاف واللام ، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً . وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكان أحدهما غير الآخر ، وزيف الجرجاني هذا وقال . إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان ، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية ( الوجه الثاني ) أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى ، كما كرر قوله ( ويل يومئذ للمكذبين ) ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ، كما يكرر المفرد في قولك : جاءني زيد زيد . والمراد من اليسرين : يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد ، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة . لقوله تعالى ( قل هل ترضون بنا إلا لإحدى الحسينين ) وهما حسن الظفر وحسن الثوب ، فالمراد من قوله « لن يغلب عسر يسرين » هذا ، وذلك لأن عسر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ، ويسر الآخرة كالمغمور القليل ، وههنا سؤالان :

﴿ الأول ﴾ ما معنى التنكير في اليسر ؟ ( جوابه ) التفخيم ، كأنه قيل : إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً عظيماً ، وأى يسر .

﴿ السؤال الثاني ﴾ اليسر لا يكون مع العسر . لأنهما ضدان فلا يجتمعان ( الجواب ) لما

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل ، كان مقطوعاً به فجعل كالمقارن له .  
ثم قال تعالى ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عدد عليه نعمه السالفة ، ووعده بالنعم الآتية ، لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة ، فقال : فإذا (فرغت فانصب) أي فاتعب يقال نصب بنصب ، قال قتادة والضحاك ومقاتل : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة (فانصب إلى ربك) في الدعاء . وارغب إليه في المسألة يعطك ، وقال الشعبي : إذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك ، وقال مجاهد : إذا فرغت من أمر دينك فانصب وصل ، وقال عبد الله إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، وقال الحسن إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة ، وقال علي بن أبي طلحة إذا كنت صحيحاً فانصب ، يعني اجعل فراغك نصيباً في العبادة يدل عليه ما روى أن شريحاً مر برجلين يتصارعان ، فقال : الفارغ ما أمرهنا إنما قال الله ( فإذا فرغت فانصب) وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض ، وأن لا يخلى وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى .

وأما قوله تعالى ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ ففيه وجهان (أحدهما) اجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه ( وثانيها) ارغب في سائر ما تلتزمه ديناً ودنياً ونصرة على الأعداء إلى ربك ، وقرئ فرغب أي رغب الناس إلى طلب ما عنده ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة التين)  
(وهي ثمان آيات مكية)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين﴾

اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة، فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان:

﴿الاول﴾ أن المراد من التين والزيتون هذان الشيطان المشهوران، قال ابن عباس: هويتنكم وزيتونكم هذا، ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء.

أما التين فقالوا إنه غذاء وفاكهة ودواء، أما كونه غذاءً فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الترشح ويقلل البلغم ويظهر الكلوتين ويزيل مافي المشانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحدها، وروى أنه أهدى لرسول ﷺ طبق من تين فأكل منه، ثم قال لأصحابه «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلاجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» وعن علي بن موسى الرضا عليهما السلام: التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج، وأما كونه دواء، فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن.

واعلم أن لها بعد ما ذكرنا خواص: (أحدها) أن ظاهرها كباطنها ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر، بل نقول إن من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه، كالجوز والبطيخ ومنه ما يطيب ظاهره دون باطنه كالتمر والإجاص.

أما التين فإنه طيب الظاهر والباطن (وثانها) أن الأشجار ثلاثة شجرة تعد وتخلف وهي شجرة الخلاف، وثانية تعد وتفي وهي التي تأتي بالنور أولاً وبعمده بالثمرة كالنفاح وغيره، وشجرة تبذل قبل الوعد، وهي التين لأنها تخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد، بل لو غيرت العبارة لقلت هي شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى، بل لك أن تقول إنها شجرة تخرج الثمرة قبل أن تلبس نفسها بورد أو بورك، والنفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها، ثم بغيرها، أما شجرة التين فانها تهتم بغيرها

قبل اهتمامها بنفسها ، فسائر الأشجار كأرباب المعاملة في قوله عليه السلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فإن فضل صرفه إلى نفسه ، بل من الذين أنبى الله عليهم في قوله ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) ، ( وثالثها ) أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا سقطت الثمرة من موضعها لم تعد في تلك السنة ، إلا التين فإنه يعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى ( ورابعها ) أن التين في النوم رجل خير غنى فمن نالها في المنام نال مالا وسعة ، ومن أكلها رزقه الله أولاداً ( وخامسها ) روى أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقه ثيابه تستر بورق التين ، وروى أنه لما نزل وكان متزراً بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين ، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغيردها مسكا ، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما أعجبها ، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك ، وذلك لأن الأولى جاءت لآدم لا لأجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سراً وإلى آدم ظاهراً ، فلا جرم غير الظاهر دون الباطن ، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة فأكبه من وجه وإدام من وجه ودواء من وجه ، وهي في أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس ، ثم لا تقتصر منفعتها على غذاء بدلك ، بل هي غذاء السراج أيضاً وتولدها في الجبال التي لا يوجد فيها شيء من الدهنية البتة . وقيل من أخذ ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى ، وقال مريض لابن سيرين ، رأيت في المنام كأنه قيل لي كل اللامين تشف ، فقال كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غريبة . ثم قال المفسرون : التين والزيتون اسم لهدن المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة ، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر ، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما من المصالح والمنافع .

( القول الثاني ) أنه ليس المراد هاتين الثمرتين ، ثم ذكروا وجوهاً ( أحدها ) قال ابن عباس هما جبلان من الأرض المقدسة ، يقال لهما بالسريانية طور تينا ، وطور زيتا ، لأنهما منبتا التين والزيتون ، فسكانه تعالى أقسم بمنابت الانبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام . والزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء نبي إسرائيل ، والطور مبعث موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ ، فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الانبياء وإعلاء درجاتهم ( وثانيها ) أن المراد من التين والزيتون مسجدان ، ثم قال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس ، وقال آخرون التين مسجد أصحاب أهل الكهف ، والزيتون مسجد إيليا ، وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبني على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة . بلما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التين والزيتون . لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون ( وثالثها )

## لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٣﴾

المراد من التين والزيتون بلدان، فقال كعب التين دمشق والزيتون بيت المقدس، وقال شهر ابن حوشب التين الكوفة، والزيتون الشام، وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان، والقائلون بهذا القول، إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركي قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد، فآله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها، أو يقال إن دمشق وبيت المقدس فهما نعم الدنيا، والطور ومكة فهما نعم الدين.

أما قوله تعالى (وطور سينين) فالمراد من (الطور) الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه. واختلفوا في (سينين) والأولى عند النحويين أن يكون سينين وسينا اسمين للبلكان الذي حصل فيه الجبل أضيفا إلى ذلك المكان، وأما المفسرون فقال ابن عباس في رواية عكرمة (الطور) الجبل (وسينين) الحسن بلغة الحبشة، وقال مجاهد (سينين) المبارك، وقال الكلبي هو الجبل المشجر ذو الشجر، وقال مقاتل كل جبل فيه شجر مشمر فهو سينين وسينا بلغة النبط قال الواحدي، والأولى أن يكون سينين اسما للبلكان الذي به الجبل، ثم ذلك سمى سينين أو سينا لحسنه أولكونه مباركا. ولا يجوز أن يكون سينين نعتا للطور لإضافته إليه.

أما قوله تعالى (وهذا البلد الأمين) فالمراد مكة والآمين: الآمن قال صاحب الكشاف من أمن الرجل أمانة فهو أمين وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الآمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون فعلا بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأدون الغوائل كما وصف بالآمن في قوله (حرماً آمناً) يعني ذا أمن، وذكروا في كونه آميناً وجوهاً (أحدها) أن الله تعالى حفظه عن الفيل على ما يأتيك شره إن شاء الله تعالى (وثانيها) أنها تحفظ لك جميع الأشياء فباح الدم عند الالتجاء إليها آمن من السباع والصيد تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء إليها (وثالثها) ماروى أن عمر كان يقبل الحجر، ويقول إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، فقال له على عليه السلام إما أنه يضر وينفع إن الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه في رق أبيض، وكان لهذا الركن يومئذ اسان وشفتان وعينان. فقال أفتح فاك فألقمه ذلك الرق وقال تشهدن وافك بالموافاة إلى يوم القيامة، فقال عمر لا بقيت في قوم لست فيهم يا أبا الحسن.

ثم قال تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ المراد من الإنسان هذه الماهية والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، يقال قومه تقويماً فاستقام وقوم، وذكروا في شرح ذلك الحسن وجوهاً (أحدها) أنه تعالى خالق كل ذي روح ككاتب على وجهه إلا الإنسان فإنه تعالى خلقه مهدياً قائماً يتناول ما كوله بيده وقول الأصم في أكل عقل وفهم وأدب وعلم وبين. والحاصل أن أقول الأول راجع إلى المهوراة الظاهرة، والثاني إلى

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّكْرِ ﴿٧﴾

السيرة الباطنة ، وعن يحيى بن أكرم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة ، فإنه حكى أن ملك زماه خلا بزوجته في ليلة مقمرة ، فقال إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت كذا . فأقنى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكرم فإنه قال لا يحنث ، فقبل له خالفت شيوخك ، فقال الفتوى بالعلم ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى فإنه يقول ( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ) وكان بعض الصالحين يقول : إلنا أعطيتنا في الأولى أحسن الأشكال . فأعطنا في الآخرة أحسن الفعال ، وهو العفو عن الذنوب ، والتجاوز عن العيوب .

أما قوله تعالى ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ففيه وجهان : ( الأول ) قال ابن عباس يريد أرذل العمر . وهو مثل قوله يرد إلى أرذل العمر ، قال ابن قتيبة السافلون هم الضعفاء . والزمنى ، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سيلا ، يقال سفل يسفل فهو سافل وهم سافلون ، كما يقال علا يعلو فهو عال وهم عالون ، أراد أن الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته ويهجز عن عمل الصالحات ، فيسكون أسفل الجميع ، وقال الفراء : ولو كانت أسفل سافل لكان صواباً ، لأن لفظ الإنسان واحد ، وأنت تقول هذا أفضل قائم ولا تقول أفضل قائمين ، إلا أنه قيل سافلين على الجمع لأن الإنسان في معنى جمع فهو كقوله ( والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ) وقال ( وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم ) .

( والقول الثاني ) ما ذكره مجاهد والحسن ثم رددناه إلى النار ، قال علي عليه السلام وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض فيبدأ بالأسفل فيملاً وهو أسفل سافلين ، وعلى هذا التقدير فالمعنى ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلى النار .

أما قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فاعلم أن هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، والمعنى ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إليهم بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تحاذل نهمهم ، وأما على القول الثاني فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال .

أما قوله تعالى ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ ففيه قولان ( أحدهما ) غير منقوص ولا مقطوع ( وثانيهما ) أجر غير ممنون أى لا يمن به عليهم . واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب ، لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصاً بالمنة .

ثم قال تعالى ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ وفيه سؤالان :

## أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿الاول﴾ من المخاطب بقوله ( فما يكذبك ) ؟ الجواب فيه قولان ( أحدهما ) أنه خطاب للإنسان على طريقة الالتفات ، والمراد من قوله ( فما يكذبك ) أن كل من أخبر عن الواقع بأنه لا يقع فهو كاذب ، والمعنى فما الذى يلجئك إلى هذا الكذب ( والثانى ) وهو اختيار الفراء أنه خطاب مع محمد ﷺ ، والمعنى فمن يكذبك بأيتها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل بالدين .

﴿السؤال الثانى﴾ ما وجه التعجب ؟ ( الجواب ) أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريبه فى مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر والنشر ، فمن شاهد هذه الحالة ثم بقى مصرأ على إنكار الحشر فلا شىء أعجب منه .

ثم قال تعالى ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا فى تفسيره وجهين ( أحدهما ) أن هذا تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر . يقول الله تعالى : أليس الذى فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنماً وتديراً ، وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه ، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة ، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح فى الحكمة . كما قال تعالى ( وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ) . ( والثانى ) أن هذا تنبيه من الله تعالى لنتبه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل .

﴿المسألة الثانية﴾ قال القاضى هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم ، فإنه لو كان الفاعل لأفعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب فى سفه فهو من الله تعالى ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء ، كما أنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب فى الحكمة إلا من الله تعالى ، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء ، ولما ثبت فى حقه تعالى الأمران لم يكن وصفه بأنه أحكم الحكماء أولى من وصفه بأنه أسفه السفهاء . ولما امتنع هذا الوصف فى حقه تعالى علنا أنه ليس خالفاً لأفعال العباد ( والجواب ) المعارضة بالعلم والداعى ، ثم نقول : السفه من قامت السفاهة به لا من خلق السفاهة ، كما أن المتحرك والساکن من قامت الحركة والسكون به لا من خلقهما ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،



﴿ سورة القلم ﴾

﴿ تسع عشرة آية مكية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

﴿ سورة القلم تسع عشرة آية مكية ﴾

زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ اعلم أن في الباء من قوله ( باسم ربك ) قولين ( أحدهما ) قال أبو عبيدة الباء زائدة ، والمعنى : اقرأ اسم ربك ، كما قال الأخطل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة      سود المحاجر لا يقرآن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك ، أى أذكر اسمه ، وهذا القول ضعيف لوجوه ( أحدها ) أنه لو كان معناه أذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول ما أنا بقارىء ، أى لا أذكر اسم ربى ( وثانيها ) أن هذا الأمر لا يليق بالرسول ، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله . فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولاً به أبداً ( وثالثها ) أن فيه تضييع الباء من غير فائدة .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من قوله ( اقرأ ) أى اقرأ القرآن ، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى ( فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ) وقال ( وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ) وقوله ( باسم ربك ) يحتمل وجوهاً ( أحدها ) أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ ، وفي هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية في ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به ، وفي هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يتبدى بها ( وثانيها ) أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستمعياً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا ، ونظيره كتبت بالقلم ، وتحقيقه أنه لما قال له ( اقرأ ) فقال له لست بقارىء ، فقال ( اقرأ باسم ربك ) أى استعن باسم ربك واتخذ آلة في تحصيل هذا الذى عسر عليك ( وثالثها ) أن قوله ( اقرأ باسم ربك ) أى اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله ، فإن العبادة

إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترى الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل كيف يستمر هذا التأويل في قولك قبل الاكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا فيه وجهان ( أحدهما ) أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيقتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركة الشيطان في ذلك الطعام ( والثاني ) أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .  
أما قوله ( ربك ) ففيه سوالات :

( أحدهما ) وهو أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأننا قد دللنا بالوجه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا ( باسم ربك ) ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال في التسمية المعروفة ( بسم الله الرحمن الرحيم ) ( وجوابه ) أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال هو الذي ربك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين ( أحدهما ) ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل ( والثاني ) أن الشروع ملزم للتمام ، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أي حين كنت علقاً لم أذع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نقيساً موحداً عارفاً بي كيف أضيعك !

( السؤال الثاني ) ما الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه ، فقال ( باسم ربك ) ؟ ( الجواب ) تارة يضيف ذاته إليه بالسوية كما ههنا . وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام « على منى وأنا منه » كأنه تعالى يقول هو لي وأنا له ، يقرره قوله تعالى ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) أو نقول إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم في الشاهد أن من له إبان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول هو ابني فحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى المنفعة تصل مني إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول أنا لك ولا أقول أنت لي ، ثم إذا آتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسي فقلت أنزل على عبده ( يا عبادي الذين أسرفوا ) .

( السؤال الثالث ) لم ذكر عقب قوله ( ربك ) قوله ( الذي خلق ) ؟ ( الجواب ) كأن العبد يقول ما الدليل على أنك ربي ؟ فيقول لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوماً . ثم صرت موجوداً فلا بد لك في ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أني ربك وأنت مربوبي .

## الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

أما قوله تعالى ﴿الذي خلق﴾ ، خلق الإنسان من علق ﴿فيه مسائل :  
 ﴿المسألة الأولى﴾ في تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن يكون قوله (الذي خلق)  
 لا يقدر له مفعول ، ويكون المعنى الذي حصل منه الخلق واستأثر به لخالق سواء ( والثاني )  
 أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء . فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس  
 حمله على البعض أولى من حمله على الباقي . كقولنا الله أكبر ، أى من كل شيء . ثم قوله بعد ذلك  
 ( خلق الإنسان من علق ) تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن التنزيل إليه  
 أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض ( والثالث ) أن يكون قوله (اقرأ باسم ربك الذي خلق) مهتماً  
 ثم فسره بقوله ( خلق الإنسان من علق ) تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا لأنه  
 سبحانه جعل الخلقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه  
 يستحيل وقوع الشركة فيها ، قالوا وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هي القدرة على الاختراع  
 وما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله . فقال : (ومارب العالمين) قال موسى (ربكم  
 ورب آبائكم الأولين) والرؤية إشارة إلى الخلقية التي ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .  
 ﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى . أو النظر في

معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما  
 أراد أن يبعث رسولا إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ، لا بوا أن يقبلوا  
 ذلك منه ، لكنه تعالى قدم في ذلك مقدمة تاجبهم إلى الاعتراف به كما يحكى أن زفر لما بعثه أبو حنيفة  
 إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبي حنيفة .  
 وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر في المسألة أقول  
 أمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر ، واذكر قولي وحجتي ، فإذا تمكن ذلك في  
 قلوبهم ، فقل هذا قول أبي حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه  
 يقول ، إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أثبت على وأعرضت عن الأوثان لا بوا ذلك ، لكن اذكر  
 لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلق فلا يمكنهم إنكاره . ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا  
 ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه . فهذا لتدرج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، كما قال  
 تعالى ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخلقية حصل القطع  
 بأن من لم يخلق لم يكن لها ، فلهذا قال تعالى ( أفمن يخلق كمن لا يخلق ) ودلت الآية على أن القول  
 بالطلع باطل ، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افقر إلى مؤثر آخر ، وإن كان قديماً فإما أن يكون وجباً

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾

أو قادراً ، فإن كان موجبا لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للصراحة .

﴿المسألة الرابعة﴾ إنما قال (من علق) على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع ، كقوله (إن الإنسان لفي خسر) .

أما قوله تعالى ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ ، الذي علم بالقلم﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال بعضهم اقرأ أولا لنفسك ، والثاني للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم . أو اقرأ في صلاتك ، والثاني خارج صلاتك .

﴿المسألة الثانية﴾ الكرم إفاضة ما ينبغي لا عوض . فمن يهب السكين بمن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم ، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ، ولهذا قال أصحابنا إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلاً لغرض لأنه لو فعل فعلاً لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لاحصوله ، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصاً بذاته مستكماً بغيره وذلك محال ، ثم ذكروا في بيان أكرميته تعالى وجوهاً (أحدها) أنه كرم من كرم يعلم وقت الجناية ، لكن لا يبقى إحسانه على الوجه الذي كان قبل الجناية ، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ومنه قول القائل :

مضى زدت تقصيراً تردى تفضلاً كأنني بالتقصير أستوجب الفضلاً

(وثانيتها) إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً ، أما أنا فالأكرم إذ لا فعله إلا لمحض الكرم (وثالثها) أنه الأكرم لأن له الابتداء في كل كرم وإحسان وكرمه غير مشروب بالتقصير (ورابعها) يحتمل أن يكون هذا حثاً على القرامة أي هو الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشرأ أو حثاً على الإخلاص ، أي لا تفرط الطمع ولكن لأجلى ودع على أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك ما لا يخطر ببالك ، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحداً فأنا أكرم من أن أمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنه سبحانه وصف نفسه بأنه (خالق الإنسان من علق) وثانياً بأنه الذي (علم بالقلم) ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين ، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقه وهي أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف مراتب مخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة ، ثم فيه تبيين على أن العلم أشرف الصفات

## عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥٠﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٥١﴾

الإنسانية ، كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والإفطار والرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم هو الذى أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية فى الشرف .

(المسألة الرابعة) قوله (باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق) إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله (الذى علم بالقلم) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثانى إلى النبوة ، وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

(المسألة الخامسة) فى قوله (علم بالقلم) وجهان (أحدهما) أن المراد من القلم الكتابة التى تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها (والثانى) أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفریتاً عن الكلام ، فقال ریح لا يبقی ، قال فما قيده ، قال الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبجر كته تبقى العلوم على مر الليلى والأيام ، نظيره قول زكريا (إذ نادى ربه نداء خفياً) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد بصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم . التراب ظهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل [عن اللسان] ولو [بعث] إلى المشرق والمغرب (١) .

أما قوله تعالى (علم الإنسان ما لم يعلم) فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر وار النسق ، وقد يجرى مثل هذا فى الكلام تقول أكرمك أحسنت إليك ملكتك الأموال ولتلك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه ، فيكون قوله (علم الإنسان ما لم يعلم) بياناً لقوله (علم بالقلم) .

قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا إلى آخرها فى أبى جهل ، وقيل نزلت من قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) إلى آخر السورة فى أبى جهل . قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى فجاء أبو جهل ، فقال ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال

(١) هذه العبارة كاسى فى الأصل ، وهي مضطربة . قوله التراب ظهور إلخ أى أنه يقين عن الماء فى التيمم به ، وما بين الأقواس المكففة لزيادة الإيضاح ، وهو يفيد إلى أن المقارنة بين الماء والتراب كالمقارنة بين القلم واللسان وإنه أعلم .

أبو جهل: والله إنك لتعلم أني أكثر أهل الوادي نادياً، فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه، سندع الزبانية) قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله، فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من خلقه ولا يليق به التكبر، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعزراً بما له ورباسته في مكة. ويروى أنه قال ليس بمكة أكرم مني. ولعله لعنه الله قال ذلك ردّاً لقوله (و ربك الأكرم) ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل ما نزل. ومنهم من قال: يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولاً، ثم نزلت البقية بسد ذلك في شأن أبي جهل، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة، لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى، ألا ترى أن قوله تعالى (وايقنوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل (القول الثاني) أن المراد من الإنسان المذكور في هذه الآية جملة الإنسان، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقه، وأنعم عليه بالنعم التي قدمنا ذكرها، إذ أغناه، وزاد في النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد في المعاصي واتباع هوى النفس، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله (إن إلى ربك الرجوع) أي إلى حيث لا مالك سواه. فتقع المحاسبة على ما كان منه من العمل والمواظدة بحسب ذلك.

(المسألة الثانية) قوله (كلا) فيه وجوه (أحدها) أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه، وإن لم يذكر دلالة الكلام عليه (وثانيها) قال مقاتل: كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذي خلقه من العلقه وعلبه بعد الجهل، وذلك لأنه عند صيرورته غنياً يطغى ويتكبر، ويصير مستغرق القلب في حب الدنيا فلا يتفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها (وثالثها) ذكر الجرجاني صاحب النظم أن (كلا) ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شيء تكون (كلا) رداً له، وهذا كما قالوه في (كلا والقمر) فليتهم زعموا أنه بمعنى: إني والقمر.

(المسألة الثالثة) الطغيان هو التكبر والتمرد، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها. أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك. فإن قيل إن فرعون ادعى الربوبية. فقال الله تعالى في حتمه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وههنا ذكر في أبي جهل (ليطغى) فأكد هذه اللام، فما السبب في هذه الزيادة؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أنه قال لموسى (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وذلك قبل أن يلقاه موسى، وقيل أن يعرض عليه الأدلة. وقيل أن يدعى الربوبية. وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أفيح الرد (وثانيها) أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول، وما كان ليعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه. وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان

«أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى» (٧) «إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ» (٨)

يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاه ( وثالثها ) أن فرعون أحسن إلى موسى أولاً ، وقال آخراً ( أمنت ) . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه ، وقال في آخر رومته : بلغوا عنى محمداً أنى أموت ولا أحد أبغض إلى منه ( ورابعها ) أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده . بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

أما قوله تعالى ﴿ أن رآه استغنى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأخفش : لأن رآه لحذف اللام ، كما يقال أنكم لتظفون أن رأيتم غناكم .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال ( أن رآه ) ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تستدعى اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فقول رأيتى وظننتى وحسبتنى فقوله ( أن رآه استغنى ) من هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله ( استغنى ) وجهان : ( أحدهما ) استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس هو الأول . لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام . فانه كان يجالس المساكين ويقول « مسكينين جالس مسكيناً » وعبد الرحمن بن عوف ما طغى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما في حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وماله وعماليكه ، وفي الآية ( وجه ثالث ) (١) وهو أن سين ( استغنى ) سين الطالب والمهني أن الانسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذات الجهد في الطالب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد . لأنه نالها باعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين . يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغياً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

ثم قال تعالى ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ( الرجعى ) المرجع والرجوع وهي بأجمعها مصادر ، يقال رجع إليه رجوعاً

(١) لم يذكر الوجه الثاني كما ترى ولعله سقط من النسخ .

## أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى «٩» عَبْدًا إِذَا صَلَّى «١٠»

ومرجعاً ورجعى على وزن فملى ، وفي معنى الآية وجهان : (أحدهما) أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله ( ولا تحسبن الله غافلاً ) إلى قوله ( إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ) وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قاب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل (والقول الثاني) أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كما رده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجمادية إلى الحياية ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة .

( المسألة الثالثة ) روى أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فطغى . فندع ديننا وتبعب دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم .

قوله تعالى ( أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ) وفيه مسائل :

( المسألة الأولى ) روى عن أبي جهل لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال فوالذي يحلف به لئن رأيت له لأطأن عنقه ، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال إن بيني وبينه لحنديقاً من نار وهو لا شديدأ . وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة .

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد في هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره ، فلذلك قالوا إنه ورد في أبي جهل ، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلي ، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل ، ثم يعم في السلك ، لكن ما بعده يقتضى أنه في رجل بعينه .

( المسألة الثانية ) قوله ( أرأيت ) خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يميزه الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو (ينهى عبداً إذا صلى) (وثانيها) أنه كان يلقب بأبي الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أيوصف بالحكمة ، من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان (وثالثها) أن ذلك الأحق يأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب . ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة .

( المسألة الثالثة ) قال ( ينهى عبداً ) ولم يقل ينهك ، وفيه فوائد (أحدها) أن التنكير في عبداً يدل على كونه كمالاً في اليهودية ، كأنه يقول : إنه عبد لابن العباد بشرح بيانه وصفه إخلاصه في



## أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى «١١» أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى «١٢»

عبوديته ( يروى ) فى هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر فى أيام خلافته فقال أخبرنى عن أخلاق رسولك ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به منى . ثم إن بلال دل على فاطمة ثم فاطمة دلته على على عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لى متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل هذا لا يتيسر لى ، فقال على : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال ( قل متاع الدنيا قليل ) فكيف أصف أخلاق النبى وقد شهد الله تعالى بأبه عظيم حيث قال ( وإنك لعلى خلق عظيم ) فكأنه تعالى قال ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحق ( وثانيتها ) أن هذا أبلغ فى الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينبى كل من يرى ( وثالثتها ) أن هذا تحريف لكل من نهى عن الصلاة ، روى عن على عليه السلام أنه رأى فى المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له ألا تنههم ؟ فقال أخشى أن أدخل تحت قوله ( أ رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ) فلم يصرح بالنبى عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لى ؟ قال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنبى ( ورابعها ) أيقن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لى لأجد ساجداً غيره ، إن محمداً عبد واحد ، ولى من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا وهم دائماً فى الصلاة والتسبيح ( وخامسها ) أنه تفخيم لشأن النبى عليه السلام يقول إنه مع التستكير معرف ، نظيره الكنىة فى سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر ( أسرى ببده ) ( أنزل على عبده ) ( وأنه لما قام عبد الله ) .

ثم قال تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله ( أ رأيت ) خطاب لمن ؟ فيه وجهان ( الأول ) أنه خطاب للنبى عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله ( أ رأيت الذى ينهى عبداً ) للنبى صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله ( أ رأيت إن كذب وتولى ) للنبى عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبى لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يا محمد : أ رأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول أ رأيت إن صار على الهدى ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يلبق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة . فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهى عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنية .

﴿ القول الثانى ﴾ أنه خطاب للكافر ، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم ، وكالمولى الذى قام بين يديه عبدان ، وكالحاكم الذى حضر عنده المدعى ، والمدعى عليه يخاطب هذا مرة ، وهذا

## أرأيت إن كذب وتولى «١٣» ألم يعلم بأن الله يرى «١٤»

مرة . فلما قال للبي (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) التفت بعد ذلك إلى الكافر ، فقال : أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أنتهاء مع ذلك .

(المسألة الثانية) ههنا سؤال وهو أن المذكور في أول الآية . هو الصلاة وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) والمذكور ههنا أمران . وهو قوله (أرأيت إن كان على الهدى) في فعل الصلاة . فلم ضم إليه شيئاً ثانياً ، وهو قوله (أو أمر بالتقوى) ؟ (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الذي شق على أبي جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله . فلا جرم ذكرهما ههنا (وثانيها) أن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا في أحد أمرين ، إما في إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو في إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى (وثالثها) أنه عليه السلام كان في صلاته على الهدى وأمرأ بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه . فيميل إلى الإيمان . فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ وفيه قولان :

(القول الأول) أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التي ذكرها في أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم بديهية عقله ، أن منع العبد من خدمة مولاة فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذا نكل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاة بل منع غيره عن خدمة مولاة يعلم بعقله السليم أنه على الباطل . وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً ، فلماذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة (والثاني) أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهي بل احتياج إلى نهيك .

أما قوله ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ففيه مسألتان :

(المسألة الأولى) المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يجهل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، وترغيباً عظيماً لأهل الطاعة .

(المسألة الثانية) هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد . ولا يرد عليه المتع من الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة ، لأن المهى عنه غير الصلاة وهو المدصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل

كَلَّا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية «١٥» ناصية كاذبة خاطئة «١٨»

وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضاً لعبادة ربه .  
ثم قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نبيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات (وثانيها) كَلَّا لن يصل أبو جهل إلى مايقول إنه يقتل محمداً أو يبطأ عنقه ، بل تليذ محمد هو الذى يقتله ويبطأ صدره (وثالثها) قال مقاتل : كَلَّا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .

ثم قال تعالى ﴿ لئن لم ينته ﴾ أى عما هو فيه ﴿ لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (لنسفعا) وجوه (أحدها) لتأخذ بناصيته ولنسجنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشيء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله ( فيؤخذ بالنواصي والأقدام ) ( وثانيها ) السفع الضرب ، أى لنلطمن وجهه (وثالثها) لنسودن وجهه ، قال الخليل تقول للشئ إذا فحطته النار لفتحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار ، قال والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال والسفمة سواد في الحدين . وبالجملة وتسويد الوجه علامة الإذلال والإهانة (ورابعها) لنسمنه قال ابن عباس في قوله ( نسمنه على الخراطوم ) إنه أبو جهل ( وخامسها ) لنذله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ لسفعن بالنون المشددة ، أى الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال ( فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ) وقرأ ابن مسعود لأسعفن ، أى يقول الله تعالى يا محمد . أنا الذى أتولى إهانتته ، نظيره ( هو الذى أيدك ) ، ( هو الذى أنزل السكينة ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار فى الآخرة وأن يكون المراد منه فى الدنيا ، وهذا أيضاً على وجوه (أحدها) ما روى أن أبا جهل لما قال : إن رأيت يصى لاطآن عنقه ، فأزل الله تعالى هذه السورة ، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبى جهل ويخز الله ساجداً فى آخرها ففعل ، فعدا إليه أبو جهل ليبطأ عنقه ، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً ، فقيس له مالك ؟ قال إن بينى وبينه خلافاً فاعرأ فاه لو مشيت إليه لالتقمى ، وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كنفه فى صورة الأسد ( والثانى ) أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارته بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرؤنه إلى القتل إذا عاد إلى النهى ، فلما عاد لاجرم مكههم الله تعالى من ناصيته يوم بدر ، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن ( علم القرآن ) قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش ، فتثاقفوا مخافة أذيتهم ، فقام ابن مسعود وقال : أنا يارسول الله ، فأجلسه عليه السلام ، ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يقم إلا ابن مسعود ، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر

جثته، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فاطمته فشق أذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً، فقال يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي! فقال ستعلم، فلما ظفر المسلمون يوم بدر النفس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال عليه السلام، خذ رمحك والنس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور، يخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه، ولعل هذا معنى قوله (سنسمة على الخرطوم) ثم لما عرف مجزؤه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال يا ربى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فقال أبو جهل بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه في حياتي ولا أحد أبغض إلى منه في حال مماتي، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال «فرعونى أشد من فرعون موسى فإنه قال (آمنت) وهو قد زاد عتواً» ثم قال لابن مسعود اقطع رأسى بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه: (أحدها) أنه كلب والكلب يجر (والثاني) لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن (والثالث) لتحقق الوعيد المذكور بقوله (لنسفعاً بالناصية) فتجر تلك الرأس على مقدمها، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك، ويقول يا محمد أذن بأذن لسكن الرأس ههنا مع الأذن، فهذا ما روى في مقتل أبى جهل نقلته معنى لا لفظاً، وهو معنى قوله (لنسفعاً بالناصية).

(المسألة الرابعة) الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر ناصية، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية، ولعل السبب فيه أن أباه جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطبيها، وربما كان يهتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه.

(المسألة الخامسة) أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجبولة عندكم صفاتها ناصية وأى ناصية كاذبة قولاً خاطئة فعلاً، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي، وقيل كذبه أنه قال: أنا أكثر أهل هذه الوادى نادياً، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى (لا يأكله إلا الخاطئون) والفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ معاقب مؤاخذ والمخطئ غير مؤاخذ. ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في قوله تعالى (إلى ربها ناظرة).

(المسألة السادسة) (ناصية) بدل من الناصية، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرئ ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية ، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم . واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات . قال : يا محمد بمن تهدي وإني لا أكثر هذا الوادي نادياً ، فافتخر بجماسته الذين كانوا يأكلون حطامه . فنزل قوله تعالى ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد مر تفسير النادى عند قوله ( وتأتون في ناديك المنكر ) قال أبو عبيدة ناديه أى أهل مجلسه ، وبالجملة فالمراد من النادى أهل النادى ، ولا يسمى المسكان نادياً حتى يكون فيه أهله . وسمى نادياً لأن القوم يندون إليه ندأ وندوة ، ومنه دار الندوة بمكة ، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور . وقيل سمى نادياً لأنه مجلس الندى والجدود . ذكر ذلك على سبيل التهكم أى : اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبينة وأصله من زبينة إذا دفعته وهو كل متمرد من إنس أو جن ، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبينة عفرية ، وقال الأخفش قال بعضهم واحده الزباني ، وقال آخرون الزابن ، وقال آخرون هذا من الجمع الذى لا واحده من لفظه في لغة العرب مثل أبابيل وعبايد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة . وقال مقاتل هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤوسهم في السماء ، وقال قتادة الزبانية هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد . وملائكة النار سمو الزبانية لأنهم يزنون الكفار أى يدفعونهم في جهنم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان ( الأول ) أى فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباحلة محمد ، فإنه لو فعل ذلك فتحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم ، قال ابن عباس : لودعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معانته ، وقيل هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالسكب وقد فعل به ذلك يوم بدر ، وقيل بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار ( القول الثانى ) أن في الآية تقديماً وتأخيراً أى لفسعاً بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة ، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله ( فليدع ناديه ) تدل على المعجز . لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه ، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية . فلما لم يجترأ الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرئ ( ستدعى ) على المجهول ، وهذه السين ليست للشك (١) فإن عسى

(١) السين من معانها التأكيد للوعد أو الوعيد ، نحو قوله تعالى ( فسيفكهم الله ) ونحو سأنتقم منك . ولم أصف على أنها لشك ولعل الامام أراد التأكيد بنى مقابله وهو الشك . لأن المجهول كان شاكاً في الآخرة .

## كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ «١٩»

من الله واجب الوقوع ، وخصوصاً عند إشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام « لا نصرنك ولو بعد حين » .

ثم قال ﴿ كَلَّا ﴾ وهو ردع لأبي جهل ، وقيل معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك ، ويحتمل : لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال ﴿ لا تطعه ﴾ وهو كقوله ( فلا تطع المكذبين ) ، ﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلاً وإبلاغاً ، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك ، وقال بعضهم بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود في الصلاة .

ثم قال ﴿ واقترِب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفي الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » وقال بعضهم المراد : اسجد يا محمد ، واقترِب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكانت له تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله ( ليغيظ بهم الكفار ) والسبب الماوجب لازدياد الغيظ هو أن الكافر كان يمنع من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ، ثم قال عند ذلك ( واقترِب ) منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فإن الرجل ساجده مشغول بنفسه ، وهذا تمكيم به واستحقار لشأبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

( سورة القدر )

( خمس آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

( إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ) فيه مسائل :

( المسألة الأولى ) أجمع المفسرون على أن المراد : إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، ولكنه تعالى ترك التصريح بالذکر ، لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه ( أحدها ) أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره ( والثاني ) أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح ، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل ولم يخف على أحد لاشتهاره ، وقوله ( فلولا إذا بلغت الحلقوم ) لم يذكر الموت لشهرته ، فكذا ههنا ( والثالث ) تعظيم الوقت الذي أنزل فيه .

( المسألة الثانية ) أنه تعالى قال في بعض المواضع ( إني ) كقوله ( إني جاعل في الأرض خليفة ) وفي بعض المواضع ( إنا ) كقوله ( إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ) . ( إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكْرَ ) ، ( إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ) ، ( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكِتَابَ ) . واعلم أن قوله ( إِنَّا ) تارة يراد به التعظيم ، وحمله على الجمع محال لأن الدلائل دلت على وحدة الصانع ، ولأنه لو كان في الآلهة كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الإلهية ، لأنه لو كان كل واحد منهم قادراً على السجود لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم ، وكونه مستغنى عنه نقص في حقه فيكون الكل ناقصاً ، وإن لم يكن كل واحد منهم قادراً على الكمال كان ناقصاً ، فدلنا أن قوله ( إِنَّا ) محمول على التعظيم لا على الجمع .

( المسألة الثالثة ) إن قيل مامعنى إنه أنزل في ليلة القدر ، مع العلم بأنه أنزل نجومياً ؟ قلنا فيه وجوه : ( أحدهما ) قال الشعبي ابتداء بإنزاله ليلة القدر لأن البعث كان في رمضان ( والثاني ) قال ابن عباس أنزل إلى سما ، الدنيا جملة ليلته القدر ، ثم إلى الأرض نجومياً ، كما قال ( فلا أقسم بمواقع النجوم ) وقد ذكرنا هذه المسألة في قوله ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ) لا يقال : فعلى هذا القول لم لم يقل أنزلناه إلى السماء ؟ لأن إطلاقه يوم الإنزال إلى الأرض ، لأننا نقول إن إنزاله إلى السماء كإنزاله إلى الأرض ، لأنه لم يكن ليشرع في أمر ثم لا يتمه ، وهو كعنايب جاء إلى نواحي البلد

يقال جاء فلان ، أو يقال الغرض من تقريبه وإنزاله إلى سماء الدنيا أن يشوقهم إلى نزوله كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لوالده أو أمه ، فانه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً  
إذا دنت الدبار من الدبار

وهذا لأن السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة ، فهي لهم مسكن وناسقف وزينة . كما قال :  
( وجعلنا السماء سقفاً ) فإنزاله القرآن هناك كإنزاله ههنا ( والوجه الثالث في الجواب ) أن التقدير أنزلنا هذا الذكر ( في ليلة القدر ) أى في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها .

( المسألة الرابعة ) القدر مصدر قدرت أفدر قدراً ، والمراد به ما يمضيه الله من الأمور ، قال ( إنا كل شيء خلقناه بقدر ) والقدر ، والقدر واحد إلا أنه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم ، قال الواحدى : القدر فى اللفظة بمعنى التقدير ، وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، واختلفوا فى أنه لم سميت هذه الليلة ليلة القدر ، على وجوه ( أحدها ) أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام ، قال عطاء : عن ابن عباس أن الله قدر ما يكون فى كل تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، ونظيره قوله تعالى ( فيها يفرق كل أمر حكيم ) واعلم أن تقدير الله لا يحدث فى تلك الليلة . فإنه تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض فى الأزل ، بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة فى تلك الليلة بأن يكتبها فى اللوح المحفوظ ، وهذا القول اختيار عامة العلماء ( الثانى ) نقل عن الزهرى أنه قال ( ليلة القدر ) ليلة العظمة والشرف من قولهم لفلان قدر عند فلان ، أى منزلة وشرف ، وبدل عليه قوله ( ليلة القدر خير من ألف شهر ) ثم هذا يحتمل وجهين ( أحدهما ) أن يرجع ذلك إلى المعامل أى من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف ( وثانيهما ) إلى الفعل أى الطاعات لها فى تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد ، وعن أبى بكر الوراق سميت ( ليلة القدر ) لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذى قدر ، على أمه لها قدر ، ولعل الله تعالى إنما ذكر لفظة القدر فى هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب .

( والقول الثالث ) ليلة القدر ، أى الضيق فإن الأرض تضيق عن الملائكة .

( المسألة الخامسة ) أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه ( أحدها ) أنه تعالى أخفاها ، كما أخفى سائر الأشياء ، فإنه أخفى رضاه فى الطاعات ، حتى يرغبوا فى الكل ، وأخفى غضبه فى المعاصى ليحترزوا عن الكل ، وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، وأخفى الإجابة فى الدعاء ليبالغوا فى كل الدعوات . وأخفى الإسم الأعظم ليعظموا كل الاسماء ، وأخفى فى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليوأظب المكلف على جميع أسفام التوبة ، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف ، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالى رمضان ( وثانيها ) كأنه تعالى يقول : لو عيذت ليلة القدر ، وأنا عالم بتجارمكم على المعصية ، فربما دعيت الشهوة فى



تلك الليلة إلى المصيبة . فوَقعت في الذنب ، فكانت مصيبتك مع علك أشد من مصيبتك لا مع علك ، فهذا السبب أخفيتها عليك ، روى أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائماً ، فقال يا على نهه ليتوضأ ، فأيقظه على . ثم قال على يا رسول الله إنك سباق إلى الخيرات ، فلم لم تنهه ؟ قال : لأن رده عليك ليس بكفر ، ففعلت ذلك لتخفف جنايته لو أبى ، فإذا كان هذا رحمة الرسول ، فقس عليه رحمة الرب تعالى . فكانه تعالى يقول : إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر ، وإن عصيت فيها اكتسبت عقاب ألف شهر ، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب ( وثالثها ) أتى أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها ، فيكتسب ثواب الاجتهاد (ورابعها) أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر ، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان ، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر ، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته ، ويقول : كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء . فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة ، فكيف لو جعلها معلومة له !  
خليفة يظهر سر قوله : ( إني أعلم ما لا تعلمون ) .

(( المسألة السادسة )) اختلفوا في أن هذه الليلة هل تستبوع اليوم ؟ قال الشعبي نعم يومها كليتها . ولعل الوجه فيه أن ذكر الليالي يستبوع الأيام . ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين الزمناه بيوميهما قال تعالى ( وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه ) أى اليوم يخلف ليلته وبالضد .

(( المسألة السابعة )) هذه الليلة هل هي باقية ؟ قال الخليل : من قال إن فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرة ، والجمهور على أنها باقية . وعلى هذا هل هي مختصة بـرمضان أم لا ؟ روى عن ابن مسعود أنه قال : من يقيم الحول يصبها . وفسرها عكرمة بليلة البراءة في قوله ( إنا أنزلناه في ليلة مباركة ) والجمهور على أنها مختصة بـرمضان واحتجوا عليه بقوله تعالى ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ) وقال ( إنا أنزلناه في ليلة القدر ) فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان ثلاثاً يلزم التناقض ، وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية أقوال ، فقال ابن رزين ليلة القدر هي الليلة الأولى من رمضان ، وقال الحسن البصرى السابعة عشرة ، وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشرة ، وقال محمد بن إسحق الحادية والعشرون . وعن ابن عباس الثالثة والعشرون ، وقال ابن مسعود الرابعة والعشرون ، وقال أبو ذر الغفارى الخامسة والعشرون . وقال أبو بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون ، وقال بعضهم التاسعة والعشرون . أما الذين قالوا إنها الليلة الأولى [فقد] قالوا : روى وهب أن صحف إبراهيم أنزلت في الليلة الأولى من رمضان والتوراة لست ليال مضين من رمضان بعد صحف إبراهيم بسبعائة سنة ، وأنزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بمخمسائة عام وأنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستائة عام وعشرين عاماً ، وكان القرآن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة قدر من السنة إلى السنة كان جبريل عليه السلام ينزل به من بيت العزة من السماء

## وَمَا أَدْرِيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

السابعة إلى سماء الدنيا ، فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهراً في عشرين سنة ، فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذي حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة ، لاجرم كان في غاية الشرف والقدر والرتبة فكانت الليلة الأولى منه ليلة القدر ، وأما الحسن البصرى فإنه قال هي ليلة سبعة عشر ، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر ، وأما التاسعة عشرة فقد روى أنس فيها خبراً ، وأما الليلة الحادية والعشرون فقد مال الشافعى إليه لحديث المساء والطين ، والذي عليه المعظم أنها ليلة السابع والعشرين ، وذكروا فيه أمارات ضعيفة (أحدها) حديث ابن عباس أن السورة ثلاثون كلمة . وقوله (هي) هي السابعة والعشرون منها (وثانيتها) روى أن عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس غصص يا غواص فقال زيد بن ثابت أحضرت أولاد المهاجرين وما أحضرت أولادنا . فقال عمر : لعلك تقول إن هذا غلام ، ولكن عنده ما ليس عندكم . فقال ابن عباس أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر وأحب الوتر إليه السبعة ، فذكر السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع ودركات النار وعدد الطواف والأعضاء السبعة ، فدل على أنها السابعة والعشرون (وثالثها) نقل أيضاً عن ابن عباس ، أنه قال (ليلة القدر) تسعة أحرف ، وهو مذکور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين (ورابعها) أنه كان لعثمان بن أبي العاص غلام ، فقال يامولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر ، قال : إذا كانت تلك الليلة ، فأعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان . وأما من قال إنها الليلة الأخيرة قال لأنها هي الليلة التي تم فيها طاعات هذا الشهر ، بل أول رمضان كآدم وآخره كحماد ، ولذلك روى في الحديث ، يعنى في آخر رمضان بعدد ما أعتق من أول الشهر ، بل الليلة الأولى كمن ولد له ذكر ، فهي ليلة شكر ، والأخيرة ليلة الفراق . كمن مات له ولد ، فهي ليلة صبر ، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر .

ثم قال تعالى ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ يعنى ولم تبلغ درايك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم إنه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة أوجه :

(الأول) قوله تعالى ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في تفسير الآية وجوه (أحدها) أن العبادة فيها (خير من ألف شهر) ليس فيها هذه الليلة ، لأنه كالمستحيل أن يقال إنها (خير من ألف شهر) فيها هذه الليلة ، وإنما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير (وثانيتها) قال مجاهد : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي ففعل ذلك ألف شهر ، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، أى ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر (وثالثها) قال مالك بن أنس : أرى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعمار الناس ، فاستقص أعمار أمته . وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم ( ورابعها ) روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن . قال : قلت للحسن بن علي عليه السلام يأسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى في منامه بنى أمية يطؤون منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة ، فسق ذلك عليه فأنزل الله تعالى ( إنا أنزلناه في ليلة القدر ) إلى قوله ( خير من ألف شهر ) يعني ملك بنى أمية قال القاسم فحسبنا ملك بنى أمية ، فإذا هو ألف شهر . طعن القاضي في هذه الوجوه فقال ما ذكر من ( ألف شهر ) في أيام بنى أمية بعيد ، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة ، وأيام بنى أمية كانت مذمومة .

واعلم أن هذا الطعن ضعيف . وذلك لأن أيام بنى أمية كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية ، فلا يمتنع أن يقول الله إنى : أعطيتك ليلة هي في السعادات الدنيوية أفضل من تلك السعادات الدنيوية .

( المسألة الثانية ) هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير . ولم يبين قدر الخيرية ، وهذا كقرنه عليه السلام لمبارزة علي عليه السلام مع عمرو بن عبد ود [العامري] أفضل من عمل أمتى إلى يوم القيامة . فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل كأنه يقول حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف .

واعلم أن من أحياءها مكاناً عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ، ومن أحيائها كل سنة فكانه رزق أعماراً كثيرة ، ومن أحياء الشهر لينالها ييقين فكانه أحياء ثلاثين قدراً . يروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيليين الذي عبد الله أربعاً مائة سنة ، ويجاء رجل من هذه الأمة ، وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر ، فيقول الإسرائيلي أنت العدل ، وأرى ثوابه أكثر ، فيقول لأنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون ، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) ثم إنهم كانوا يعبدون ، فلماذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً . وأما التهديد فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار ، وأن إحياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق بتطفيف حبة واحدة ، فهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذنب والمعصية .

( المسألة الثالثة ) لقائل أن يقول : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أجرك على قدر نصيبك » ومن المعلوم أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة ، فكيف يعقل استواؤهما ؟ ( والجواب ) من وجوه . ( أحدها ) أن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة إليه . ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بكذا درجة . مع أن الصورة قد تنتقض فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة . وأيضاً

## تَنزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا

فأنت تقول لمن يرجم : إنه إنما يرجم لأنه زان فهو قول حسن ، ولو قلته للنصراني فقفذ يوجب التعزير ، ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد ، فقد اختلفت الأحكام في هذه المواضع ، مع أن الصورة واحدة في الكل . بل لو قلته في حق عائشة كان كفراً . ولذلك قال ( وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ) وذلك لأن هذا طعن في حق عائشة التي كانت رحلة في العلم ، لقوله عليه السلام « خذوا ثلثي دينكم من هذه الجبراء » وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بدرياً ، وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بدرياً ، وطعن في كافة المؤمنين لأنها أم المؤمنين ، وللولد حق المطالبة بقذف الأم وإن كان كافراً ، بل طعن في النبي الذي كان أشد خلق الله غيراً ، بل طعن في حكمة الله إذ لا يجوز أن يترك حتى يتزوج بامرأة زانية ، ثم القائل بقوله : هذا زان ، فقد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال . فقد ثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها . فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعات الكثيرة ( والوجه الثاني ) في الجواب أن مقصود الحكيم سبحانه أن يجر الخلق إلى الطاعات فتارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين ، فقال ( إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ) ومرة عشرأ ، ومرة سبعائة ، وتارة بحسب الأزمنة ، وتارة بحسب الأمكنة . والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا ، فتارة يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد ، وتارة يفضل رمضان على سائر الشهور ، وتارة يفضل الجمعة على سائر الأيام ، وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالي ، والمقصود ما ذكرناه ( الوجه الثاني ) من فضائل هذه الليلة .

قوله تعالى ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن نظر الملائكة على الأرواح ، ونظر البشر على الأشباح ، ثم إن الملائكة لما رأوا روحك محلاً للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ما قبلوك . فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وأبوك لما رأوا قبح صورتك في أول الأمر حين كنت منياً وعلقة ما قبلوك أيضاً ، بل أظهروا النفرة . واستقذروا ذلك المني والعلقة ، وغسلوا نياهم عنه ، ثم كرم احتالوا للاسقاط والإبطال ، ثم إنه تعالى لما أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك ، فكندا الملائكة لما رأوا في روحك الصورة الحسنة وهي معرفة الله وطاعته أحبوك فنزلوا إليك معتذرين عما قالوه أولاً . فهذا هو المراد من قوله ( تنزل الملائكة ) فإذا نزلوا إليك رأوا روحك في ظلمة ليل البدن ، وظلمة القوى الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم ( ويستغفرون للذين آمنوا ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن قوله تعالى ( تنزل الملائكة ) يقتضى ظاهره نزول كل الملائكة ، ثم إن

الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتمل لهم الأرض ، ولهذا السبب اختلفوا فقال بعضهم إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا ، فإن قيل الإشكال بعد باق لأن السماء مملوءة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك ، فكيف تسع الجميع سماء واحدة ؟ قلنا يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد ، كيف والمروى إنهم ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل وصاعد كاهل الحج فإينهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج . ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ ( تنزل ) الذي يفيد المرة بعد المرة .

( والقول الثاني ) وهو إختيار الأكثرين أنهم ينزلون إلى الأرض وهو الأوجه ، لأن الغرض هو الترغيب في إحياء هذه الليلة ، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون في سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين . فلأن يحصل ذلك في هذه الليلة مع علو شأنها أولى ، ولأن النزول المطلق لا يفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض ، ثم اختلف من قال ينزلون إلى الأرض على وجوه : ( أحدها ) قال بعضهم ينزلون ليروا عبادة البشر وخدمهم واجتهادهم في الطاعة ( وثانيها ) أن الملائكة قالوا ( وما تنزل إلا بأمر ربك ) فهذا يدل على أنهم كانوا مأمرين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة .

أما هذه الآية وهو قوله ( ياذن ربهم ) فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولاً فأذنوا ، وذلك يدل على غاية المحبة ، لأنهم كانوا يرغبون في إيماننا ولقاءنا . لكن كانوا ينتظرون الإذن . فإن قيل قوله ( وإننا لنحن الصافون ) يتنافى قوله ( تنزل الملائكة ) قلنا انصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين ( ثالثها ) أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة ( يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم ) فهنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسليم والزيارة ، روى عن علي عليه السلام « أنهم ينزلون ليمسوا علينا وليشفعوا لنا فنأصأبه التسليمه غفر له ذنبه » ( ورابعها ) أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعتهم أكثر ثواباً ، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثواباً ، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة ( وخامسها ) أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكارب من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلو . فانه تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيسكون أتم وعن النقصان أبعد ( وسادسها ) أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة ، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة ، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة ، وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها . ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للدؤمين ينزلون مع جبريل ليلة القدر ، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للدؤمين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من الناس إلا صالحهم ، وعلامة ذلك من اقشعر جلده

## بِأَذْنِ رَبِّهِمْ

ورق قلبه ودمعت عيناه . فإن ذلك من صالحه جبريل عليه السلام ، من قال فيها ثلاث مرات لإله إلا الله غفر له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة . وأدخله الجنة بواحدة . وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيسبط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ثم يدعو ملكاً ملكاً ، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام ، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للؤمنين ؛ ولمن صام رمضان احتساباً ، فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجاسون حلقاً حلقاً فتجتمع إليهم الملائكة السماء فيسألونهم عن رجل من رجل وعن امرأة امرأة ، حتى يقولوا ما فعل فلان وكيف وجدتموه ؟ فيقولون وجدناه عام أول متعبداً ، وفي هذا العام مبتدعاً ، وفلان كان عام أول مبتدعاً ، وهذا العام متعبداً ، فيكفون عن الدعاء لأول ، ويستغفون بالدعاء للثاني ، ووجدنا فلاناً تالياً ، وفلاناً راعياً ، وفلاناً ساجداً ، فهم كذلك يومهم وليتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء حتى يذهبوا إلى السدرة . فتقول لهم السدرة : يا ساكني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً ، وإني أحب من أحب الله ، فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة ، فتقول الجنة : اللهم مجلبهم لي ، والملائكة . وأهل السدرة يقولون : آمين آمين ، إذا عرفت هذا فتقول : كلما كان الجمع أعظم ، كان نزول الرحمة هناك أكثر ، ولذلك فإن أعظم الجوع في موقف الحج ، لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر ، فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين ، فلا جرم كان نزول الرحمة أكثر .

(المسألة الثالثة) ذكروا في الروح أقوالاً (أحدها) أنه ملك عظيم ، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة (وثانيها) طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا تراهم إلا يوم العيد (وثالثها) خاق من خاق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ، ولا من الإنس ، ولهم خدم أهل الجنة (ورابعها) يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه . ثم إنه ينزل في موافقة الملائكة ليطلع على أمة محمد (وخامسها) أنه القرآن . وكذلك أرحمنا إليك روحاً من أمرنا) (وسادسها) الرحمة قرى . (لا تأسوا من روح الله) بالرفع كأنه تعالى ، يقول الملائكة ينزلون رحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة (وسابعها) الروح أشر من الملائكة (وثامنها) عن أبي نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب العين يكتب إتيانه بالواجب ، وصاحب الشمال يكتب تركه للبيح ، والأصح أن الروح ههنا جبريل . وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة أما قوله تعالى (يا ذن ربهم) فقد ذكرنا أن هذا يدل على أنهم كانوا اشتاقين إلينا ، فإن

## مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ٥٥

قيل : كيف يرغبون إبتساع علمهم بكثرة مواصينا ؟ قلنا إنهم لا يقفون على تفصيل المعاصي روى أنهم يطعمون اللوح ، فيرون فيه طاعة المسكف مفصلة ، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا ترونها ، فحينئذ يقول سبحانه من أظهر الجليل ، وستر على القبيح ، ثم قد ذكرنا فوائد في نزولهم ونذكر الآن فوائد أخرى وحاصلها أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات (أحدها) أن الأغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجملونه ضيافة للفقراء والمفقرات يأكلون طعام الأغنياء ، ويعبدون الله ، وهذا نوع من الطاعة لا يوجد في السموات (وثانيها) أنهم يسمعون أنين العصاة وهذا لا يوجد في السموات ( وثالثها ) أنه تعالى قال « لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين » فقالوا تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسييحنا ، وكيف لا يكون أحب وزجل المسبحين إظهار لكل حال المطيعين ، وأنين العصاة إظهار لغفارية رب الأرض والسموات [وهذه هي المسألة الأولى] (١) .

( المسألة الثانية ) هذه الآية دالة على عصمة الملائكة ونظيرها قوله ( وما تنزل إلا بأمر ربك ) وقوله ( لا يسبقونه بالقول ) وفيها دقيقة وهي أنه تعالى لم يقل مأذونين بل قال ( بإذن ربهم ) وهو إشارة إلى أنهم لا يتصرفون تصرفاً مالم لا يأذنه . ومن ذلك قول الرجل لامرأته إن خرجت إلا بإذني ، فانه يعتبر الإذن في كل خرجة .

( المسألة الثالثة ) قوله ( ربهم ) يفيد تعظيماً للملائكة وتحقيراً للعصاة ، كأنه تعالى قال : كانوا لي فكنت لهم ، ونظيره في حقنا ( إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ) وقال محمد عليه السلام ( وإذ قال ربك ) ونظيره ما روى أن داود لما مرض مرض الموت قال : إلهي كن سليمان كما كنت لي ، فنزل الوحي وقال : قل سليمان فليكن لي كما كنت لي ! وروى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه فقد الضيف أياماً ففرج بالسفرة ليلمس ضيفاً فاذا بجيمة . فتأدى أتريدون الضيف ؟ فقيل نعم ، فقال للضيف أيوجد عندك إدام لبن أو عسل ؟ فرفع الرجل صخرتين فضرب إحدهما بالأخرى فانشق فخرج من إحدهما اللبن ومن الأخرى الدسل ، فتعجب إبراهيم وقال : إلهي أما خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام ، فإله ؟ فنزل الوحي يا خليلي كان لنا فكنتنا له .

أما قوله تعالى ( من كل أمر ) فعناه تنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر ، والمعنى أن كل واحد منهم إنما نزل لهم أمر ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنهم كانوا في أشغال كثيرة فبعضهم للركون وبعضهم للسجود ، وبعضهم بالدعاء ، وكذا القول في التفكير والتعليم ، وإبلاغ الوحي ، وبعضهم لإدراك فضيلة الليلة أو ليسلموا على المؤمنين ( وثانيها ) وهو قول الأكثرين

(١) ما بين القوسين المراد به زيادة دعا إليها عدم ترجمة المذنب للدلالة الأولى . أو لعلنا قد سقطت من الناس .



## سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ «٥»

من أجل كل أمر قدر في تلك السنة من خير أو شر ، وفيه إشارة إلى أن نزولهم إنما كان عبادة ، فنكأهم قالوا ما نزلنا إلى الأرض لهوى أنفسنا ، لكن لأجل كل أمر فيه مصلحة المكلفين . وعم لفظ الأمر ليعم خير الدنيا والآخرة بياناً منه أنهم ينزلون بما هو صلاح المكلف في دينه ودنياه كأن السائل يقول من أين جئت ؟ فيقول : مالك وهذا الفضول ، ولكن قل لآي أمر جئت لأنه حظك ( وثالثها ) قرأ بعضهم ( من كل امرئ ) أى من أجل كل إنسان ، وروى أنهم لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ، قيل : ليس أنه قد روى أنه تقسم الأجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان ، والآن تقولون إن ذلك يكون ليلة القدر ؟ قلنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يقدر المقادير في ليلة البراءة ، فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها » وقيل يقدر ليلة البراءة الأجال والأرزاق ، وليسلة القدر يقدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة ، وقيل يقدر في ليلة القدر ما يتعلق به إعزاز الدين ، وما فيه النفع العظيم للمسلمين ، وأما ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت .

( الوجه الثالث ) من فضائل هذه الليلة . قوله تعالى ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ وفيه مسائل :  
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله سلام وجوه ( أحدها ) أن ليلة القدر ، إلى طلوع الفجر سلام أى تسلم الملائكة على المطيعين ، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة السلام ( وثانيها ) وصفت الليلة بأنها سلام ، ثم يجب أن لا يستحقر هذا السلام لأن سبعة من الملائكة سلموا على الخليل في قصة العجل الخنيز ، فازداد فرحه بذلك على فرحه بملك الدنيا ، بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمرود عليه ( برداً وسلاماً ) أفلا تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا ( برداً وسلاماً ) لكن ضيافة الخليل لهم كانت مجللاً مشويماً وهم يريدون منا قلباً مشويماً ، بل فيه دققة ، وهى إظهار فضل هذه الأمة ، فإن هناك الملائكة . نزلوا على الخليل ، وههنا نزلوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ( وثالثها ) أنه سلام من الشرور والآفات ، أى سلامة وهذا كما يقال : إنما فلان حج وغزو أى هو أبداً مشغول بهما ، ومثله :  
 « فإتيا هي إقبال وإدبار »

وقالوا تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالخيرات والسعادات ولا ينزل فيها من تقدير المضار شيء فما ينزل في هذه الليلة فهو سلام ، أى سلامة ونفع وخير ( ورابعها ) قال أبو مسلم سلام أى الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق إلى ما شابه ذلك ( وخامسها ) سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءاً ( وسادسها ) أن الوقف عند قوله ( من كل أمر سلام ) فيتصل السلام بما قبله ومعناه أن تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم إلى طلوع الفجر ، وهذا الوجه ضعيف ( وسابعها )



أنها من أولها إلى مطلع الفجر سالمة في أن العبادة في كل واحد من أجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالي في أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللعبادة النصف والدعاء السحر بل هي متساوية الأوقات والأجزاء ( وثانيتها ) سلام هي ، أي جنة هي لأن من أسماء الجنة دار السلام أي الجنة المصوغة من السلامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المطلع الطلوع يقال طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى طلوع الفجر ، ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع وكذا مكان الطلوع مطلع قاله الزجاج ، أما أبو عبيدة والفراء وغيرهما فأنهم اختاروا فتح اللام لأنه بمعنى المصدر ، وقالوا الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع ههنا بل إن حمل على ما ذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح ، قال أبو علي ويمكن حمله على المصدر أيضاً ، لأن من المصادر التي ينبغي أن تكون على المفعول ما قد كسر كقر لهم علاء المسكبر والمعجز ، وقوله ( ويسألونك عن المحيض ) فكذلك كسر المطلع جاء شاذاً عما عليه بابه . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## ( سورة البينة )

( وهي ثمانية آيات مدنية )

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ  
 الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صَحَافًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا  
 تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

## ( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة )  
 أعلم أن في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال الواحدى في كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظماً وتفسيراً ، وقد تحبط فيها الكبار من العلماء ، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يخلص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية (لم يكن الذين كفروا من مشركين حتى تأتيهم البينة) التي هي الرسول . ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه ، فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا من مشركين . عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضى أنهم صاروا من مشركين عن كفرهم عند إتيان الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام . فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن (والجواب) عنه من وجوه (أولها) وأحسنها الوجه الذى لحظه صاحب الكشاف . وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم : لا تنفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل . وهو محمد عليه السلام ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ، ثم قال : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) يعنى

أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقمهم عن الحق ولا أفرمهم على الكفر إلا بجيء الرسول ، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست أمتنع بما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى ، فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقاً فيقول واعظه لم تكن منفسكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار بذكركه ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً ، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد ، وهو أن قوله ( لم يكن الذين كفروا منفسكين ) عن كفرهم ( حتى تأتيمهم البيئته ) مذكورة حكاية عنهم ، وقوله ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ) هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذي وقع كان على خلاف ما ادعوا ( وثانيها ) أن تقدير الآية ، لم يكن الذين كفروا منفسكين عن كفرهم وإن جاءتهم البيئته . وعلى هذا التقدير يزول الإشكال هكذا ذكره القاضى إلا أن تفسير لفظه حتى بهذا ليس من اللغة في شيء . ( وثالثها ) أنا لأحمل قوله ( منفسكين ) على الكفر بل على كونهم منفسكين عن ذكر محمد بالمناب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفسكين عن ذكر محمد بالمناب والفضائل حتى تأتيمهم البيئته قال ابن عرفة أى حتى أتيمهم ، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي ، وهو كقوله تعالى ( ماتلوا الشياطين ) أى ماتلت ، والمعنى أنهم ما كانوا منفسكين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولاً آخر ردياً ونظيره قوله تعالى ( وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ) والقول المختار في هذه الآية هو الأول ، وفي الآية وجه رابع وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفسكين عن كفرهم إلى وقت بجيء الرسول ، وكلمة حتى تقتضى أن يكون الحال بعد ذلك ، بخلاف ما كان قبل ذلك ، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا فنهزم من صار مؤمناً . ومنهم من صار كافراً ، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد بجيء الرسول كما كان قبل مجيئه ، كفى ذلك في العمل بمدلول لفظ حتى ، وفيها ( وجه خامس ) وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفسكين عن التردد في كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته ، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول ، بل بقوا شاكين متحيرين في ذلك الدين وفي سائر الأديان ، ونظيره قوله ( كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ) والمعنى أن الدين الذي كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودى كان جازماً في يهوديته وكذا النصرانى وعابد الوثن ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام : اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقاتته ، وقوله تعالى ( منفسكين ) مشعر بهذا لأن انفكك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه ، فمعناه أن قلوبهم ما حلت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها ، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة .

( المسألة الثانية ) الكفار كانوا جنسين ( أحدهما ) أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفاراً ياحدائهم في دينهم ما كفروا به كقولهم ( عزيز ابن الله ) و ( المسيح ابن الله ) وتحريفهم

كتاب الله ودينه ( والثاني ) المشركون الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله ( الذين كفروا ) على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل ، وهو قوله ( من أهل الكتاب والمشركين ) وههنا سؤالان :

( السؤال الأول ) تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضى أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، ومعلوم أن هذا ليس بحق ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) كلمة من ههنا ليست للتبعض بل للتبيين كقوله ( فاجتنبوا الرجس من الأوثان ) ( وثانيها ) أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين ، فأدخل كلمة من لهذا السبب ( وثالثها ) أن يكون قوله ( والمشركين ) أيضاً وصفاً لأهل الكتاب ، وذلك لأن النصراني مثلثة واليهود عامتهم مشبهة ، وهذا كله شرك ، وقد يقول القائل جاني العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالأميرين . وقال تعالى ( الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود ) وهذا وصف لطائفة واحدة ، وفي القرآن من هذا الباب كثير ، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى ، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد .

( السؤال الثاني ) المجوس هل يدخلون في أهل الكتاب ؟ ( قلنا ) ذكر بعض العلماء أنهم داخلون في أهل الكتاب لقوله عليه السلام « سنوليم سنة أهل الكتاب » وأنكره الآخرون قال لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان في بلاد العرب ، وهم اليهود والنصارى ، قال تعالى حكاية عنهم ( أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ) والطائفتان هم اليهود والنصارى . ( السؤال الثالث ) ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين ؟ حيث قال ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ) ؟ ( الجواب ) أن الواو لا تفيد الترتيب ، ومع هذا ففيه فوائد ( أحدها ) أن السورة مدنية ، فكان أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر ( وثانيها ) أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أنهم ، فكان إصرارهم على الكفر أقيح ( وثالثها ) أنهم لكونهم علماء يقتدى غيرهم بهم فكان كفرهم أصلاً لكفر غيرهم ، فلهذا قدموا في الذكر ( ورابعها ) أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا في الذكر .

( السؤال الرابع ) لم قال من أهل الكتاب ، ولم يقل من اليهود والنصارى ؟ ( الجواب ) لأن قوله ( من أهل الكتاب ) يدل على كونهم علماء ، وذلك يقتضى إما مزيد تعظيم ، فلا جرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى ، أو لأن كونه عالماً يقتضى مزيد قبح في كفره ، فذكروا بهذا الوصف تنبيهاً على تلك الزيادة من العقاب .

( المسألة الثالثة ) هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع (أحدها) أنه تعالى فسر قوله (الذين كفروا) بأهل الكتاب وبالمشركين ، فهذا يقتضى كون الكل واحداً في الكفر ، فن ذلك قال العلماء : الكفر كله له واحدة ، فالمشرك يرث اليهودى وبالعكس ( والثاني ) أن العطف أو جب المغايرة ، فلذلك نقول اللفظي ليس بمشرك ، وقال عليه السلام «غيرنا نحن نسامهم ولا آكل ذبايحهم» فأثبت التفرقة بين الكتاني والمشرك (الثالث) نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاعتراض بأهل العلم إذ قد حدث في أهل القرآن مثل ما حدث في الأمم الماضية .

( المسألة الرابعة ) قال القفال الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال ، ومنه فسكت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته ، ومنه فكك الرهن وهو زوال الإنفلاق الذي كان عليه ألا ترى أن ضد قوله انفك الرهن ، ومنه فكك الأسير وفكك ، فثبت أن انفكك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة ، وأما البينة فهي الحججة الظاهرة التي بها يتميز الحق من الباطل فهي من البيان أو البيونة لأنها تبين الحق من الباطل ، وفي المراد من البينة في هذه الآية أقوال :

( الأول ) أنها هي الرسول ، ثم ذكروا في أنه لم سمي الرسول بالبينة وجوهاً (الأول) أن ذاته كانت بينة على نبوته ، وذلك لأنه عليه السلام كان في نهاية الجدة في تقرير النبوة والرسالة ، ومن كان كذاباً متصنعاً فإنه لا يتأتى منه ذلك الجدة المنتهى ، فلم يبق فيه إلا أن يكون صادقاً أو معتوهاً ( والثاني ) معلوم البطلان لأنه كان في غاية كمال العقل ، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً ( الثاني ) أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز ، والجاحظ قرر هذا المعنى ، والغزالي رحمه الله نصره في كتاب المنقذ ، فأذا لهذين الوجهين سمي هو في نفسه بأنه بينة (الثالث) أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت في غاية الظهور وكانت أيضاً في غاية السكثرة فاجتماع هذين الأمرين جعل كأنه عليه السلام في نفسه بينة وحجة . ولذلك سماه الله تعالى (سراجاً منيراً) . واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية (رسول من الله) فهو رفع على البديل من البينة ، وقرأ عبد الله (رسولاً) حال من البينة قالوا والألف واللام في قوله (البينة) للتعريف أى هو الذى سبق ذكره في التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى ، أو يقال إنها للتفخيم أى هو (البينة) التي لا مزيد عليها أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا في حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم تى بالتنكير فقال (رسول من الله) أى هو رسول ، وأى رسول ، ونظيره ما ذكره الله تعالى في الشفاء على نفسه فقال (ذو العرش المجيد) ثم قال (فعال) فسكرر بعد التعريف .

( القول الثاني ) أن المراد من (البينة) مطلق الرسل وهو قول أبي مسلم قال المراد من قوله

( حتى تأتيهم البينة ) أى حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلوا عليهم صحفاً مطهرة وهو كقوله ( يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ) وكقوله ( بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسرة ) .

( القول الثالث ) وهو قول قتادة وابن زيد ( البينة ) هى القرآن ونظيره قوله ( أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ) ثم قوله بعد ذلك ( رسول من الله ) لا بد فيه من مضاف محذوف والتقدير : وتلك البينة وحى ( رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ) .

أما قوله تعالى ( يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ) فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهى ظرف للمسكوب ، وفى ( المطهرة ) وجوه : ( أحدها ) ( مطهرة ) عن الباطل وهى كقوله ( لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) وقوله ( مرفوعة مطهرة ) ، ( وثانها ) مطهرة عن الذكر القبيح فان القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثب عليه أحسن الثناء ( وثالثها ) أن يقال مطهرة أى ينبغى أن لا يمسها إلا المطهرون ، كقوله تعالى ( فى كتاب مكتون ، لا يمسه إلا المطهرون ) .

واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتاً للصحف فى الظاهر فهى نعت لما فى الصحف وهو القرآن وقوله ( كتب ) فيه قولان ( أحدهما ) المراد من الكتب الآيات المكتوبة فى الصحف ( والثانى ) قال صاحب النظم الكتب قد يكون بمعنى الحكم ( كتب الله لأغلبين ) ومنه حديث العسيف « لا قضين بينكما بكتاب الله » أى بحكم الله فيحتمل أن يكون المراد من قوله ( كتب قيمة ) أى أحكام قيمة أما القيمة ففيها قولان ( الأول ) قال الزجاج مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت ، وهو كقولهم قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام ( الثانى ) أن تكون القيمة بمعنى القائمة أى هى قائمة مستقلة بالحجة والدلالة ، من قولهم قام فلان بالامر يقوم به إذا أجراه على وجهه ، ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم ، فان قيل كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً ؟ قلنا إذا تلا مثل المسطور فى تلك الصحف كان تالياً ما فيها وقد جاء فى كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لا يكتب ، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

أما قوله تعالى ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ) ففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) فى هذه الآية سؤال ، وهو أنه تعالى ذكر فى أول السورة ، أهل الكتاب والمشركين ، وههنا ذكر أهل الكتاب فقط ، فما السبب فيه ؟ ( وجوابه ) من وجوه ( أحدها ) أن المشركين لم يقرأوا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل ، بخلاف أهل الكتاب الذين يقرأون على كفرهم ببذل الجزية ( وثانها ) أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم وجدوها فى كتبهم ، فاذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾

(المسألة الثانية) قال الجبائي هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا إن الناس تفرقوا في الشقاوة والسعادة في أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة (والجواب) أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل في الأزل ، أما ظهوره من المكلف فأنما وقع بعد الحالة المخصوصة .

(المسألة الثالثة) فاوما هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال (إلا من بد ما جاءهم البينة) . ثم قال (أوتوا الكتاب) أي أن الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف إلى الله ، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم .

(المسألة الرابعة) المقصود من هذه الآية تسليية الرسول ﷺ أي لا يعنك تفرقهم فليس ذلك لقصور في الحججة بل لعنادهم ، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) فهي عادة قديمة لهم .

أما قوله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في قوله (وما أمروا) وجهان : (أحدهما) أن يكون المراد (وما أمروا) في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ، فيسكون المراد أهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه بقوله (وذلك دين القيمة) علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعاً في حقهم فهو مشروع في حقنا (وثانها) أن يكون المراد : وما أمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء ، وهذا أولى ، لثلاثة أوجه : (أحدها) أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى (وثانها) وهو أن ذكر محمد عليه السلام قدم ههنا وهو قوله (حتى تأتيهم البينة) وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم (وثالثها) أنه تعالى ختم الآية بقوله (وذلك دين القيمة) لحكم يكون ماهو متعلق هذه الآية ديناً قيمياً فوجب أن يكون شرعاً في حقنا سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بياناً لشرع محمد عليه الصلاة والسلام وهذا قول مقاتل .

(المسألة الثانية) في قوله (إلا ليعبدوا الله) دقيقة وهي أن هذه اللام لام الغرض ، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلاً لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض ، فلو فعل الله فعلاً لكان ناقصاً لذاته مستكملاً بالغير وهو محال ، لأن ذلك الغرض إن كان قديماً



لزم من قدمه قدم الفعل، وإن كان محدثاً افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الوسطة فهو عاجز، وإن كان قادراً عليه كان توسيط تلك الوسطة عبثاً، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل. ثم قال الفراء العرب تجعل اللام في موضع أن في الأمر والإرادة كثيراً، من ذلك قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم، يريدون ليظفروا) وقال في الأمر (وأمرنا لنسلم) وهي في قراءة عبد الله (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله) فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين. والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوباً، ثم قالت الشافعية الوضوء مأمور به في قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منوباً، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منوباً، وأما المعتزلة فانهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض، لاجرم أجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية: وما أمروا بشيء إلا لاجل أن يعبدوا الله، والاستدلال على هذا القول أيضاً قوياً، لأن التقدير وما أمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين في ذلك الشيء، وهذا أيضاً يقتضى اعتبار النية في جميع المأمورات. فان قيل النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه. لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه. قلنا هب أنه خص عموم الآية في هذه الصورة بحكم الدليل العقلي الذي ذكرتم فيبقى في الباقي حجة.

(المسألة الثالثة) قوله (أمروا) مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم القصاص) قالوا فيه وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحججائتك، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة)، (كتب في قلوبهم الإيمان) وذكر في الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملاً يقول له أولاً: ينبغي أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً، لأنه ربما يرد عليه فتعظم جنايته، فههنا أيضاً لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد (وثانيتها) أنا على القول بالحسن والقيح العقليين، نقول كأنه تعالى يقول: لست أنا الأمر للعبادة فقط، بل عقلك أيضاً يأمرك لأن النهاية في التعظيم لمن أوصل إليك [أن] نهاية الإنعام واجبة في العقول.

(المسألة الرابعة) اللام في قوله: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبد وهو رب. فلولا يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة، ثم أمرك بالعبادة. وجبت لمحض العبودية، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، ونعم ما قيل: من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني (١).



ومن آثار العرفان لا للعرفان ، بل للدمروف ، فقد خاض لجنة الوصول .

( المسألة الخامسة ) العباداة هي التذلل ، ومنه طريق معبد ، أى مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ، لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ولكن فى الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله ، أدبت له على وجه التذلل والنهاية فى التعظيم ، واعلم أن العباداة بهذا المعنى لا يستحقها إلا ما يكون واحداً فى ذاته وصفاته الذاتية ، والفعلية ، فإن كان له مثل لم يحز أن يصرف إليه النهاية فى التعظيم ، ثم نقول : لا بد فى كون الفعل عبادة من شيئين ( أحدهما ) غاية التعظيم ، ولذلك قلنا : إن صلاة الصبي ، ليست بعبادة ، لأنه لا يعرف عظمة الله ، فلا يكون فعله فى غاية التعظيم ( والثانى ) أن يكون مأموراً به ، ففعل اليهودى ليس بعبادة ، وإن تضمن نهاية التعظيم ، لأنه غير مأمور به ، والنسكة الوعظية فيه ، أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودى ليس بعبادة لفقد الأمر ، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم؟ .

( المسألة السادسة ) الإخلاص هو أن يأتى بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون اغترها من الدواعى تأثير فى الدعاء إلى ذلك الفعل ، والنسك الوعظية فيه من وجوه ( أحدها ) كأنه تعالى يقول عبدى لا تسع فى إكثار الطاعة . بل فى إخلاصها لأنى ما بذلت كل مقدورى لك حتى أطلب منك كل مقدورك ، بل بذلت لك البعض ، فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين ، وشاة من الأربعين ، لكن القدر الذى فعلته لم أرد بفعله سواك ، فلا ترد بطاعتك سواى ، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك ، فن ذلك المباح الذى يوجد منك فى الصلاة كالحكمة والتنحنح فهو حظ استثنائه لنفسك فاتفى الإخلاص ، وأما الإلغافات المكروهة فذا حظ الشيطان ( وثانها ) كأنه تعالى قال : يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك البتة ، فإذا لا تزيد إلا ما أريد ولا أريد إلا ما تريد . ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن ، فكأنه تعالى بفضله قال الملك لا يتخدم الملك لكن [لكى] انصه المبحأ جعل جميع ما أفعله لأجلك ( هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ) فاجعل أنت أيضاً جميع ما تفعله لأجلى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) .

واعلم أن قوله ( مخلصين ) نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذى يأتى بالحسن لحسنه . والواجب لوجوبه ، فىأتى بالفعل لوجهه مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لا بد من ذلك ، وفى التوراة : ما أريد به وجهى فقليله كثير وما أريد به غير وجهى فكثيره قليل . وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد فى العبادات عبادة أخرى لأجل الغير ، مثل الواجب من الاضحية شاة ، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يحز لأنه شرك ، وإن زدت فى الحشوع ، لأن الناس يرونه لم يحز ، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة

أخرى ، فكيف ولو خاطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك ، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإمام لأنه لم يخلص ، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص ، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص ؟ وقد اختلفت ألقاظ السلف في معنى قوله ( مخلصين ) قال بعضهم : مقربين له بالعبادة ، وقال آخرون : قاصدين بقولهم رضا الله في العبادة ، وقال الزجاج أى يعبدونه موحدين لا لا يعبدون معه غيره ، ويدل على هذا قوله ( وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ) .

أما قوله تعالى ( حنفاء و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة ) ففيه أقوال :

( الأول ) قال مجاهد متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال ( ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ) وهذا التفسير فيه لطيفة كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستول على الطابع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية ولم يستجز التعميل على التقليد أيضاً بالكلية ، فلا جرم ذكر قوماً أجمع الخلق بالكلية على تركيهم ، وهو إبراهيم ومن معه . فقال ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ) فكانه تعالى قال : إن كنت تقلد أحداً في دينك ، فيمكن مقلداً إبراهيم ، حيث تبرأ من الأصنام وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها إلى النيران ، ومن ماله حين بذله للضيغان ، ومن ولده حين بذله للقربان . بل روى أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه ، ولم ير شخصاً فاستعاده ، فقال أما بغير أجر فلا ، فبذل كل مامله فظهر له جبريل عليه السلام ، وقال حق لك حيث سماك خليلاً نخذ مالك ، فإن القائل ، كنت أنا ، بل انقطع إلى الله حتى عن جبريل حين قال له أما إليك فلا ، فالحق سبحانه كأنه يقول : إن كنت عابداً فاعبد كعبادته ، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين ، أما ترك الحرام وموافقة الشياطين ، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم ، فاجتهد في متابعة ولده الصبي ، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره ، فد عنقه لحكم الرؤيا ، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل ، وهو أم الذبيح ، كيف تجرعت تلك الغصة ، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنين يقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة والإرث ، والريقة نصف الحرة بدليل أن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ، ثم انظر أنها كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة في ولدها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة في جبال مكة بلا ماء ولا زاد ، وانصرف ، لا يكلمها ولا يعطف عليها ، قالت الله أمرك بهذا ؟ فأوماً برأسه نعم ، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق .

( والقول الثاني ) المراد من قوله ( حنفاء ) أى مستقيمين والحنف هو الاستقامة ، وإنما سمي ماثل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا للأعمى بصير وللمهلكة مفازة ، ونظيره قوله تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ) ( اهدنا الصراط المستقيم ) .

( القول الثالث ) قال ابن عباس رضى الله عنهما حججا ، وذلك لأنه ذكر العباد أولاً ثم قال ( حنفاء ) وإنما قدم الحج على الصلاة لأن في الحج صلاة وإتفاق مال ( الرابع ) قال أبو قلابة

الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفاً (الخامس) حنفاء أى جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين ، قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » (السادس) قال قتادة هى الختان وتحريم نكاح المحارم أى محتونين محرمين لنكاح الأم والمحارم ، فقوله (حنفاء) إشارة إلى النفي ، ثم أرفده بالإثبات ، وهو قوله (ويقيموا الصلاة) (السابع) قال أبو مسلم أصله من الحنف فى الرجل ، وهو إدبار إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهام الأخرى ، فيكون الحنيف هو الذى يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام (الثامن) قال الربيع بن أنيس الحنيف الذى يستقبل القبلة بصلاته ، وإما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وأما الكلام فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مراراً كثيرة ، ثم قال (وذلك دين القيمة) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال المبرد والزجاج : ذلك دين الملة القيمة ، فالقيمة نعت لموصوف محذوف ، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة ، وقد ذكرنا هذين القولين فى قوله (كتب قيمة) وقال الفراء : هذا من إضافة النعت إلى المنعوت . كقوله (إن هذا لهو حق اليقين) والهاء للبالغة كما فى قوله (كتب قيمة) .

(المسألة الثانية) فى هذه الآية لطائف (إحداها) أن الكلام فى كل شىء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معاً ، فمقرم أطبوا فى الأعمال من غير زحكाम الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فانهم ربما أتعبوا أنفسهم فى الطاعات ، ولكنهم ما حصلوا الدين الحق ، وقوم حصلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين قالوا لا يضر الذنب مع الإيمان ، والله تعالى خطأ الفريقين فى هذه الآية ، وبين أنه لا بد من العلم والإخلاص فى قوله (مخلصين) ومن العمل فى قوله (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ثم قال وذلك المجموع كله هو (دين القيمة) أى البيئة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد كذا هذا المجموع دين واحد فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه فكأنه سبحانه يقول القائم بتحصيل مصالحك عاجلاً وآجلاً هو هذا المجموع . ونظيره قوله تعالى (ديناً قيماً) وقوله فى القرآن (قيماً لينذر بأساً شديداً) لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق ، ويؤيده قوله عليه السلام « من كان فى عمل الله كان الله فى عمله » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام « يادنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمنى فخدمته » ، (وثانها) أن المحسنين فى أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبده والملائكة ، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح ، لخالقهم بالإحسان من الله لامن الملائكة ، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباحياً بهم : ملائكتى هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا ، بل فى بعض الأفعال أمثال أحسنوا

وتصدقوا ، ثم إنى أكرمكم باملائكتى بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأتمتعظونى بمجرد ما فعلت من الإحسان فهؤلاء جمعوا بين الأمرين : أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين ، فتمتجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة ، فلماذا قال ( والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ) أفلا يكون هذا الدين قيما ( وثالثها ) أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العاملة بلا قدرة كالزمن العاجز ، والقدرة بلا علم مجنونة فاذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة ، فاذا اجتمعتا سمي الدين قيمة ( ورابعها ) وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شئ ، وهو القول والاعتقاد فقال ( مخلصين ) ثم لما أجاوبه زاد ، فسألهم الصلاة التى بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت ، ثم لما أجاوبه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول » ثم لما ذكر الكل قال ( وذلك دين القيمة ) ،

( المسألة الثالثة ) احتج من قال الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية ، فقال مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان فإذا مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان ، لأنه تعالى ذكر فى هذه الآية مجموع هذه الثلاثة . ثم قال ( وذلك دين القيمة ) أى وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) وإنما قلنا إن الإسلام هو الإيمان لوجهين ( الأول ) أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولا عند الله تعالى لقوله تعالى ( ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ) لكن الإيمان بالإجماع مقبول عند الله ، فهو إذا عين الإسلام ( والثانى ) قوله تعالى ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) فاستثناء المسلم من المؤمن ، يدل على أن الإسلام يصدق عليه ، وإذا ثبتت هذه المقدمات ، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة أعنى القول والفعل والعمل هو الإيمان ، وحينئذ يبطل قول من قال ، الإيمان اسم لمجرد المعرفة ، أو لمجرد الإقرار أو لهما معاً ( والجواب ) لم لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله ( وذلك ) إلى الإخلاص فقط ؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لاحتياج إلى الإضمار ، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار ، فتقولون : المراد ذلك المذكور ، ولا شك أن عدم الإضمار أولى ، سلمنا أن قوله ( وذلك ) إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم ، فلم قلتم إن ذلك المجموع هو الدين ، وذلك لأن الدين غير ، والدين القيم غير ، فالدين القيم هو الدين الكامل المستقل بنفسه ، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلًا ، وكانت آثاره ونتائجها معه حاصلة أيضاً ، وهى الصلاة والزكاة ، وإذا لم يوجد هذا المجموع ، لم يكن الدين القيم حاصلًا ، لكن لم قلتم إن أصل الدين لا يكون حاصلًا والنزاع ما وقع لإفاه ؟ والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولاً في قوله ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ) ثم ذكر ثانياً حال المؤمنين في قوله ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله ) أعاد في آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين ، فبدأ أيضاً بحال الكفار ، فقال ( إن الذين كفروا ) واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين ( أحدهما ) الخلود في نار جهنم ( والثاني ) أنهم شر الخلق . وههنا سؤالات : ﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم أهل الكتاب على المشركين في الذكر ؟ ( الجواب ) من وجوه ( أحدها ) أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال « اللهم اهدنا بطونهم وقبورهم ناراً » فسكأنه عليه السلام قال كانت الضربة ثم على وجه الصورة ، وفي يوم الخندق على وجه السيرة التي هي الصلاة . ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال كما قدمت حتى على حقلك فأنا أيضاً أقدم حقلك على حق نفسي ، فن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شجرة من شعراتك يكفر . إذا عرفت ذلك فنقول : أهل الكتاب ما كانوا يطعنون في الله بل في الرسول ، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون في الله . فلما أراد الله تعالى في هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولاً في التسمية بذكر من طعن في محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، ثم ثانياً بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون ( وثانها ) أن جنابة أهل الكتاب في حق الرسول عليه السلام كانت أعظم ، لأن المشركين رأوه صغيراً ونشأ فيما (١) بينهم . ثم سفه أحلامهم وأبطل أديانهم ، وهذا أمر شاق ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جناباتهم أشد .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم ذكر ( كفروا ) بلفظ الفعل ( والمشركين ) باسم الفاعل ؟ ( الجواب ) تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون

(١) لل الأول أن يقال : ونشأ فيما بينهم ، ولعل فيما صحفت عن يتيا .

القيامة، أما أهل الكتاب فكلوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين في العذاب؟ (الجواب) يقال بئر جهنم إذا كان بعيد القمر، فكأنه تعالى يقول تكبروا طلباً للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين، ثم إن الفريقين وإن اشتركا في ذلك لكنه لا ينافي اشتراكهم في هذا القدر تفاوتهم في مراتب العذاب. واعلم أن الوجه في حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك. وهذا القسم الثاني هو أفتح القسمين والإحسان أيضاً على قسمين إحسان إلى من أحسن إليك، وإحسان إلى من أساء إليك، وهذا أحسن القسمين، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان وإساءتهم وكفرهم أفتح أنواع الإساءة، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع، وبالزنا رجم، وبالقتل قصاص، بل شتم المماثل يوجب التعزير، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل. فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنایات، لاجرم استحقوقا أعظم العقوبات. وهو نار جهنم، فأما نار في موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه البتة، ثم كأنه قال قائل: هب أنه ليس هناك رجاء الفرار، فهل هناك رجاء الإخراج؟ فقال: لا بل يقون خالدین فيها، ثم كأنه قيل فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم؟ فقال لا بل يذمونهم، وبلغنهم لأنهم شر البرية.

(السؤال الرابع) ما السبب في أنه لم يقل ههنا خالدین فيها أبداً، وقال في صفة أهل الثواب (خالدین فيها أبداً)؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه (وثانيها) أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل (وثالثها) روى حكاية عن الله أنه قال: يا داود حبني إلى خلقي، قال وكيف أفعل ذلك؟ قال اذكر لهم سعة رحمتي، فكان هذا من هذا الباب.

(السؤال الخامس) كيف القراءة في لفظ البرية؟ (الجواب) قرأ نافع البرية بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز وهو من برأ الله الخلق، والقياس فيها الهمز إلا أنه ترك همزه، كالنبي والذرية والحائية، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك في الاستعمال، كما أن من همز النبي كان كذلك وترك الهمز فيه أجود، وإن كان الهمز هو الأصل، لأن ذلك صار كالشيء المرفوض المتروك. وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال إنه من البرا الذي هو التراب.

(السؤال السادس) ما الفائدة في قوله هم شر البرية؟ (الجواب) أنه يفيد النفي والإنبات أي هم دون غيرهم. واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها، شر من السراق، لأنهم سرقوا من كتاب الله. صفة محمد ﷺ، وشر من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف، لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أفتح.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .  
 ﴿السؤال السابع﴾ هذه الآية هل هي مجرأة على عمومها؟ (الجواب) لا بل هي مخصوصة بصورتين (إحداهما) أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد (والثانية) قال بعضهم: لا يجوز أن يدخل في الآية من مضى من الكفار، لأن فرعون كان شراً منهم، فأما الآية الثانية وهي الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعمامة فيمن تقدم وتأخر، لأهم أفضل الأمم .

قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ فيه مسائل:  
 ﴿المسألة الأولى﴾ الوجه في حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه (أحدها) أن الوعيد كاللدواء، والوعد كالغذاء، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقياً انتفع بالغذاء، فإن البدن غير النقي كلما غذوته زدته شراً . هكذا قاله بقراط في كتاب الفصول (وثانيها) أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحاً لللداس والخف، أما قبله فلا، ولذلك فإن الإنسان متى وقع في محنة أو شدة رجع إلى الله، فإذا نال الدنيا أعرض، على ما قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (وثالثها) أن فيه بشارة، كأنه تعالى يقول: لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذي هو بشارة منى في أنى أختم أمرك بالخير، ألمست كنت نجساً في مكان نجس، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهراً، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهراً!

﴿المسألة الثانية﴾ احتج من قال إن الطاعات ليست داخلة في معنى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة في هذه الآية على الإيمان، والمعطوف غير المعطوف عليه .  
 ﴿المسألة الثالثة﴾ قال (إن الذين آمنوا) ولم يقل إن المؤمنين إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله . ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى، كما قال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ولفظة (آمنوا) أى فعلوا الإيمان مرة .  
 واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يمتحنون بهذه الآية، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب، والذي يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب، فملنا أنه ما صدر الإيمان عنه في الحقيقة قبل ذلك .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وعملوا الصالحات) من مقابلة الجمع بالجمع، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، لحظ الغنى الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ .

﴿المسألة الخامسة﴾ احتج بعضهم بهذه الآية في تفضيل البشر على الملك، قالوا روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال «أتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من ذلك، وأقرأوا إن شئتم: إن الذين آمنوا وعملوا



جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨٠﴾

الصالحات أولئك هم خير البرية .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه: (أحدها) ما روى عن يزيد النحوي أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة (وثانيها) أن قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك (وثالثها) أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل، قالوا وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هي مسكن الشياطين، وأيضاً فصالحنا منتظمة بهم ورزقنا في يد البعض وروحنا في يد البعض، ثم هم العلباء ونحن المتعلمون، ثم انظر إلى عظيم همهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال (ومن يقل منهم إني إله من دونه) أى لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية، وأنت أبدأ عبد البطن والفرج، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبي لأنه تعالى مدح النبي بأحياه ثلثي الليل وقال فيهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ومرة (لا يسأمون) وتتمام القول في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة. قوله تعالى ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدأ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾.

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف في مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقاً من المحن والآفات، فصاغه من أنجس شيء في أضييق مكان إلى أن خرج باكباً لا للفراق ولكن مشتكياً من وحشة الحبس ليرحم، كالذى يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم، ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدوداً في الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوه في المهدي وشده بالقهاط، ثم لم يمض قليل حتى أسلوه إلى أستاذ يحبسه في المكتب ويضربه على التعليم وهكذا إلى أن بلغ الحلم، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ثم إن المكلف يصير كالمتهير، يقول من الذى يفعل في هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عنى جناتية! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل، فوجده عالماً لا يشبه العالمين، وقادراً لا يشبه القادرين، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة، لكن حقيقة محض الكرم والرحمة. فترك الشكاية وأقبل على الشكر، ثم وقع في قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة، فجعل قلبه مسكناً لسلطان عرفانه، فكان الحق قال: عبدى أنزل معرفتى في قلبك حتى



لا يخرجها منه شيء ، أو يسبقها هناك ، فيقول العبد : يارب أنزلت حب التدي في قلبي ثم أخرجته . وكذا حب الأب والأم ، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل . أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي ، ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة في أرض القلب انفجر من هذا ينبوع أنهار وجداول ، فالجدول الذي وصل إلى العين حصل منه الاعتبار ، والذي وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسيحاتهم ، وهكذا في جميع الأعضاء والجوارح . فيقول الله عبدي جعلت قلبك كالجنة لي وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة . فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا ، فأنا أولى بالجود والكرم والرحمة بجنة بجنة . فلهذا قال ( جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ) بل كأن الكريم الرحيم يقول عبدي أعطاني كل ما ملكه ، وأنا أعطيته بعض ما في ملكي ، وأنا أولى منه بالكرم والجود ، فلا جرم جعلت هذا البعض منه وهو بآ دائما مخلداً ، حتى يكون دوامه وخلوده جابراً لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية .

( المسألة الثانية ) الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء ، فهذا يفيد معنيين ( أحدهما ) أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص ( والثاني ) أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية ، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلًا ، على ما قال ( ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ) .

( المسألة الثالثة ) قال ( جزاؤهم ) فأضاف الجزاء إليهم ، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله ( الذي أحلنا دار المقامة من فضله ) ( والجواب ) أما أهل السنة فيأنهم يقولون إنه لو قال الملك الكريم : من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار ، فهذا شرط وجزاء بحسب اللعبة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي ، فقوله ( جزاؤهم ) يكفي في صدقه هذا المعنى وأما المعتزلة فأنهم قالوا في قوله تعالى ( الذي أحلنا دار المقامة من فضله ) إن كلمة من لا ابتداء الغاية . فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان ، إنما حصل بسبب فضلك السابق فانك لولا أنك خلقتنا وأعطينا القدرة والعقل وأزلت الأعدار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة . فان قيل فإذا كان لاحق لأحد عليه في مذهبكم ، فما السبب في التزام مثل هذا الانعام ؟ قلنا : أنسأل عن إنعامه الأسمى حال عدمنا ؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف ؟ أو عن إنعامه في غد القيامة ؟ فان سألت عن الأسمى فكأنه يقول : أنا منزّه عن الإنتفاع والمائدة ممولة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع ، فكأن أن من له مال ولا عيال له فانه يشتري العبيد والجواري لينتفعوا بماله ، فهو سبحانه اشتري من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه ، كما روى الخلق عيال الله . وأما اليومي فالنعمان (١) . فالحسن أولى . وأما الغد فأننا مدبوتهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك .

(١) يراد بالنعمان الوصفية من الانعام ، أو الاسمية والاسمية نص الأولى بقصد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وهو .

(المسألة الرابعة) في قوله (عند ربهم) لطائف:

(أحدها) قال بعض الفقهاء: لو قال لاشيء لى على فلان، فهذا يختص بالديون وله أن يدعى الوديعة. ولو قال لاشيء لى عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين. ولو قال لاشيء لى قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معاً، إذا عرفت هذا فقوله (عند ربهم) يفيد أنه وديعة والوديعة عين. ولو قال لفلان على كذا فهو إقرار بالدين، والعين أشرف من الدين فقوله (عند ربهم) يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد، فإن قيل الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون، قلنا: المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا في حق الله تعالى محال، فلا جرم قلنا الوديعة هناك خير من المضمون.

(وثانيها) إذا وقعت الفتنة في البلدة، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك، وحينئذ تخاف الشياطين من أن يغيروا عليها، فضع وديعة أمانتك عندي فإن أكتب لك به كتاباً يتلى في المحارب إلى يوم القيامة وهو قوله (جزاؤهم عند ربهم) حتى أسله إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة.

(وثالثها) أنه قال (عند ربهم) وفيه بشارة عظيمة، كأنه تعالى يقول أنا الذى ربيتك أولاً حين كنت معدوماً صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة، خلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقاً أعطيتك هذه الأشياء، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئاً وجعلته وديعة عندي فأنا أضعها، كلا إن هذا مما لا يكون.

(المسألة الخامسة) قوله (جزاؤهم عند ربهم جنات) فيه قولان:

(أحدهما) أنه قابل الجمع بالجمع<sup>(١)</sup>، وهو يقتضى مقابلة الفرد بالفرد، كما لو قال لامرأته أو عبديه: إن دخلتاهما تين الدارين فأنتم كذا فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما داراً على حدة، وعن أبى يوسف لم يحث حتى يدخل الدارين، وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين، ودليل القول الأول (جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم) فعلى القول الأول بين أن الجزاء لكل مكاتب جنة واحدة، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روى مرفوعاً، ويدل عليه قوله تعالى (وملكاً كبيراً) ويحتمل أن يراد لكل مكاتب جنات، كما روى عن أبى يوسف وعليه يدل القرآن، لأنه قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) فذكر أربعاً للواحد، والسبب فيه أنه بكي من خوف الله، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان اثنتان دون الاثنين، فاستحق جنتين دون الجنتين، لحصل له أربع جنات، لسببه البكاء من أربعة أجفان، ثم إنه تعالى قدم الخوف في قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وأخر الخوف في هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله (ذلك لمن خشى ربه) وفيه إشارة إلى أنه لا بد من

(١) الصواب أن يقال: قابل المفرد بالجمع فالفرد هنا لفظ جراء والجمع لفظ جنات.

دوام الخوف ، أما قبل العمل فالخوف الاختلال ، وأما بعد العمل فالخوف خوف الخلال ، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة .

( المسألة السادسة ) قوله ( عدن ) يفيد الإقامة ( لا يخرجون منها ) ( وما هم منها بمخرجين ) ( لا يبعثون عنها حولاً ) يقال عدن بالمكان أقام ، وروى أن جنات عدن وسط الجنة ، وقيل عدن من المعدن أى هى معدن النعيم والأمن والسلامة ، قال بعضهم إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجنة أو الجنين ، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة بطوفون العالم فى ساعة واحدة فكأنه تعالى قال إنها فى إيصال المكلف إلى مشتمياتها فى غاية الإسراع . مثل حركة الجن ، مع أنها دار إقامة وعدن ، وإما من الجنون فهو أن الجنة . بحيث لو رآها العاقل يصير كالجنون ، لولا أن الله بفضله يثبتها ، وإما من الجنة فلأنها جنة واقية ثقيل من النار ، أو من الجنين ، فلأن المكلف يكون فى الجنة فى غاية التمتع . ويكون كالجنين لا يمسسه برد ولا حر ( لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ) .

( المسألة السابعة ) قوله ( تجرى ) إشارة إلى أن الماء الجارى أطف من الراكد ، ومن ذلك النظر إلى الماء الجارى ، يزيد نوراً فى البصر بل كأنه تعالى قال : طاعتك كانت جارية مادمت حياً على ما قال ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) فوجب أن تكون أنهار إكرامى جارية إلى الأبد ، ثم قال من تحتها إشارة إلى عدم التنغيص ، وذلك لأن التنغيص فى البستان . إما بسبب عدم الماء الجارى فذكر الجرى الدائم ، وإما بسبب الفرق والكثرة ، فذكر من تحتها ، ثم الألف واللام فى الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة فى القرآن ، وهى نهر الماء واللبن والعسل والخمر ، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء . فلا تسمى الساقية نهرأ ، بل العظم هو الذى يسمى نهرأ بدليل قوله ( وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ) فعطف ذلك على البحر .

( المسألة الثامنة ) اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أو لا والرضا ثانياً ، وروى أنه عليه السلام قال : إن الخلود فى الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة ( أما الصفة الأولى ) وهى الخلود ، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام ، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل .

( وأما الصفة الثانية ) وهى الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح ، فجنة الجسد هى الجنة الموصوفة وجنة الروح هى رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا حرم ابتداء بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ، ثم إنه قدم رضى الله عنهم على قوله ( ورضوا عنه ) لأن الأزل هو المؤثر فى المحدث ، والمحدث لا يؤثر فى الأزل .

( المسألة التاسعة ) إنما قال ( رضى الله عنهم ) ولم يقل رضى الرب عنهم ولا سائر الأسماء

لأن أشد الأسماء هيبية وجلالة لفظ الله ، لأنه هو الإسم الدال على الذات والصفات بأسرها أعنى صفات الجلال وصفات الإكرام ، فلو قال رضى الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المرئى قد يكتفى بالقليل ، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبية ، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة ، فقوله ( رضى الله عنهم ) يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة .

( المسألة العاشرة ) اختلّفوا فى قوله ( رضى الله عنهم ) فقال بعضهم معناه رضى أعمالهم ، وقال بعضهم المراد رضى بأن يمدحهم ويعظمهم . قال لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله ، وهذا هو الأقرب ، وأما قوله ( ورضوا عنه ) فالمراد أنه رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب .

أما قوله تعالى ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ ففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) الخوف فى الطاعة حال حسنة قال تعالى ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم ورجلة ) ولعل الخشية أشد من الخوف ، لأنه تعالى ذكره فى صفات الملائكة مقرّوناً بالإشفاق الذى هو أشد الخوف فقال ( هم من خشية ربهم مشفقون ) والكلام فى الخوف والخشية مشهور .

( المسألة الثانية ) هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلاً على فضل العلم والعلماء ، وذلك لأنه تعالى قال ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) فدلّت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية ، وهذه الآية وهى قوله ( ذلك لمن خشى ربه ) تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء .

( المسألة الثالثة ) قال بعضهم : هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهى إلى حد يصير معه آمناً بأن يعلم أنه من أهل الجنة ، وجعل هذه الآية دالة عليه . وهذا المذهب غير قوى ، لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة ، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام «أعرفكم بالله أخوفكم من الله ، وأنا أخوفكم منه» والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة الزلزلة)  
(وهي ثمان آيات مكية)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

(سورة الزلزلة وهي ثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) ههنا مسائل :

(المسألة الأولى) ذكروا في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهاً (أحدها) أنه تعالى لما قال (جزاؤهم عند ربهم) فكأن المكلف قال ومتى يكون ذلك يارب فقال: (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فالعالمون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك الوقت تنال جزاؤك وتكون آمناً فيه، كما قال (وهم من فزع يومئذ آمنون) (وثانيتها) أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره، ما للأرض تزلزل، نظيره قوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) ثم ذكر الطائفتين فقال (فأما الذين أسودت وجوههم) (وأما الذين أبيضت وجوههم) ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر.

(المسألة الثانية) في قوله (إذا) بجنان (أحدهما) أن لقائل أن يقول (إذا) للوقت فكيف وجه البداية بها في أول السورة؟ (وجوابه) من وجوه (الأول) كانوا يسألونه متى الساعة؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض) كأنه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولكني أعينه بحسب علاماته، (الثاني) أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال (إذا زلزلت الأرض)

(البحث الثاني) قالوا كلمة (إن) في المجوز، (وإذا) في المقطوع به، تقول: إن دخلت الدار فأنت طالق لأن الدخول مجوز، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول، إن بل تقول. إذا [نحو إذا] جاء غداً فأنت طالق لأنه لا يوجد لا محالة. هذا هو الأصل، فإن استعمل على خلافه فجاز، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال (إذا زلزلت).

(المسألة الثالثة) قال القراء: الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم، وقد قرئ بهما. وكذلك الوسواس هو الإسم أي اسم الشيطان الذي يوسوس إليك، والوسواس بالكسر

## وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢٥﴾

المصدر ، والمعنى : حركت حركة شديدة ، كما قال ( إذا رجحت الأرض رجاً ) وقال قوم : ليس المراد من زلزلت حركت ، بل المراد : تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، ولأن هذا أدخل في التهويل كأنه تعالى يقول : إن الجماد ليضطرب لأواثن القيامة ، أما آن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك ! ويقرب منه (لأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) واعلم أن زل للحركة المعتادة ، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة ، لما فيه من معنى التكرير ، وهو كالصرصر في الريح ، ولأجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال ( إن زلزلة الساعة شيء عظيم ) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال مجاهد : المراد من الزلزلة المذكورة في هذه الآية النفخة الأولى كقوله ( يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ) أى تزلزل في النفخة الأولى ، ثم تزلزل ثانياً فتخرج موتاها وهى الأثقال ، وقال آخرون : هذه الزلزلة هى الثانية بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها أنها تخرج الأرض أثقالها ، وذلك إنما يكون في الزلزلة الثانية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في قوله ( زلزالها ) بالإضافة وجوه (أحدها) القدر اللائق بها في الحكمة ، كقولك : أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة ( والثاني ) أن يكون المعنى زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه ، والمعنى أنه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل ( والثالث ) ( زلزالها ) الموعود أو المكتوب عليها إذا قدرت تقدير الحى ، تقريره ماروى أنها تزلزل من شدة صوت اسرافيل لما أنها قدرت تقدير الحى .

أما قوله ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ ففيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الأثقال قولان ( أحدهما ) أنه جمع ثقل وهو متاع البيت ( وتحمل أثقالكم ) جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وقيل سمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها ، ثم قال المراد من هذه الزلزلة ، الزلزلة الأولى يقول : أخرجت الأرض أثقالها ، يعنى الكتوز فيمتلى . ظهر الأرض ذهاباً ولا أحد يلتفت إليه ، كأن الذهب يصيح ويقول : أما كنت تحرب دينك ودينك لأجلى ! أو تكون الفائدة في إخراجها كما قال تعالى ( يوم يحمى عليها في نار جهنم ) ومن قال المراد منها الزلزلة الثانية وهى بعد القيامة . قال تخرج الأثقال يعنى الموتى أحياء كالآدم تلده حياً ، وقيل تلفظه الأرض ميتاً ، كما دفن ثم يحييه الله تعالى ( والقول الثاني ) أثقالها : أسرارها فيومئذ تكشف الأسرار ، ولذلك قال ( يومئذ تحدث أخبارها ) فتشهد لك أو عليك .

## وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا «٣» يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا «٤»

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال في صفة الأرض ( ألم نجعل الأرض كفتاتاً ) ثم صارت بحال ترميك وهو تقرير لقوله ( تذهل كل مرضعة عما أرضعت ) وقوله ( يوم يفر المرء ) .  
أما قوله تعالى ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما لها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن ، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الأموات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قيل هذا قول الكافر وهو كما يقولون ( من بعثنا من مرقدنا ) فأما المؤمن فيقول ( هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ) وقيل بل هو عام في حق المؤمن والكافر أي الإنسان الذي هو كنود جزوع ظلم الذي من شأنه الغفلة والجهالة ، يقول ما لها وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب ، لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الآذان ، ولا تطلق بها لسان ، ولهذا قال الحسن إنه للكافر والفاجر معاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال ( ما لها ) على غير المواجهة لأنه يعاتب بهذا الكلام نفسه ، كأنه يقول : يانفس ما للأرض تفعل ذلك يعني يانفس أنت السبب فيه فإنه لولا معاصيك لما صارت الأرض كذلك فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون ( الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن )  
أما قوله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فاعلم أن ابن مسعود قرأ ( تنبئ أخبارها ) وسعيد ابن جبير تنبئ<sup>(١)</sup> ثم فيه سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أين مفعولاً تحدث ؟ ( الجواب ) قد حذف أولها والثاني أخبارها وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما معنى تحديث الأرض ؟ قلنا فيه وجوه : ( أحدها ) وهو قول أبي مسلم يومئذ يبين لكل أحد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك ، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت ( والثاني ) وهو قول الجمهور أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً ويعرفها جميع ما عمل أهلها حينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى ، قال عليه السلام « أن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها » ثم تلا هذه الآية وهذا على مذهبا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطاً لقبول الحياة ، فالأرض مع بقائها على شكلها ويسبها وقسفيها يخفق الله فيها الحياة والنطق ، والمقصود كأن الأرض تشكو من العصاة

(١) رحمت في المرعنين تنبئ ، وهي قراءة بالمتن ويظهر أن الخلاف بين القراءتين ليس في الرسم وإنما في القراءة فاحدى القراءتين بكسر الباء مخففة والثانية بتسديدها .



بَانَ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾

وتشكر من أطاع الله ، فتقول إن فلاناً صلى وزكى وصام وحج في ، وإن فلاناً كفر وزنى وسرق وجار ، حتى يود الكافر أن يساق إلى النار ، وكان على عليه السلام : إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول : لتشهدن أنى ملائكتك بحق وفرغتك بحق ( والقول الثالث ) وهو قول المعتزلة أن الكلام يجوز خلقه في الجماد ، فلا يبعد أن يخلق الله تعالى في الأرض حال كونها جماداً أصواتاً مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى .

( السؤال الثالث ) إذا ويومئذ مانا نصهما ؟ (الجواب) يومئذ بدل من إذا وناصهما تحدث ( السؤال الرابع ) لفظ التحديث يفيد الاستثناس وهناك لاستثناس فإ وجه هذا اللفظ ؟ ( الجواب ) أن الأرض كأنها تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته .

أما قوله تعالى ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ ففيه سؤالان :

( السؤال الأول ) بم تعلقت الياء في قوله ﴿ بأن ربك ﴾ ؟ (الجواب) بتحدث ، ومعناه تحدث أخبارها بسبب إخبار ربك لها .

( السؤال الثاني ) لم لم يقل أوحى إليها ؟ (الجواب) فيه وجهان ( الأول ) قال أبو عبيدة ( أوحى لها ) أى أوحى إليها وأنشد للعجاج : «أوحى لها القرار فاستقرت»

( الثاني ) لعله إنما قال لها أى فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفي من العصاة . قوله تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ الصادر المنصرف وأشتاتاً متفرقين ، فيحتمل أن يردوا الأرض ، ثم يصدرون عن الأرض إلى عرصة القيامة ، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للمحاسبة ثم يصدرون عنها إلى موضع الثواب والعقاب ، فإن قوله ( أشتاتاً ) أقرب إلى الوجه الأول ولفظة الصادر أقرب إلى الوجه الثاني ، وقوله ( ليروا أعمالهم ) أقرب إلى الوجه الأول لأن رؤية أعمالهم مكتوبة في الصحائف أقرب إلى الحقيقة من رؤية جزاء الأعمال ، وإن صح أيضاً أن يحمل على رؤية جزاء الأعمال ، وقوله ( أشتاتاً ) فيه وجوه ( أحدها ) أن بعضهم يذهب إلى الموقف راكبا مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادى ينادى بين يديه : هذا ولى الله ، وآخرون يذهب بهم سود الوجه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال والمنادى ينادى بين يديه هذا عدو الله ( وثانيها ) أشتاتاً أى كل فريق مع شكله اليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى ( وثالثها ) أشتاتاً من أقطار الأرض من كل ناحية ، ثم إنه سبحانه ذكر المقصود وقال ( ليروا أعمالهم ) قال بعضهم : ليروا صحائف أعمالهم ، لأن الكتاب يوضع بين يدى الرجل فيقول هذا طلاقك وبيعتك هل تراه والمرق وهو الكتاب وقال آخرون : ليروا جزاء أعمالهم ، وهو الجنة أو النار ، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه جزء وافق ، فكانه



فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

نفس العمل بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة . وفي قراءة النبي ﷺ ( ليروا ) بالفتح .  
ثم قال تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وفيه مسائل :  
﴿ المسألة الأولى ﴾ ( مثقال ذرة ) أى زنة ذرة ، قال الكلبي الذرة أصغر النمل ، وقال ابن عباس إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزم به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيراً أو شراً قليلاً كان أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ في رواية عن عاصم ( يره ) برفع الياء وقرأ الباقون ( يره ) بفتحها وقرأ بعضهم ( يره ) بالجزم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة ، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر ؟ .  
واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : ( أحدها ) قال احمد بن كعب القرظي ( فمن يعمل مثقال ذرة ) من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة ، وليس له فيها شيء ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى أنه عليه السلام قال لأبي بكر « يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا ما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة » ( وثانيها ) قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته . وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته ( وثالثها ) أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحطت من عقاب كفره . وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية ( ورابعها ) أن تخصص عموم قوله ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ) ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل أن يقول إذا كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم ؟ ( والجواب ) هذا هو الكرم ، لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف ، والكريم لا يتحملها وفي الطاعة تعظيم ، وإن قل فالكريم لا يضيعه ، وكان الله سبحانه يقول : لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيراً ، فإنك مع تؤمك وضعفك لم تضيع منى الذرة ، بل اعتبرتها ونظرت فيها ، واستدللت بها على ذاتي وصفاتي واتخذتها مركباً به وصلت إلى ، فإذا لم تضيع ذرتي أفأضيع ذرتك ! ثم التحقيق أن المقصود هو النية والقصد ، فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خاصة فقد حصل المطلوب ، وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة فالمقصود فائت ، ومن ذلك ما روى عن كعب : لا تحرقوا شيئاً من المعروف ، فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله ، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت

المقدس فدخلت الجنة . وعن عائشة « كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها ، فجاء سائل فأمرت له بحبة من ذلك العنب ، فضحك بعض من كان عندها ، فقالت إن فيما ترون مثاقيل الذرة وتلت هذه الآية » ولعلها كان غرضها التعليم ، وإلا فهي كانت في غاية السخاوة . روى « أن ابن الزبير بعث إليها بمائة ألف وثمانين ألف درهم في غرارتين ، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية هلمي فطوري ، فجاءت بخبز وزيت ، فقيل لها أما أمسكت لنا درهما نشترى به لحماً نفطر عليه ، فقالت لو ذكرتني لفعلت ذلك » وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتية السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول ما هذا بشي ، وإنما نؤجر على ما نعطي ! وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول لاشي . على من هذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر ، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر ، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ولهذا قال عليه السلام « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة العاديات ﴾

﴿ احدى عشرة آية مكية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾

﴿ سورة العاديات ، إحدى عشرة آية مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والعاديات ضبحاً ﴾

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حممة ، ولكنه صوت نفس ، ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين :

﴿ الأول ﴾ ماروى عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل ، وهو قول ابراهيم القرظي روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحاً ، ففسرتها بالخيول فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال ادع لي فلما وقفت على رأسه . قال تفتى الناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد ( والعاديات ضبحاً ) الإبل من عرفة إلى مزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يعنى لإبل الحاج ، قال ابن عباس فرجعت عن قولى إلى قول علي عليه السلام » ويتأكد هذا القول بما روى أبى في فضل السورة مرفوعاً « من قرأها أعطى من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً » وعلى هذا القول ( فالمؤريات قدحا ) أن الحوافر ترمى بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجراً آخر فتورى النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة ( فالغيرات ) الإغارة سرعة السير وهم يتدفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى ( فأثرن به نقعاً ) يعنى غباراً بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى ( فوسطن به جمعاً ) يعنى مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها ، وعلى هذا التقدير ، فوجه القسم به من وجوه ( أحدها ) ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه فى قوله ( أفلا ينظرون إلى الإبل ) ( وثانيها ) كأنه تعريض بالأدمى السكوند فكأنه تعالى يقول : إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي ( وثالثها ) الغرض بذكر إبل الحج الترغيب فى الحج ، كأنه تعالى يقول : جعلت ذلك الإبل مقسماً به ، فكيف أضيع

## فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا ﴿٢٥﴾

عملك ! وفيه تعريض لمن يرغب عن الحج . فإن الكنود هو الكفور ، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك ، كما في قوله تعالى ( والله على الناس حجج البيت ) إلى قوله ( ومن كفر ) .

( القول الثاني ) قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء . وأكثر المحققين أنه الخيل ، وروى ذلك مرفوعاً . قال الكلبي : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى أناس من كنانة فكث ما شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر فيتخوف عليها . فنزل جبريل عليه السلام بحجر مسيرها ، فإن جعلنا الألف واللام في ( والعاديات ) للمعهود السابق كان محل القسم خيل تلك السرية ، وإن جعلناهما للجنس كان ذلك قسماً بكل خيل عدت في سبيل الله .

واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل ، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس ، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة ، كما استعير المشافر والحافر للإنسان ، والشفتان للهر ، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز ، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل ، وكذا قوله ( فالمغيرات صباحاً ) لأنه بالخيل أسهل منه بغيره ، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا ، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية ، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة ، وهو الذي قاله الكلبي ، إذا عرفت ذلك فههنا مسائل :

( المسألة الأولى ) أنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب ، فإنها تصلح للطلب والهرب والسكر والفر ، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة ، وإذا ظننت أن المصلحة في الهرب قدرت على أشد العدو ، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين . فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين ، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسك لا للزينة والتفاخر ، بل لهذه المنفعة ، وقد نبه تعالى على هذا المعنى في قوله ( والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ) فأدخل لام التعليل على الركوب ، وما أدخله على الزينة ، وإنما قال ( ضبحاً ) لأنه أمانة يظهر به التعب وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب ، فكأنه تعالى يقول : إنه مع ضعفه لا يترك طاعتك ، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضاً كذلك .

( المسألة الثانية ) ذكروا في انتصاب ( ضبحاً ) وجوهاً ( أحدها ) قال الزجاج : والعاديات تضبح ضبحاً ( وثانيها ) أن يكون ( والعاديات ) في معنى والضاحجات ، لأن الضبح يكون مع العدو ، وهو قول الفراء ( وثالثها ) قال البصريون : التقدير : والعاديات ضابحة ، فقوله ( صبحة ) نصب على الحال .

أما قوله تعالى ( فالموريات قدحاً )

## فَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا ٣ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ٤

فاعلم أن الإبراء إخراج النار ، والقذح الصك تقول قذح فأورى وقد فأصلد ، ثم في تفسير الآية وجوه (أحدها) قال ابن عباس : يريد ضرب الخيل بجوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قذح ، وقال مقاتل : يعنى الخيل تقدحن بجوافرهن فى الحجارة ناراً كنار الحياحب (١) والحياحب اسم رجل كان بخيلاً لا يوقد النار إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبه أحد أطفالاً ناره لئلا ينتفع بها أحد ، فشبّهت هذه النار التى تقدح من جوافر الخيل بنلك النار التى لم يكن فيها نفع ومن الناس من يقول : انها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار ، والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنايك نفسها كالحديد (وثانيتها) قال قوم هذه الآيات فى الخيل ، ولكن إبرؤها أن تسيح الحرب بين أصحابها وبين عدوهم ، كما قال تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفالاً الله) ومنه يقال للحرب إذا التحمت حمى الوطيس (وثالثتها) هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم (فالموريات) هم الجماعة من الغزاة (ورابعها) إنها هى الآسنة تورى نار العداوة لعظم ماتكلم به (وخامسها) هى أفكار الرجال تورى نار المسكر والخديعة ، روى ذلك عن ابن عباس ، ويقال لأقذحن لك ثم لأورين لك ، أى لأهيجن عليك شراً وحرباً ومكراً ، وقيل هو المسكر إلا أنه مكر بإيقاد النار ليراهم العدو كثيراً ، ومن عادة العرب عند الغزو إذا قربوا من العدو أن يوقدوا نيراناً كثيرة ، لئكى إذا نظر العدو إليهم ظنهم كثيراً (وسادسها) قال عكرمة الموريات قذحا الآسنة (وسابعها) (فالموريات قذحا) أى فالتنجحات أمراً ، يعنى الذين وجدوا مقصودهم وفاضوا بمطلوبهم من الغزو والحج ، ويقال للتنجح فى حاجته ورى زنده ، ثم يرجع هذا إلى الجماعة المنجحة ، ويجوز أن يرجع إلى الخيل ينتجح ركبانها ، قال جرير :

وجدنا الأزد أكرمهم جواداً وأوراهم إذا قذحوا زناداً

ويقال فلان إذا قذح أورى ، وإذا منح أورى ، واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإبراء حقيقة فى إبراء النار ، وفى غيره مجاز ، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل .

أما قوله تعالى ﴿ فالغيرات صباحاً ﴾ يعنى الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم فى الليل يكونون فى الظلمة فلا يبصرون شيئاً ، وأما النهار فالتناس يكونون فيه كالمستعدين للدافعة والمحاربة ، أما هذا الوقت فالتناس يكونون فيه فى الغفلة وعدم الاستعداد . وأما الذين حلوا هذه الآيات على الإبل ، قالوا المراد هو الإبل تدفع بركبائها يوم النحر من جمع إلى منى ، والسنة أن لا تغير حتى تصبح ، ومعنى الإغارة فى اللغة الإسراع ، يقال أغار إذا أسرع وكانت العرب فى الجاهلية تقول : أشرق ثبير كئيبا تغير . أى نسرع فى الإفاضة .

أما قوله تعالى ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ فقيه مسائل :

(١) ويقال : الحياحب طائر صغير كالنباية نضو لئلا يفيظه الرأى ناراً .

## فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥٥﴾

﴿المسألة الأولى﴾ في النقع قولان (أحدهما) أنه هو الغبار ، وقيل إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار يسمى نقعاً لارتفاعه ، وقيل هو من النقع في الماء ، فكأن صاحب الغبار غاص فيه ، كما يفوض الرجل في الماء ( والثاني ) النقع الصباح من قوله عليه الصلاة والسلام . « ما لم يكن نقع ولا لقلقة » أي فهيجن في المغار عليهم صياح النوايح ، وارتفعت أصواتهن ، ويقال نار الغبار والدخان ، أي ارتفع وثار القطا عن مقحصه ، وأثرن الغبار أي هيجنه ، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه .

﴿المسألة الثانية﴾ الضمير في قوله به إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه (أحدها) وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه ، والموضع الذي تقع فيه الإغارة ، لأن في قوله ( فالغبارات صباحاً ) دليلاً على أن الإغارة لا بد لها من موضع ، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر ذكره بالتحريح كقوله ( إنا أنزلناه في ليلة القدر ) ( وثانها ) إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة ، أي فأثرن في ذلك الوقت نقعاً ( وثالثها ) وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو ، أي فأثرن بالعدو نقعاً ، وقد تقدم ذكر العدو في قوله ( والعاديات ) .

﴿المسألة الثالثة﴾ فإن قيل على أي شيء عطف قوله ( فأثرن ) فلنا على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، والتقدير واللائى عدون فأورين ، وأغرن فأثرن .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ أبو حيوة ( فأثرن ) بالتحديد بمعنى فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار ، أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة .

أما قوله تعالى ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الليث وسطت النهر والمفاضة أسطها وسطاوسطة ، أي صرت في وسطها ، وكذلك وسطها وتوسطها ، ونحو هذا ، قال الفراء : والضمير في قوله ( به ) إلى ماذا يرجع؟ فيه وجوه ( أحدها ) قال مقاتل : أي بالعدو ، وذلك أن العاديات تدل على العدو ، مجازات الكناية عنه ، وقوله ( جمعاً ) يعني جمع العدو ، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو ، ومن حمل الآيات على الإبل ، قال يعني جمع منى ( وثانها ) أن الضمير عائد إلى النقع أي ( وسطن ) بالنقع الجمع ( وثالثها ) المراد أن العاديات وسطن ملبسات بالنقع جمعاً من مجموع الأعداء ،

﴿المسألة الثانية﴾ قرئ ( فوسطن ) بالتحديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد كقوله ( وأتوا به ) وهي مبالغة في وسطن ، وأعلم أن الناس أكثرها في صفة الفرس ، وهذا القدر الذي ذكره الله أحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وقال أيضاً « ظهرها حرز

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّهُ  
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٦٨﴾

وإطنها كنز، واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به ، ذكر المقسم عليه وهو أمور ثلاثة :  
( أحدها ) قوله ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال الواحدي أصل الكنود منع الحق والخير ،  
والكنود الذي يمنع ماعليه ، والأرض الكنود هي التي لا تنبت شيئاً ثم للفسرين عبارات ، فقال  
ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة : الكنود هو الكفور قالوا ومنه سمي الرجل المشهور  
كندة لأنه كند أباه فقارقه ، وعن الكلبي الكنود بلسان كندة العاصي وبلسان بني مالك البخيل ،  
وبلسان مضر وربيعة الكفور ، وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ( الكنود )  
هو الكفور الذي يمنع رفته ، وبأكل وحده ، ويضرب عبده ، وقال الحسن ( الكنود ) اللوام  
لربه يعد المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات . وهو كقوله ( وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدر  
عليه رزقه فيقول ربي أهان ) .

واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً ، وكيفما كان فلا يمكن حمله  
على كل الناس ، فلا بد من صرفه إلى كافر معين ، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان  
يحملة على ذلك إلا إذا عصمه الله بلفظه وتوفيقه من ذلك ، والأول قول الأكثرين قالوا لأن  
ابن عباس قال : إنها نزلت في قرظ بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي ، وأيضاً فقوله ( أفلا يعلم  
إذا بعث مافي القبور ) لا يليق إلا بالكافر ، لأن ذلك كالدلالة على أنه منكر لذلك الأمر .

﴿ الثاني ﴾ من الأمور التي أقسم الله عليها قوله ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ وفيه قولان :  
( أحدهما ) أن الإنسان على ذلك أي على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بذلك ، أما لأنه أمر ظاهر  
لا يمكنه أن يجحد ، أو لأنه يشهد على نفسه بذلك في الآخرة ويتمترف بذنوبه ( القول الثاني )  
المراد وإن الله على ذلك شهيد قالوا وهذا أولى لأن الضمير عائد إلى أقرب المذكورات والأقرب  
ههنا هو لفظ الرب تعالى ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عن المعاصي من حيث إنه يحصى عليه  
أعماله ، وأما الناصرون للقول الأول فقالوا إن قوله بعد ذلك ( وإنه لحب الخير لشديد ) الضمير  
فيه عائد إلى الإنسان ، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائد إلى الإنسان ليكون النظم  
أحسن .

﴿ الأمر الثالث ﴾ مما أقسم الله عليه قوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ الخير المال من  
قوله تعالى ( إن ترك خيراً ) وقوله ( وإذا مسه الخير منوعاً ) وهذا لأن الناس يعدون المال فيما  
بينهم خيراً كما أنه تعالى سمي ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءاً في قوله ( لم يمسسهم

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾

سوره) والشديد البخيل الممسك، يقال فلان شديد ومتشدد، قال طرفه:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ثم في التفسير وجوه (أحدها) أنه لأجل حب المال لبخيل ممسك (وثانيها) أن يكون المراد من الشديد القوى، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف، تقول هو شديد لهذا الأمر وقوى له، إذا كان مطيقاً له ضابطاً، (وثالثها) أراد إنه لحب الخيرات غير هي منبسط ولكنه شديد منقبض (ورابعها) قال الفراء يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب يعني أنه يحب المال، ويجب كونه محبباً له، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني، كما قال (اشتدت به الريح في يوم عاصف) أى في يوم عاصف الريح فاكثى بالأولى عن الثانية (وخامسها) قال قطرب، أى إنه شديد حب الخير، كقولك إنه لزيد ضروب أى أنه ضروب زيد.

واعلم أنه تعالى لما عد عليه قبائح أفعاله خوفه. فقال ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ القول في (بعثر) مضي في قوله تعالى (وإذا القبور بعثرت) وذكرنا أن معنى (بعثر) بعث وأثير وأخرج، وقرىء بـعثر.

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يسأل لم قال (بعثر ما في القبور) ولم يقل بعثر من في القبور؟ ثم إنه لما قال ما في القبور، فلم قال (إن ربهم بهم) ولم يقل إن ربهما يومئذ لخبير؟ (الجواب عن السؤال الأول) هو أن ما في الأرض من غير المكلمين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب، أو يقال أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء.

ثم قال تعالى ﴿وحصل ما في الصدور﴾ قال أبو عبيدة، أى ميز ما في الصدور، وقال الليث: الحاصل من كل شيء ما بقى وثبت وذهب ما سواه، والتحصيل تمييز ما يحصل بالإسم الحاصلة قال لبيد:

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحاصلات

وفي التفسير وجوه (أحدها) معنى حصل جمع في الصحف، أى أظهر محصلاً مجموعاً (وثانيها) أنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد حكماً على حدة، فتمييز البعض عن البعض، وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللائق به هو التحصيل ومنه قيل للنخل المحصل (وثالثها) أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن، كما قال (يوم تبلى السرائر) واعلم أن حظ الوعظ منه أن يقال إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه، فذنبى المقبرة وتشتري



## إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

التابوت ، وتفصل الكفن ، وتفزل العجوز الكفن ، فيقال هذا كله للديدان ، فأين حظ الرحمن ! بل المرأة إذا كانت حاملاً فإنها تعد للطفل ثياباً ، فإذا قلت لها لا تطلق لك فما هذا الاستعداد؟ فتقول أليس يبعث ماني بطني؟ فيقول الرب لك : ألا يبعث ماني بطن الأرض ، فأين الاستعداد ، وقرى . وحصل بالفتح والتخفيف ؛ معنى ظهر .

ثم قال ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ اعلم أن فيه سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أنه يوم أن علمه بهم في ذلك اليوم إما حصل بسبب الخبرة . وذلك يقتضى سبق الجهل وهو على الله تعالى محال ( والجواب ) من وجهين ( أحدهما ) كأنه تعالى يقول : إن من لم يكن عالماً ، فانه يصير بسبب الاختبار عالماً ، فمن كان لم يزل عالماً أن يكون خبيراً بأحوالك ! ( وثانيهما ) أن فائدة تخصيص ذلك الوقت في قوله ( يومئذ ) مع كونه عالماً لم يزل أنه وقت الجزاء ، وتقريره لمن الملك كأنه يقول لاحاكم يروج حكمه ولا عالم تروج فتواه يومئذ إلا هو ، وم عالم لا يعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك ، فكأنه تعالى يقول لست كذلك .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم خص أعمال القلوب بالذكر في قوله ( وحصل ماني الصدور ) وأهمل ذكر أعمال الجوارح ؟ ( الجواب ) لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب . فانه لولا البواعث والإردات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح ، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل في الذم . فقال ( آثم قلبه ) والأصل في المدح . فقال ( وجلت قلوبهم ) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال ( وحصل ماني الصدور ) ولم يقل ( وحصل ماني القلوب )؟ ( الجواب ) لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته ، إنما المنازع في هذا الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر ، ولذلك قال ( يوسوس في صدور الناس ) وقال ( أفمن شرح الله صدره للإسلام ) فجعل الصدر موضعاً للإسلام .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الضمير في قوله ( إن ربهم بهم ) عائد إلى الانسان وهو واحد ( والجواب ) الانسان في معنى الجمع كقوله تعالى ( إن الإنسان ابي خسار ) ثم قال ( إلا الذين آمنوا ) ولولا أنه للجمع وإلا لما صح ذلك . واعلم أنه بقي من مباحث هذه الآية مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانية ، لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم فيكون منكراً كافراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل أن الحجاج سق على لسانه أن بالنصب ، فأسقط اللام من قوله ( لخبير ) حتى لا يكون الكلام لحناً ، وهذا يذكر في تقرير فصاحته ، فزعم بعض المشايخ أن هذا كفر لأنه قصد لتغيير المنزل . ونقل عن أبي السمال أنه قرأ على هذا الوجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ سورة القارعة ﴾

﴿ إحدى عشرة آية مكية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارَعَةُ «١» مَا الْقَارَعَةُ «٢» وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارَعَةُ «٣»

﴿ سورة القارعة إحدى عشرة آية مكية ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله ( إن ربهم ٣٣ يومئذ لحبير ) فكأنه قيل وما ذلك اليوم ؟ فقيل هي القارعة .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ اعلم أن فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القرع الضرب بشدة واعتماد ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال الله تعالى ( ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ) ومنه قولهم : العبد يقرع بالعضا . ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب ، وتقارعوا تضاربوا بالسيوف ، وانفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة ، واختلفوا في لية هذه التسمية على وجوه (أحدها) أن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق ، لأن في الصيحة الأولى تذهب العقول ، قال تعالى ( فصمق من في السموات ومن في الأرض ) وفي الثانية تموت الخلائق سوى إسرافيل ، ثم يمته الله ثم يحبيه ، فينفخ الثالثة فيقومون . وروى أن الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقب معلومة ، فيجبي الله كل جسد بتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقب المعينة ، والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى ( ما ينظرون إلا صيحة واحدة ، فإنما هي زجرة واحدة ) ( وثانها ) أن الأجرام العلوية والسفلية يضطكان اصطكاكا شديدا عند تحريك العالم ، فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة ( وثالثها ) أن القارعة هي التي تفرع الناس بالاهوال والإفراع ، وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار ، وفي الشمس والقمر بالتسكور ، وفي الكواكب بالانتثار ، وفي الجبال بالدك والنسف ، وفي الأرض بالطي والتبديل . وهو قول الكلبي ( ورابعها ) أنها تفرع أعداء الله بالعذاب والحزى والنكال . وهو قول مقاتل ، قال بعض المحققين وهذا أولى من قول الكلبي لقوله تعالى ( وهم من فرغ يومئذ آمنون ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في إعراب قوله ( القارعة ما القارعة ) وجوه (أحدها) أنه تحذير وقد

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ  
الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

جاء التحذير بالرفع والنصب تقول الأسد الأسد ، فيجوز الرفع والنصب ( وثانيها ) فيه إضمار أى ستأتينكم القارعة على ما أخبرت عنه في قوله (إذا بعثر ما في القبور) (وثالثها) رفع بالابتداء وخبره (ماالقارعة) وعلى قول قطرب الخبر . (وما أدراك ماالقارعة) فإن قيل إذا أخبرت عن شئ بشئ فلا بد وأن تستفيد منه علماً زائداً ، وقوله (وما أدراك) يفيد كونه جاهلاً به فكيف يعقل أن يكون هذا خبراً ؟ قلنا قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد ، لانا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع ، فهذا التجهيل علنا أنها قارعة فافت القوارع في الهول والشدة .

(المسألة الثالثة) قوله (وما أدراك ما القارعة) فيه وجوه (أحدها) معناه لا علم لك بكنهها ، لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه ، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك ، كأنه تعالى قال : قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ، ولذلك قال في آخر السورة (نار حامية) تنبيهاً على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية ، وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه ، فإن قيل ههنا قال (وما أدراك ما القارعة) وقال في آخر السورة (فأمة هاوية . وما أدراك ما هامة) ولم يقل (وما أدراك ما هاوية فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس ، أما كونها هاوية فليس كذلك ، فظهر الفرق بين الموضوعين ( وثانيها ) أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بأخبار الله وبيانه ، لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات ، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع .

(المسألة الرابعة) نظير هذه الآية قوله (الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة) ثم قال المحققون قوله (القارعة ما القارعة) أشد من قوله (الحاقة ما الحاقة) لأن النازل آخرأ لا بد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى ، وأما بالنظر إلى المعنى ، فالحاقة أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل .

ثم قال تعالى ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ قال صاحب الكشاف : الضرف نصب بمضمردلت عليه القارعة ، أى تفرع يوم يكون الناس كذا .

واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين ( الأول ) كون الناس فيه ( كالفراش المبثوث ) قال الزجاج : الفراش هو الحيوان الذى يتهافت في النار ، وسمى فراشاً لتفرشه وانتشاره ، ثم إنه

تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر . أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل هذا على أهم إذا بعثوا فزعوا ، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ، والمبثوث المفرق ، يقال بثه إذا فرقه . وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة . قال الفراء : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً ، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبثوث ، لأنهم لما بعثوا يمشون بعضهم في بعض كالجراد والفراش . ويتأ كد ما ذكرنا بقوله تعالى ( فتأتون أفواجا ) وقوله ( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) وقوله في قصة يأجوج ومأجوج ( وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ) فإن قيل الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار ، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً ؟ قلنا شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين . أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى . وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع ، ويحتمل أن يقال إنها تكون كباراً أولاً كالجراد ، ثم تصير صغيراً كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس ، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى ( أحدها ) ما روى أنه عليه السلام قال « الناس عالم ومتعلم ، وسائر الناس همج رعاع » فجعلهم الله في الآخرة كذلك ( جزاء وفاقاً ) ( وثانها ) أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ، فقال ( كالفراش ) لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش ، لأن الفراش لا يعذب ، وهؤلاء يعذبون ، وتظيره ( كالأنعام بل هم أضل ) .

( الصفة الثانية ) من صفات ذلك اليوم قوله تعالى ( وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) العهن الصوف ذو الألوان ، وقد مر تحقيقه عند قوله ( وتكون الجبال كالعهن ) والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض ، وفي قراءة ابن مسعود : كالصوف المنفوش .

واعلم أن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال ( ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ) ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً ، وههنا مسائل :

( المسألة الأولى ) إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال ، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ! فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه . ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حررتها .

( المسألة الثانية ) قد وصف الله تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه ( أولها ) أن تصير قطعاً ، كما قال ( ودكت الجبال دكا ) ، ( وثانها ) أن تصير كثيباً مهيباً ، كما قال ( وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ) ثم تصير كالعهن المنفوش ، وهي أجزاء كالذر تدخل

فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

من كوة البيت لاتمسها الأيدي ، ثم قال في الرابع تصوير سراباً ، كما قال ( وسيرت الجبال فكانت سراباً ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يقل يوم يكون الناس كالفراس الميثوث والجبال كالعن المنفوش بل قال ( وتكون الجبال كالعن المنفوش ) لأن التكرير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير .  
واعلم أنه تعالى لما وصف يوم القيامة قسم الناس فيه إلى قسمين فقال ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ واعلم أن في الموازين قولين ( أحدهما ) أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وهذا قول الفراء قال ونظيره يقال : لك عندى درهم بميزان درهمك ووزن درهمك ودارى بميزان دارك ووزن دارك أى بحذائها ( والثانى ) أنه جمع ميزان ، قال ابن عباس الميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال فيتوزن بحسنت الطبع في أحسن صورة ، فإذا رجح فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقيح صورة فيخف وزنه فيدخل النار . وقال الحسن في الميزان له كفتان ولا يوصف ، قال المتكلمون إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنها ، خصوصاً وقد تقضيا ، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن ، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات ، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة و صحيفة السيئات بالصورة القبيحة فيظهر بذلك الثقل والخفة ، وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سروراً ، وظهور حال صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق .

أما قوله تعالى ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ فالعيشة مصدر بمعنى العيش ، كالحيفة بمعنى الخوف ، وأما الراضية فقال الزجاج : معناه أى عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها وهى كقولهم لابن ، وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر ، ولهذا قال المفسرون تفسيرها مرضية على معنى يرضاها صاحبها .

ثم قال تعالى ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أى قلت حسناته فرجحت السيئات على الحسنات قال أبو بكر رضى الله عنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً ، وقال مقاتل : إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف .

فَأَمَّهُ هَاوِيَةً ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

أما قوله تعالى ﴿ فأمه هاوية ﴾ ففيه وجوه : (أحدها) أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، والمعنى فأواه النار ، وقيل للبأوى أم على سبيل التشبيه بالأم التي لا يقع الفزع من الولد إلا إليها (وثانيها) فأم رأسه هاوية في النار ذكره الأخفش ، والكسبي ، وقلادة قال لأهم يهون في النار على رؤوسهم (وثالثها) أنهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا هوت أمه لأنه إذا هوى أى سقط وهلك فقد هوت أمه حزناً وثكلاً ، فكانت قيل ( وأما من خفت موازينه ) فقد هلك .

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ما هي ﴾ قال صاحب الكشف هي ضمير الداهية التي دل عليها قوله ﴿ فأمه هاوية ﴾ في التفسير ( الثالث ) أو ضمير ( هاوية ) والهاء للسكت فإذا وصل جاز حذفها والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه ، وذكرنا الكلام في هذه الهاء عند قوله ( لم يتسنه ، فبهدهم اقتده ، ما أغنى عن ماله ) .

ثم قال تعالى ﴿ نار حامية ﴾ والمعنى أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية ، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخوتها ، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله التوفيق وحسن المسآب ( ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد )

( سورة التكاثر )

( ثمان آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهِكُمْ سَعَاءُ التَّكَاثُرِ ١١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢٠

( سورة التكاثر ثمان آيات مكية )

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

( ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ) فيه مسائل :

( المسألة الأولى ) الإلهاء الصرف إلى الله . واللهو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى ، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضى الإعراض عن غيره ، فلهذا قال أهل اللغة ألهانى فلان عن كذا أى أنسى وشغلتى ، ومنه الحديث « أن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه » أى تركه وأعرض عنه ، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه ، والتكاثر التباهى بكثرة المال والجاه والمناقب يقال تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادوا لهم من كثرة المناقب ، وقال أبو مسلم : التكاثر تفاعل من الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعلة ، ويحتمل تكلف الفعل تقول تكارهتم على كذا إذا فعلته وأنت كاره . وتقول تماميت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه وتقول تغافلت ، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول تباعدت عن الأمر أى بعدت عنه ، ولفظ التكاثر فى هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين ، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه ( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ) ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحرص يتكلف جميع عمره تكثير ماله ، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى ( وتفاخر بينكم ) .

( المسألة الثانية ) اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع السعادة

لنفسه ، وأجناس السعادة ثلاثة :

( فأحدها ) فى النفس ( والثانية ) فى البدن ( والثالثة ) فيما يطيف بالبدن من خارج ، أما التى فى النفس فهى العلوم والأخلاق الفاضلة وهما المرادان بقوله حكاية عن ابراهيم ( رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ) وبهما ينال البقاء الأبدى والسعادة السرمدية .

وأما التى فى البدن فهى الصحة والجمال وهى المرتبة الثانية ، وأما التى تطيف بالبدن من خارج فقسمان : ( أحدهما ) ضرورى وهو المال والجاه والآخر غير ضرورى وهو الأقرباء والأصدقاء

وهذا الذي عددناه في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له .

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية فإنه مالم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية . إذا عرفت هذا فنقول : العاقل ينبغي أن يكون سعيه في تقديم الأهم على المهم ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء يتفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات ، والاشتغال به يمنع الإنسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل ، فيكون ذلك ترجيحاً لأخس المراتب في السعادات على أشرف المراتب فيها . وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق ، ولهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال ( الهاكم التكاثر ) ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش ، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها .

( المسألة الثالثة ) قوله ( الهاكم ) يحتتمل أن يكون إخباراً عنهم ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ والتقريع أى أألهاكم ، كما قرئ . أنذرتم وأنذرتهم ، وإذا كنا عظاماً وأئذا كنا عظاماً .

( المسألة الرابعة ) الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم ، ومن ذلك ما روى من تفاخر العباس بأن السقاية بيده ، وتفاخر شعبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال على عليه السلام : وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلمتم ، فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى ( أجمعتم سقاية الحاج ) الآية وذكرنا في تفسير قوله تعالى ( وأما بنعمة ربك فحدث ) أنه يجوز للإنسان أن يفخر بطاعته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدى به ، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ، هو المحمود ، وهو أصل الخبرات ، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق ، بل للمجهود السابق ، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلقتها ، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ، ولما كان ذلك مقررأ في العقول ومتفقاً عليه في الأديان ، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه .

( المسألة الخامسة ) في تفسير الآية وجوه ( أحدها ) ( الهاكم التكاثر ) بالعدد روى أنها نزلت في بنى سهم وبنى عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا فزاد بنو سهم ، فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن ، لأن قوله ( حتى زرتم المقابر ) يدل على أنه أمر مضى . فكانه تعالى يعجبهم من أنفسهم ، ويقول هب أنكم أكثر منهم عدداً فإذا ينفع ، والزيارة لإنيان الموضع ، وذلك يكون لأغراض كثيرة ، وأهمها وأولها بالبراعة تزيق القلب وإزالة حب الدنيا



فإن مشاهدة القبور تورث ذلك على ما قال عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزروها فإن في زيارتها تذكرة » ثم إنكم زرتم القبور ، بسبب مساواة القلب والاستغراق في حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية ، لاجرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبدالله ابن الشخير عن أبيه ، أنه عليه السلام كان يقرأ ( أهاكم ) وقال ابن آدم ، يقول مالي مالي . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، والمراد من قوله ( حتى زرتم المقابر ) أى حتى تمم زيارة القبر عبارة عن الموت . يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه ، قال جرير للأخطل :

زار القبور أبو مالك فأصبح الأمام زوارها

أى مات فيكون معنى الآية : أهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت ، وأتم على ذلك ، يقال حملة على هذا الوجه مشكل من وجهين ( الأول ) أن الزائر هو الذى يزور ساعة ثم ينصرف ، والميت يبقى في قبره ، فكيف يقال إنه زار القبر ؟ ( والثاني ) أن قوله ( حتى زرتم المقابر ) إخبار عن الماضي ، فكيف يحمل على المستقبل ؟ ( والجواب ) عن السؤال الأول أنه قد يمكث الزائر ، لكن لا بد له من الرحيل ، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب ( والجواب ) عن السؤال الثاني من وجوه ( أحدها ) يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر ، ولذلك يقال فيه إنه على شفير القبر ( وثانيها ) أن الخبر عن تقدمهم وعظماً لهم ، فهو كالخبر عنهم . لأنهم كانوا على طريقتهم ، ومنه قوله تعالى ( ويقتلون النبيين ) ( وثالثها ) قال أبو مسلم : إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعبيراً للكفار ، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور .

﴿ القول الثالث ﴾ ( أهاكم ) الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعم الحقوق المالية إلى حين الموت ، ثم تقول في تلك الحالة : أوصيت لأجل الزكاة بكذا ، ولأجل الحج بكذا .

﴿ القول الرابع ﴾ ( أهاكم التكاثر ) فلا تلتفتون إلى الدين ، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر البتة إلا إذا زرتم المقابر ، هكذا ينبغي أن تكون حالكم ، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ، ونظيره قوله تعالى ( قليلاً ما تشكرون ) أى لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أنه تعالى لم يقل ( أهاكم التكاثر ) عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، أى : أهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتفكير والتدبر ، أو نقول إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى : أهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارة والاستعداد لها قبل الموت ، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى أهاكم التكاثر ، فنسيتم القبر حتى زرتموه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

أما قوله تعالى ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده أما الأول، فعلى وجه الرد والتكذيب أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأموال والأولاد، وأما اتصاله بما بعده، فعلى معنى القسم أى حقاً سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائباً والسافر مسلماً، والحريص زاهداً، ومنه قول الحسن لا يفرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، وتقريره (يوم يفر المرء) ويأتينا فرداً (ولقد جئتمونا فرادى) إلى أن قال (وتركتهم ما حولنا كم) وهذا يمنعك عن التكاثر، وذكروا فى التكرير وجوهاً (أحدها) أنه للتأكيد، وأنه وعيد بعد وعيد كما تقول للمنصوح أقول لك، ثم أقول لك لا تفعل (وثانيتها) أن الأول عند الموت حين يقال له لا بشرى والثانى فى سؤال القبر: من ربك؟ والثالث عند النشور حين ينادى المنادى، فلان شقى شقاوة لا سعادة بعدها أبداً وحين يقال (وامتازوا اليوم) (وثانيتها) عن الضحك سوف تعلمون، أيها الكفار (ثم كلا سوف تعلمون) أيها المؤمنون، وكان يقرؤها كذلك، فالأول وعيد والثانى وعد (ورابعها) أن كل أحد يعلم قبيح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها. ثم إنه تعالى يقول، سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فهما حصلت زيادة لذة، ازداد علماً، وكذا فى جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحوال. فعند المعاينة يزداد، ثم عند البعث، ثم عند الحساب، ثم عند دخول الجنة والنار، فلذلك وقع التكرير (وخامسها) أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة، كما روى عن ذر أنه قال كنت أشك فى عذاب القبر، حتى سمعت على بن أبى طالب عليه السلام يقول، إن هذه الآية تدل على عذاب القبر. وإنما قال (ثم) لأن بين العالمين والحياتين موتاً.

ثم قال تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم. ثم لترونها عن اليقين﴾ وفيه مسائل: ﴿المسألة الأولى﴾ انفقروا على أن جواب لو محذوف، وأنه ليس قوله (لترون الجحيم) جواب لو ويدل عليه وجهان (أحدهما) أن ما كان جواب لو ففيه إثبات، وإثباته نفي، فلو كان قوله (لترون الجحيم) جواباً للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية، وذلك باطل، فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً، فإن قيل المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب فى الدنيا، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة فلنا ترك الظاهر خلاف الأصل (والثانى) أن قوله (ثم لتسأن يومئذ عن النعيم) إخبار عن أمر سيقع قطعاً، فخطفه على مالا يوجد ولا يقع قبيح فى النظم، واعلم أن ترك الجواب

في مثل هذا المكان أحسن ، بقول الرجل للرجل لو فعلت هذا أى لكان كذا ، قال الله تعالى ( لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ) ولم يحى له جواب وقال ( ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ) إذا عرفت هذا فنقول : ذكرنا في جواب لو وجوهاً ( أحدها ) قال الأخفش ( لو تعلمون علم اليقين ) ما ألهاكم التكاثر ( وثانيها ) قال أبو مسلم لو علمت ماذا يجب عليكم لتمسكنم به أو لو علمت لى أمر خلقتم لاشتغلتم به ( وثالثها ) أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التحويل أعظم . وكأنه قال ( لو علمت علم اليقين ) لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتبه ، ولكنكم ضلال وجهلة ، وأما قوله ( لترون الجحيم ) فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدوا به بما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بتم تليظاً للتهديد وزيادة في التحويل .

( المسألة الثانية ) أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو للزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر ، كأنه تعالى قال لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضرراً آخر ، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضى عندهم ، وكان الحسن رحمة الله يجعل معنى ( كلا ) في هذا الموضع بمعنى حقاً كأنه قيل حقاً ( لو تعلمون علم اليقين ) .

( المسألة الثالثة ) في قوله ( علم اليقين ) وجهان ( أحدهما ) أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة ، كقوله تعالى ( ولدار الآخرة ) وكما يقال مسجد الجامع وعام الأول ( والثاني ) أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة ، وقد سمي الموت يقيناً في قوله ( واعد ربك حتى يأتيك اليقين ) ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين ، وزال الشك فالعنى لو تعلمون علم الموت وما يليق الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله ، وقد يقول الإنسان ، أنا أعلم علم كذا أى أحققه ، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب ، لأن العلوم أنواع فيصالح لذلك أن يقال علمت علم كذا .

( المسألة الرابعة ) العلم من أشد البواعث على العمل ، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعداً وعظة ، وإن كان بدفوات وقت العمل تخينئذ يكون حسرة وندامة ، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات [ وجد خرزاً ] ، فالذين كالوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر ، ثم الأخذون كانوا في الغم أى لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا ، والذين لم يأخذوا كانوا أيضاً في الغم ، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة .

( المسألة الخامسة ) في الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضى أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصله فالويل للعالم الذى لا يكون عاملاً ثم الويل له .

( المسألة السادسة ) في تكرار الرؤية وجوه ( أحدها ) أنه لتأكيد الوعيد أيضاً لعل القوم

## ثم لتسألن يومئذ عن النعيم «٨»

كأولئك يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضى كون تلك الرؤبة اضطرابية ،  
يعنى لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شتم أم أبيتم ( وثانها ) أن أولهما  
الرؤية من البعيد ( إذا رآتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظاً ) وقوله ( وبرزت الجحيم لمن يرى )  
والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار ( وثالثها ) أن الرؤية الأولى عند الورد والثانية عند  
الدخول فيها . وقيل هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال ( ثم لتسألن ) والسؤال يكون قبل الدخول  
( ورابعها ) الرؤية الأولى الموعد والثانية المشاهدة ( وخامسها ) أن يكون المراد لترون الجحيم  
غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم  
فكانه قيل لهم ، على جهة الوعيد . لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة  
متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله ( ماترى في خلق الرحمن من تفاوت - إلى قوله -  
فارجع البصر كرتين ) بمعنى لو أعدت النظر فيها ماشئت لم تجد فطوراً ولم يرد مرتين فقط ، فكذا  
ههنا ، إن قيل ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين ؟ قلنا لأنهم في المرة الأولى رأوا لهاً لا غير ،  
وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ، ولا  
شك أن هذه الرؤية أجلي ، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجل التفرغ على ترك النظر  
لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة .

( المسألة السابعة ) قراءة العامة لترون بفتح التاء ، وقرئ بضمها من أريته الشيء ، والمعنى  
أنهم يحشرون إليها فيرونها ، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي كأنهما أرادا لتزونها  
فتزونها ، ولذلك قرأ الثانية ( ثم لتزونها ) بالفتح . وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها  
وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عدناها . واعلم أن قراءة العامة أولى  
لوجهين ( الأول ) قال الفراء قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن يختلف  
لفظه ( الثاني ) قال أبو على المعنى في ( لترون الجحيم ) لترون عذاب الجحيم ، ألا ترى أن الجحيم  
يراه المؤمنون أيضاً بدلالة قوله ( وإن منكم إلا واردها ) وإذا كان كذلك كان الوعيد في رؤية  
عذابها لا في رؤية نفسها يدل على هذا قوله ( إذ يرون العذاب ) وقوله ( وإذا رأى الذين ظلموا  
العذاب ) وهذا يدل على أن لترون أرجح من لترون .

قوله تعالى ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) فيه مسائل :

( المسألة الأولى ) في أن الذى يسأل عن النعيم من هو ؟ فيه قولان :

( أحدهما ) وهو الأظهر أنهم الكفار ، قال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ،

وبدل عليه وجهان ( الأول ) ماروى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية ، قال يا رسول الله : أرايت

أكلها معك في بيت أبي الهيثم بن التهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذي نسأل عنه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك للكفار ، ثم قرأ ( وهل يجازى إلا الكفور ) ( والثاني ) وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه ، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره ، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سبباً لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم في الآخرة .

( والقول الثاني ) أنه عام في حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث ، روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له . ألم نصح لك جسمك ونزوك من الماء البارد » وقال محمود بن لبيد لما نزلت هذه السورة قالوا يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ إنما هما الماء والتمر وسوفنا على عواتقنا والعدوحاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال « إن ذلك سيكون » وروى عن عمر أنه قال أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال ﷺ « ظلال المساكين والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار » وقريب منه « من أصبح آمناً في بطنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » وروى أن شاباً أسلم في عهد رسول الله ﷺ فعلمه رسول الله سورة ألهاكم ثم تزوج رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال لا أريد ذلك ، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عنه فقال ألت علمتي ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) وأنا لأطبق الجواب عن ذلك » وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال هل على من النعمة شيء ؟ قال الظل والنعلمان والماء البارد . وأشهر الأخبار في هذا ما روى أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد ، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال ما أخرجك يا أبا بكر ؟ قال الجوع ، قال والله ما أخرجني إلا الذي أخرجك ، ثم دخل عمر فقال مثل ذلك ، فقال قوموا بنا إلى منزل أبي الهيثم ، فدق رسول الله ﷺ الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب أحد فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك فقال لها خيراً ، ثم قالت بأبي أنت وأمي إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ، ثم عمدت إلى صاع من شعير فطاحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقاً وأتاهم بالطيب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام « هذا من النعيم الذي تسألون عنه » وروى أيضاً « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره وماله وشبابه وعمله » وعن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد يسأل يوم القيامة حتى عن كل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعه ، وعن لمس ثوب أخيه » واعلم أن الأولى أن يقال السؤال يعم المؤمن والكافر ، لكن سؤال الكافر سؤال توبيخ لأنه ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع .

( المسألة الثانية ) ذكروا في النعيم المستول عنه وجوهاً ( أحدها ) ما روى أنه خمس : سبع

البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخاق ( وثانيها ) قال ابن مسعود إنه الامن والصحة والفرغ ( وثالثها ) قال ابن عباس إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب ( ورابعها ) قال بعضهم الانتفاع بإدراك السمع والبصر ( وخامسها ) قال الحسين بن الفضل تحفف الشرائع وتيسر القرآن ( وسادسها ) قال ابن عمر إنه الماء البارد ( وسابعها ) قال الباقر إنه العافية ، ويروي أيضاً عن جابر الجعفي قال : دخلت على الباقر فقال ما تقول أرباب التأويل في قوله ( ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ) ؟ فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال : لو أنك أدخلت بيتك أحداً أو أقرهته في ظل وأسقيته ماء بارداً آمن عليه ؟ فقلت لا ، قال فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه ، فقلت ماتأويله ؟ قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستقدمه به من الضلالة ، أما سمعت قوله تعالى ( لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا ) الآية ( القول الثامن ) إنما يسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن . ( والتاسع ) وهو الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم ، ويدل عليه وجوه : ( أحدها ) أن الألف واللام يفيدان الاستغراق ( وثانيها ) أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي لا سيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى ( وثالثها ) أنه تعالى قال ( يابن إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ) والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإزال المز والسوى فكذا ههنا ( ورابعها ) أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاد وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل ، كما أن الترياق اسم للمعجون المركب من الأدوية الكثيرة فإذا ذكر الترياق فقد دخل الكل فيه .

واعلم أن النعم أقسام فمنها ظاهرة وباطنة ، ومنها متصلة ومنفصلة ، ومنها دينية ودنيوية ، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة ، وأما تعددها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ما قاله تعالى ( وإن تمدوا نعمت الله لا تحصوها ) واستعن في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء ، ثم هم أشد الخاق غفلة ، وفي معرفة نعم الله عليك بتخلق السموات والكواكب بالمنجمين . وهم أشد الناس جهلا بالصانع ، وفي معرفة سلطان الله بالملك ، ثم هم أجهل الخاق ، وأما الذي يروي عن ابن عمر أنه الماء البارد فمنه هذا من جملة ، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود ، ومنه قول ابن السكك للرشيد رأيت لو احتجت إلى شربة ماء في دلاة أكنت تبذل فيه نصف الملك ؟ وإذا شرقت بها أكنت تبذل نصف الملك ؟ وإن احتبس بولك أكنت تبذل كل الملك ؟ فلا تعتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره ، قال تعالى ( أن أفيضوا علينا من الماء ) أو لأن السورة نزلت في المترفين ، وهم المختصون بالماء البارد والظل ، والحق أن السؤال يعم المؤمن وانكافر عن جميع النعم سواء كان مما لا بد منه [أو لا] ، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون

مصرفاً إلى طاعة الله لا إلى معصيته ، فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكد ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمله ماذا عمل به » فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في أن هذا السؤال أين يكون ؟

﴿ فالقول الأول ﴾ أن هذا السؤال إنما يكون في موقف الحساب ، فإن قيل هذا لا يستقيم ، لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله ( ثم لتسئلن ) وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم ؟ قلنا المراد من قوله ( ثم ) أي ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة ، وهو كقوله ( فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة ) إلى قوله ( ثم كان من الذين آمنوا ) .

﴿ القول الثاني ﴾ أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخاً لهم ، كما قال ( كلما أتى فيها فوج سألهم خزنتها ) وقال ( ما سلككم في سقر ) ولا شك أن مجيء الرسول نعمة من الله ، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار ، أو يقال إنهم إذا صاروا في الجحيم وشاهدوها ، يقال لهم إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم في دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات ، فيكون ذلك من الملائكة سؤالاً عن نعيمهم في الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

( سورة العصر )

( ثلاث آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

( سورة العصر ، ثلاث آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( والعصر ) اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالاً :

( الأول ) أنه الدهر ، واحتج هذا القائل بوجوه ( أحدها ) ما روى عن النبي ﷺ أنه أقسم بالدهر ، وكان عليه السلام يقرأ : والعصر ونوائب الدهر إلا أنا نقول : هذا مفسد للصلاة ، فلا نقول إنه قرأه قرآنًا بل تفسيراً ، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعله بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره في ( هل أتى ) رداً على فساد قولهم بالطبع الدهر ( وثانيها ) أن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب ، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم ، فإنه مجزأ مقسم بالسنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة ، وكونه ماضياً ومستقبلاً ، فكيف يكون معدوماً ؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للتقسمة ، والماضي والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟ ( وثالثها ) أن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ، ثم تبت في اللحمة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد فعلت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللحمة ، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، ولذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضعهما المسكف ، وإليه الإشارة بقوله ( وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ) ( ورابعها ) وهو أن قوله تعالى في سورة الأنعام ( قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل لله ) إشارة إلى المكان والمسكنيات ، ثم قال ( وله ما سكن في الليل والنهار ) وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات ، وقد بينا هناك أن الزمان أعلى وأشرف من المكان ، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسماً بأشرف التصفيين من ملك الله وملكوته ( وخامسها ) أنهم كانوا يضيفون الحشران إلى نوائب الدهر ، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان ( وسادسها ) أنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته



كسب صار ذلك البقضان عن الحسران ، ولذلك قال ( لني خسر ) ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكان المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الرج مع أنه هدم لعمره وإنه لني خسر ( القول الثاني ) وهو قول أبي مسلم : المراد بالعصر أحد طرفي النهار ، والسبب فيه وجوه ( أحدها ) أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيها جميعاً من دلائل القدرة فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت ، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسراً فكذلك الإنسان الغافل عنهما في خسر ( وثانيها ) قال الحسن رحمه الله إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها ، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ماهو حقه فينتد تخجل فتكون من الخاسرين ، فكذلك نقول والعصر أي وعصر الدنيا قد دنت القيامة و [ أنت ] بعد لم تستعد وتعلم أنك تسأل غداً عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك ، وتساءل في معاملتك مع الخلق وكل أحد من المظلومين يدعى ماعليك فإذا أنت خاسر ، ونظيره ( اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ) ، ( وثالثها ) أن هذا الوقت معظم ، والدليل عليه قوله عليه السلام « من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة » فكما أقسم في حق الراج بالضحى فكذلك أقسم في حق الخاسر بالعصر وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الراج وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وههنا في حق الخاسر توعدده أن أمره إلى الإدبار ، ثم كأنه يقول بعض النهار باق فيحته على التدارك في البقية بالتوبة ، وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من باع الثلج كان يصبح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله ، فقلت هذا معنى ( إن الإنسان لني خسر ) يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر .

( القول الثالث ) وهو قول مقاتل أراد صلاة العصر ، وذكروا فيه وجوهاً ( أحدها ) أنه تعالى أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله ( والصلاة الوسطى ) صلاة العصر في صحف حفصة وقيل في قوله ( تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ) إنها صلاة العصر ( وثانيها ) قوله عليه السلام « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ( وثالثها ) أن التكليف في أدائها أشق لتأف الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم ( ورابعها ) روى أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول : دلوني على النبي ﷺ فرأها رسول الله ﷺ ، فسأها ماذا حدث ؟ قالت يا رسول الله إن زوجي غاب عنى فزيت لجأني ولدمن الزنا فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل فهل لى من توبة ؟ فقال عليه السلام أما الزنا فغليك الرجم ، وأما قتل الولد فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً ، لكن ظننت أنك تركت صلاة

## إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾

صلاة العصر، ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة (١) (وخامسها) أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال، فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخزائيمها، فأقسم بهذه الصلاة تفخيماً لشأنها، وزيادة توصية المكلف على أدائها وإشارة منه أنك إن أدبتها على وجهها عاد خسرانك ربحاً، كما قال (إلا الذين آمنوا) (وسادسها) قال النبي صلى الله عليه وسلم «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكهم» - [عند] منهم - رجل حلف بمد العصر كاذباً، (فإن قيل) صلاة العصر فعلنا، فكيف يجوز أن يقال أقسم الله تعالى به؟ (والجواب) أنه ليس قسماً من حيث إنها فعلنا، بل من حيث إنها أمر شريف تعبدنا الله تعالى بها .

(القول الرابع) أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام «إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً، فقال من يعمل من الفجر إلى الظهر بغير إطعام، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل من الظهر إلى العصر بغير إطعام، فعملت النصارى، ثم قال من يعمل من العصر إلى المغرب بغير إطعام، فعملتم أتم، فغضبتم اليهود والنصارى، وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل أجراً! فقال الله: وهل نقصت من أجركم شيئاً، قالوا لا، قال فهذا فضلي أوتيه من شاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً» فهذا الخبر يدل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأتمته، فلا جرم أقسم الله به، فقوله (والعصر) أى والعصر الذى أنت فيه فهو تعالى أقسم بزمانه فى هذه الآية وبمكانه فى قوله (وأنت حل بهذا البلد) وبعمره فى قوله (لعمرك) فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كانظر له، فإذا وجب تعظيم حال الظرف فقس حال المظروف، ثم وجه القسم، كأنه تعالى يقول: أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم. وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك، فما أعظم خسراهم وما أجل خذلانهم .

قوله تعالى ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) ﴿الالف واللام فى الإنسان، يحتمل أن تكون للجنس، وأن تكون للمعهود السابق، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين (الأول) أن المراد منه الجنس وهو كقولهم: كثر الدرهم فى أيدي الناس، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان (والقول الثانى) المراد منه شخص معين، قال ابن عباس: يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب. وقال مقاتل: نزلت فى أبى لهب، وفى خبر مرفوع

(١) دلالة الحديث على أهمية صلاة العصر واضحة، أى أن اهتمام المرأة العظيم الذى بدأ بالبعث والنزول عن رسول الله جعل الرسول يظن أنها تسأل عن أعظم الأشياء. وهى صلاة العصر لاهته الأسماء المملوطة أحكامها من الدين، ولعل هذه الحادثة كانت بقرب نزول سورة العصر. أو قول الرسول تبكى للمرأة على سؤاها عن المعاصى لا عن الطاعات .

لأنه أبو جهل ، روى أن هؤلاء كانوا يقولون : إن محمداً لفي خسر ، فأقسم تعالى أن الأمر بالضرر مما يتوهمون .

( المسألة الثانية ) الخسر الخسران ، كما قيل الكفر في الكفران ، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال ، ثم فيه تفسيران ، وذلك لأننا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره ، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله ، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية ، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء ، فيخيدن يتخلص من ذلك الخسار إلى الرجوع .

( المسألة الثالثة ) إنما قال ( لفي خسر ) ولم يقل لفي الخسر ، لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقيق أخرى . فإن حملناه على الأول كان المعنى إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وتقديره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب ، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه ، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم ، وإن حملناه على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان ، وفيه بشارة أن في خلق من هو أعصى منك ، والتأويل الصحيح هو الأول .

( المسألة الرابعة ) لقائل : أن يقول قوله ( لفي خسر ) يفيد التوحيد . مع أنه في أنواع من الخسر ( والجواب ) أن الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه ، وأما البواقي وهو الحرمان عن الجنة ، والوقوع في النار ، فبالنسبة إلى الأول كالعدم ، وهذا كما أن الإنسان في وجوده فوائد . ثم قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) أي لما كان هذا المقصود أجل المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم .

واعلم أن الله تعالى قرن هذه الآية قرآن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر ( أحدها ) قوله ( لفي خسر ) يفيد أنه كالغمرور في الخسران ، وأنه أحاط به من كل جانب ( وثانيها ) كلمة إن ، فإنها للتأكيد ( وثالثها ) حرف اللام في لفي خسر ، وههنا احتمالان :

( الأول ) في قوله تعالى ( لفي خسر ) أي في طريق الخسر ، وهذا مقوله في أكل أموال اليتامى : ( إنما يأكلون في بطونهم ناراً ) لما كانت عاقبته النار .

( الاحتمال الثاني ) أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر هو تضييع رأس المال ، ورأس ماله هو عمره . وهو قلما ينفك عن تضييع عمره ، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان ، فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران . وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضاً حاصل ، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر ، مع أنه كان متمكناً من أن يعمل فيه عملاً يبق أثره دائماً ، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها ، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك ، لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية ، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية ، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر ، فكان تعظيمه

## إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقصص بالأدنى نوع خسران، فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران.

واعلم أن هذه الآية كالتبني على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والحياة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشغولين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في الخسران والبوار، فإن قيل إنه تعالى قال في سورة التين (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين) فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاج إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاج إلى الكمال، فكيف وجه الجمع؟ قلنا المذكور في سورة التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين.

قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مراراً، ثم ههنا مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ احتج من قال العمل غير داخل في معنى الإيمان، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان، ولو كان عمل الصالحات داخلاً في معنى الإيمان لكان ذلك تكريراً، ولا يمكن أن يقال هذا التكرير واقع في القرآن، كقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وقوله (وملائكته وجبريل وميكال) لأننا نقول هناك إنما حسن، لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلي، وعمل الصالحات ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان، فبطل هذا التأويل. قال الحلبي: هذا التكرير واقع لا محالة، لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات، لكن قوله (وعملوا الصالحات) يشتمل على الإيمان، فيكون قوله (وعملوا الصالحات) مغنياً عن ذكر قوله (الذين آمنوا) أيضاً فقوله (وعملوا الصالحات) يشتمل على قوله (وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر) فوجب أن يكون ذلك تكريراً، أجب الأولون وقالوا: إنما لا يمنع ورود التكرير لأجل التأكيد، لكن الأصل عدمه، وهذا القدر يكفي في الاستدلال.

﴿المسألة الثانية﴾ احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية، قالوا: الآية دلت على أن الإنسان في الخسارة مطلقاً، ثم استثنى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما، فعلينا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة، لا بد وأن يكون في الخسارة في الدنيا وفي الآخرة، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين في غاية القلة، وكان الخسار

## وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

لازماً لمن لم يكن مستجمعاً لهما كان الناجي أقل من الهالك ، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيماً حتى لا تكون أنت من القليل ، كيف والناحي أقل ؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشد !

( المسألة الثالثة ) أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة ( أحدها ) أنه تسلية للؤمن من فوت عمره وشبابه ، لأن العمل قد أوصله إلى ما هو خير من عمره وشبابه ( وثانيها ) أنه تنبيه على أن كل مادعاك إلى طاعة الله فهو الصلاح ، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد ( وثالثها ) قالت المعتزلة تسمية الأعمال بالصلحاحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على ما يقوله الأشعرية ، لكن الأمر إنما ورد لكونها في أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح ، وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة ، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر .

( المسألة الرابعة ) لسائل أن يسأل ، فيقول إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب ، وفي جانب الربح ذكر السبب ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، ولم يذكر الحكم فما الفرق ؟ ( قلنا ) إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل ، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك ، وهو عدم الإقدام على الطاعة ، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل ، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه تعالى في جانب الخسر أتهم ولم يفصل ، وفي جانب الربح فصل وبين ، وهذا هو اللائق بالترك .

أما قوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤدبهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب ، وفي اجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه ، والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد ، وههنا مسائل :

( المسألة الأولى ) هذه الآية فيها وعيد شديد ، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة ، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور ، منها الدعاء إلى الدين والنصيحة والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليعتد به الأول الدعاء إلى الله. والثاني اثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه قوله (وإنه عن المنكر، واصبر) وقال عمر: رحم الله من أهدى إلى عيوني.

﴿المسألة الثانية﴾ دلت الآية على أن الحق ثقيل. وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي.

﴿المسألة الثالثة﴾ إنما قال (وتواصوا) ولم يقل ويتواصون لئلا يقع أمراً بل الغرض

مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل.

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ أبو عمرو (بالصبر) بضم الباء شيئاً من الحرف، لا يشبع قال أبو علي،

وهذا مما يجوز في الوقف، ولا يكون في الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وهذا لا يكاد

يكون في القراءة، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ، والعصر بكسر الصاد ولعله

وقف لانقطاع نفس أو لعارض منعه من إدراج القراءة، وعلى هذا يحمل لا على إجراء الوصل

مجرى الوقف، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الهمزة  
(تسع آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)

(سورة الهمزة تسع آيات مكية)  
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ويل لكل همزة لمزة) فيه مسائل :

(المسألة الأولى) الويل لفظه الذم والسخط ، وهى كلمة كل مكروب يتولول فيدعو بالويل وأصله وى لفلان ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام ، وروى أنه جبل في جهنم إن قيل لم قال ههنا (ويل) وفي موضع آخر (ولكم الويل) ؟ قلنا لأن ثمة قالوا (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) فقال (ولكم الويل) وههنا نكر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله ، وقيل في ويل إنها كلمة تقييح ، وويس استصغار ، وويح ترحم ، فنبه بهذا على قبح هذا الفعل ، واختلفوا في الوعيد الذى في هذه السورة هل يتناول كل من يتمسك بهذه الطريقة في الأفعال الرديئة أو هو مخصوص بأقوام معينين ، أما المحققون فقالوا إنه عام لكل من يفعل هذا الفعل كائناً من كان وذلك لأن خصوص السبب لا يقدر في عموم اللفظ وقال آخرون إنه مختص بأناس معينين ، ثم قال عطاء والكلبي نزلت في الأخنس بن شريق كان يلز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه في وجهه ، وقال محمد بن إسحق مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف ، قال الفراء وكون اللفظ عاماً لا ينافى أن يكون المراد منه شخصاً معيناً ، كما أن إنساناً لو قال لك لا أزورك أبدا فتقول أنت كل من لم يزرني لا أزوره وأنت إنما تريد هذه الجملة العامة (١) وهذا هو المسمى في أصول الفقه بتخصيص العام بقريئة العرف .

(المسألة الثانية) الهمز الكسر قال تعالى (هماز مشاء) واللمز الطعن والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم . قال تعالى (ولا تلبسوا أنفسكم) وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ونحوها اللعنة والضحكة ، وقرئ (ويل لكل همزة لمزة) بسكون الميم وهى المسخرة التى تأتى بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم وللمفسرين ألفاظاً (أحدها) قال ابن عباس: الهمزة المغتاب ، والهمزة العياب (وثانيتها) قال أبو زيد: الهمزة باليد واللمزة

(١) في الأصل هذه العامة وبالجملة هذا إلخ ، ولعل العبارة معرفة عما أصلحناه به .

## الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢٥﴾

باللسان ( وثالثها ) قال أبو العالية : الهمة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب ( ورابعها ) الهمة جهراً واللمزة سرّاً بالحاجب والعين ( وخامسها ) الهمة اللزمة الذي يلقب الناس بما يكرهون وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك ، لكنه لا يلبق بمنصب الرياسة إنما ذلك من عادة السقاط ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا . وقد حكى الحكم بن العاص مشية النبي صلى الله عليه وسلم فتفاه عن المدينة ولعنه ( وسادسها ) قال الحسن ، الهمة الذي يهزم جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه ( وسابعها ) عن أبي الجوزاء قال قلت لابن عباس ( ويل لكل همزة لمزة ) من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل فقال هم المشاؤون بالنيمة المفرقون بين الأوجه التاعتون للناس بالغيب .

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد ، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإسحاق ، وكل واحد من القسمين ، إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين ، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشى ، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة ، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون حاضر ، وقد يكون لغائب ، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما ، وكل ذلك داخل تحت النهى والزجر ، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا ، فما كان اللفظ موضوعاً له كان منهيّاً بحسب اللفظ ، وما لم يكن اللفظ موضوعاً له كان داخل تحت النهى بحسب القياس الجلي ، ولما كان الرسول أعظم الناس منصباً في الدين كان الطعن فيه عظيماً عند الله ، فلا جرم قال ( ويل لكل همزة لمزة ) .

ثم قال تعالى ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ( الذي ) بدل من كل أو نصب على الذم ، وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو إعجاب بما جمع من المال ، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والسكسائي وابن عامر جمع بالتشديد والباقون بالتخفيف والمعنى في جمع وجمع واحد متقارب ، والفرق أن ( جمع ) بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا ، وأنه لم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، يقال فلان يجمع الأموال أي يجمعها من ههنا وههنا ، وأما جمع بالتخفيف ، فلا يفيد ذلك ، وأما قوله ( مالا ) فالتنكير فيه يحتمل وجهين ( أحدهما ) أن يقال المال اسم لكل مافي الدنيا كما قال ( المال والبنون زينة الحياة الدنيا ) فالإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا فقير . فكيف يليق به أن يفخر بذلك



يَحْسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخَذَهُ ﴿٢٣﴾ كَلَّا لِيُنذَرَ فِي الْخَطْمَةِ ﴿٢٤﴾

القليل (والثاني) أن يكون المراد منه التعظيم أى مال بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات . فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟ أما قوله ( وعدده ) ففقيه وجوه أحدها أنه مأخوذ من العدة وهى الذخيرة يقال أعددت الشيء لكذا وعددته إذا أمسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر ( وثانيها ) عدده أى أحصاه وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال فلان يعدد فضائل فلان ، ولهذا قال السدى وعدده أى أحصاه يقول هذا لى وهذا لى يلبيه ماله بالهار فاذا جاء الليل كان يخفيه ( وثالثها ) عدده أى كثره يقال فى بنى فلان عدد أى كثرة ، وهذا القولان الأخيران راجعان إلى معنى العدد ، والقول الثالث إلى معنى العدة ، وقرأ بعضهم وعدده بالتخفيف وفيه وجهان ( أحدهما ) أن يكون المعنى جمع المال وضبط عدده وأحصاه ( وثانيهما ) جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قولاك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار والرجل متى كان كذلك كان أدخل فى التفاخر .

ثم وصفه تعالى بضرب آخر من الجهل فقال ﴿ يحسب أن ماله أخذه ﴾ .

واعلم أن أخذه وخلده بمعنى واحد ثم فى التفسير وجوه ( أحدها ) يحتمل أن يكون المعنى طول المال أمله ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله . يحسب أن ماله تركه خالداً فى الدنيا لا يموت وإنما قال ( أخذه ) ولم يقل بخلده لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت وكأنه حكم قد فرغ منه ، ولذلك ذكره على الماضى . وقال الحسن : ما رأيت يقيناً لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت ( وثانيها ) يعمل الأعمال المحكمة كتشييد البيعان بالآجر والجنب ، عمل من يظن أنه يمتى حياً أولاً لجل أن يذكر بسببه بعد الموت ( وثالثها ) أحب المال حباً شديداً حتى اعتقد أنه : إن انتقص مالى أموت . فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حياً . وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل ( ورابعها ) أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذى يخلد صاحبه فى الدنيا بالذكر الجميل وفى الآخرة فى التعميم المقيم .

أما قوله تعالى ﴿ كلاً ﴾ ففقيه وجهان ( أحدهما ) أنه ردع له عن حسبانته أى ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده بل العلم والصلاح ، ومنه قول على عليه السلام : مات خزان المال وهم أحياء . والعلماء باقون مابقى الدهر ، والقول الثانى معناه حقاً ( لينبذن ) واللام فى ( لينبذن ) جواب القسم المقدر فدل ذلك على حصول معنى القسم فى كلاً .

أما قوله تعالى ﴿ لينبذن فى الخطمة . وما أدراك ما الخطمة ﴾ فأنما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة ، لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة ، وقرئ لينبذان أى هو وماله ولينبذن بضم الدال أى هو وأنصاره ، وأما ( الخطمة ) فقال المبرد إنها النار التى تحطم كل من وقع

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ ﴿٥٠﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦٠﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَّةِ ﴿٧٠﴾  
 إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨٠﴾

فيها ورجل حطمة أى شديد الأكل يأتي على زاد القوم ، وأصل الحطم في اللغة الكسر ، ويقال شر الرعاء الحطمة ، يقال راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم المشاة أى يكسرها عند سوقها لعنفه ، قال المفسرون الحطمة اسم من أسماء النار وهى الدركة الثانية من دركات النار ، وقال مقاتل : هى تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ، وروى على النبي ﷺ أنه قال « إن الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الحشبة على الركبة فتكسر ثم يرمى به في النار » .  
 واعلم أن الفائدة في ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه : ( أحدها ) الاتحاد في الصورة كأنه تعالى يقول : ان كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة ( والثاني ) أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى وراك الحطمة ، وفي الحطم كسر فالحطمة تكسر ك وتلقيك في حضيض جهنم لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب ، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا يتبى ولا تذر ( الثالث ) أن الهامز اللماز يأكل لحم الناس والحطمة أيضاً اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم ، ويمكن أن يقال ذكر وصفين الهمز واللمز ، ثم قابلهما باسم واحد وقال خذ واحداً مني بالإثنين منك فإنه يني ويكفي ، فكان السائل يقول كيف بني الواحد بالاثنتين ؟ فقال إنما تقول هذا لأنك لا تعرف هذا الواحد فلذلك قال ( وما أدراك ما الحطمة ) .

أما قوله تعالى ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ فالإضافة للتفخيم أى هى نار لا كسائر النيران ﴿ الموقدة ﴾ التى لا تخمد أبداً أو ( الموقدة ) بأمره أو بقدرته ومنه قول على عليه السلام : مجباً عن يعصم الله على وجه الأرض والنار تسعر من تحته ، وفي الحديث « أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت فهى الآن سوداء مظلمة » .

أما قوله تعالى ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَّةِ ﴾ . فاعلم أنه يقال طلع الجبل واطلع عليه إذا علاه ، ثم في تفسير الآية وجهان : ( الأول ) أن النار تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، ولا شئ في بدن الإنسان أظف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأذى أذى يماسه ، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه . ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات ، وهذا هو المراد من قوله ( لا يموت فيها ولا يحيى ) ومعنى الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد ( والثاني ) أن سبب تخصيص الآفئة بذلك هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة ، واعلم أنه روى عن النبي ﷺ أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إن الله تعالى يعيد لهمم وعظمتهم مرة أخرى .  
 أما قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾ فقال الحسن ( مؤصدة ) أى مطبقة من أصدت الباب

## في عمد ممددة «٩٥»

وأوصدته لغتان، ولم يقل مطبقة لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة، والإطباق لا يفيد معنى الباب. واعلم أن الآية تفيد المبالغة في العذاب من وجوه (أحدها) أن قوله (لينبذن) يقتضى أنه موضع له قعر عميق جداً كالبحر (وثانها) أنه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يذكرهم الخروج، فيزيد في حسرتهم (وثالثها) أنه قال (عليهم مؤصدة) ولم يقل مؤصدة عليهم، لأن قوله (عليهم مؤصدة) يفيد أن المقصود أولاً كونهم بهذه الحالة، وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول.

أما قوله تعالى ﴿ في عمد ممددة ﴾ ففيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ في عمد بضمين، وعمد بسكون الميم وعمد بفتححتين، قال الفراء: عمد وعمد وعمدمثل الأديم والإدم والأدم والإهاب والأهب والأهب، والعقيم والعقم والعقم وقال المبرد وأبو علي: العمدم جمع عمود على غير واحد، أما الجمع على واحد فهو العمدم مثل زبور وزبر ورسول ورسول.

﴿ المسألة الثانية ﴾ العمود كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء، يقال عمود البيت للذى يقوم به البيت.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في تفسير الآية وجهان (الأول) أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب، وفي بمعنى الباء أى أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها، ولم يقل بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها (والقول الثانى) أن يكون المعنى (إنها عليهم مؤصدة) حال كونهم موقنين (في عمد ممددة) مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص، اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين.

## سورة الفيل

(خمس آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

(سورة الفيل ، خمس آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ) .

روى أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أحمدة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فأغضبه ذلك . وقيل أوجت رفقة من العرب ناراً فحلمتها الريح فأحرقتها خلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيماً . وثمانية أخرى ، وقيل اثنا عشر ، وقيل ألف ، فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبا جيشه ، وقدم الفيل فنكوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلاً جسيماً وسيماً ، وقيل هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته ، قال سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آباءك فأهلك عنه ذود أخذك ، فقال أنا رب الإبل ولليبت رب سيمنعك عنه ، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول :

لاهم إن المرء يـمنع حله فامنع حلالك (١)

وانصر على آل الصليب وعايديه اليوم آلك

لا يقابن صليهم ومحالمهم عدوا محالك (٢)

إن كنت تاركهم وكمهـمتنا فأمر ما بدالك

ويقول : يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع عنهم حماك

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا

(١) يروى : لا هم إن المرء يـمنع حله فامنع رحالك

(٢) الرواية الجيدة : لا يقابن صليهم ومحالمهم أبداً محالك

تهامية ، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصفر من الحمصة . وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بجمرة كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا في كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانقلت وزيره أبو يكسوم وطائر يخلق فوقه ، حتى بلغ النجاشي قفص عليه القصة . فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه ، وعن عائشة قالت « رأيت قائد الفيل » وسأسته أعميين مقعدين يستطعمان ، ثم في الآية سوالات :

(الاول) لم قال (ألم تر) مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل؟ (الجواب) المراد من الرؤية العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلال للرؤية ، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم (أولم يروا كم أهلكتنا قبلهم من القرون) لا يقال : فلم قال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) لأننا نقول : الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لسكونه قادراً ، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل ، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية .

(السؤال الثاني) لم قال (ألم تر كيف فعل ربك) ولم يقل ألم تر ما فعل ربك؟ (الجواب) لأن الأشياء لها ذوات ، ولها كفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات . ولهذا قال (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها ، ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله ، وعند المعتزلة ، أن ذلك لا يجوز ، فلا جرم زعموا أنه لا بد وأن يقال كان في ذلك الزمان نبي [أو خطيب] كعالم بن سنان أو قس بن ساعدة ، ثم قالوا ولا يجب أن يشتهر وجودهما ، ويبلغ إلى حد التواتر ، لاحتمال أنه كان مبعوثاً إلى جمع قليلين ، فلا جرم لم يشتهر خبره .

واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدین جداً . لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم أضراراً ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجرى فيها تلك الأضرار ، لأنها ليس في شيء من الطابع والحليل أن يقبل طير معها حجارة ، فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة (١) ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقى بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، ولو كان النقل ضعيفاً لشافوه بالتكذيب ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه .

(١) كيف يقول : إلا نيف وأربعون . والرسول ولد عام الفيل فلا معنى لذكر النيف .

(السؤال الثالث) لم قال (فعل) ولم يقل جعل ولا خلق ولا عمل؟ (الجواب) لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل، وجعل للكيفيات قال تعالى (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظ البيت، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظاً يشمل الكل .

(السؤال الرابع) لم قال ربك، ولم يقل الرب؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) كأنه تعالى قال إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة . فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الانتقام، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل . فأقول ربك، أى أنا لك ولست لهم بل عليهم (وثانيها) كأنه تعالى قال: إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيماً لك وتشريفاً لمقدمك، فأنا كنت مريباً لك قبل قومك، فكيف أترك تربتك بعد ظهورك، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيقظر .

(السؤال الخامس) قوله (ألم تر كيف فعل ربك) مذكور في معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست بحجبية، فما السبب لهذا التعجب؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الكعبة تبع محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن العلم يؤدي بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف، ثم الرسول الذى هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه . فكأنه تعالى يقول إن الملك العظيم لما طعن في المسجد هزمته وأفنيته، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أفنيه وأعدمه! إن هذا لعجيب (وثانيها) أن الكعبة قبة صلاتك وقلبك قبة معرفتك، ثم أنا حفظت قبة عمك عن الأعداء . أفلا نسعى في حفظ قبة دينك عن الآثام والمعاصي!

(السؤال السادس) لم قال (أصحاب الفيل) ولم يقل أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ (الجواب) لأن الصحاب يكون من الجنس . فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقرام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل . بل فيه دققة، وهى: أنه إذا حصلت المصاحبة بين محضين، فيقال للأدون إنه صاحب الأعلى، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام إنهم الصحابة . فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأثام كانوا أقل حالا وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى (بل هم أضل) وبما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جانب الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه . كأنه كان يقول لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق عزمي حميد فلا أتركه<sup>(١)</sup> وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم .

(١) هذا حكاية لسان حال الفيل والعزم بمعنى العزيمة . يقال بين عزمه وعزمهم .

## ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ (٢) « وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ (٣)

﴿ السؤال السابع ﴾) أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر ، ولا شك أن ذلك كان أقيح من تخريب جدران الكعبة ، فلم سلط الله العذاب على من قصد التخريب ، ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان ؟ ( والجواب ) لأن وضع الأوثان فيها تعد على حق الله تعالى ، وتخريبها تعد على حق الخلق ، ونظيره قاطع الطريق ، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون ، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة ، وإن كانوا كفار ، لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

﴿ السؤال الثامن ﴾) كيف القول في إعراب هذه الآية ؟ ( الجواب ) قال الزجاج : كيف في موضع نصب بفعل لا بقوله ( ألم تر ) لأن كيف من حروف الاستفهام .

واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم ، فقال ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾) اعلم أن الكيد هو إرادة مضره بالغير على الخفية ، إن قيل فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا نعم ، لكن الذي كان في قلبه شرماً أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلده .

﴿ المسألة الثانية ﴾) قالت المعتزلة : إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالتبجح ، إذ لو رضى لأضافه إلى ذاته ، كقوله ( الصوم لي ) ( والجواب ) أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾) (في تضليل) أي في تضليل وإبطال يقال ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً ونظيره قوله تعالى (وما دعاه الكافرين إلا في ضلال) وقيل لا مرمى القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه أي ضيعه . بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم ، ومعنى حرف الظرف كما يقال سعى فلان في ضلال ، أي سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلالاً وخطأ .

ثم قال تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾) لم قال ( طيراً ) على التنكير ؟ (الجواب) إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل .



## ترميمهم بحجارة من سجيل «٤»

(السؤال الثاني) ما الأبايل؟ (الجواب) أما أهل اللغة قال أبو عبيدة أبايل جماعة في تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبايل أبايل من ههنا وههنا ، وهل لهذه اللفظة واحد أم لا؟ فيه قولان (الأول) وهو قول الأنخس والفراء أنه لا واحد لها وهو مثل الشاطيط والعباديد ، لا واحد لها (والثاني) أنه له واحد ، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه (أحدها) زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة ، وفي أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة (وثانيها) قال الكسائي كنت أسمع النحويين يقولون إبول وأبايل كعجول وعجاجيل (وثالثها) قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبايل لإبالة كان صواباً كما قال : دينار ودنانير .

(السؤال الثالث) ماصفة تلك الطير؟ (الجواب) روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيراً لها خراطيم كخرطوم الفيل وأكف كأكف الكلاب ، وروى عطاء عنه قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا ، ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية ، وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهمزت بها ، والبياض ضد السواد ، وقيل كانت خضراً ولها رموس مثل رموس السباع ، وأقول إنها لما كانت أفواجا ، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف مارأى ، وقيل كانت بقاء كالخطاطيف .

ثم قال تعالى ( ترميمهم بحجارة من سجيل ) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ أبو حيوة: يرميمهم أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى .

(المسألة الثانية) ذكروا في كيفية الرمي وجوهاً (أحدها) قال مقاتل : كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، واحد في منقاره واثنتان في رجله يقتل كل واحد رجلاً ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع لإخراج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره (وثانيها) روى عكرمة عن ابن عباس . قال لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفض جلده وثار به الجدرى ، وهو قول سعيد بن جبير ، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة ، وأكبرها مثل الحصاة .

واعلم أن من الناس من أنكردلك . وقال لوجوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون في وزن التبتة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى



## فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شمس وأقمار ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأبدلس، وكل ذلك محال. واعلم أن ذلك جاز على مذمبتنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

(المسألة الثالثة) ذكروا في السجيل وجوهاً (أحدها) أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجيناً علم للديوان أعمالهم، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال، ومنه السجل الدلو المملوء ماء، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الإسم لأنه كتب فيه العذاب، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) وقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) فقوله (من سجيل) أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب (وثانيتها) قال ابن عباس سجيل معناه سنك وكل، يعني بعضه حجر وبعضه طين (وثالثها) قال أبو عبيدة السجيل الشديد (ورابعها) السجيل اسم لسماء الدنيا (وخامسها) السجيل حجارة من جهنم، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام.

أما قوله تعالى (فجعلهم كعصف ما كؤل) ففيه مسائل:

(المسألة الأولى) ذكروا في تفسير العصف وجوهاً ذكرناها في قوله (والحب ذو العصف) وذكروا ههنا وجوهاً: (أحدها) أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي (وثانيتها) قال أبو مسلم العصف التبن لقوله (ذو العصف والريحان) لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه (وثالثها) قال الفراء هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السبل (ورابعها) هو الحب الذي أكل له وبقي قشره.

(المسألة الثانية) ذكروا في تفسير المأكول وجوهاً (أحدها) أنه الذي أكل، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان:

(أحدهما) أن يكون المعنى كزرع وتبين قد أكلته الدواب، ثم ألقته روثاً، ثم يحف وتفرق أجزاءه، شبه تقطع أوصلهم بتفرق أجزاء الروث، لإلأن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن، كقوله (كانا يأكلان الطعام) وهو قول مقاتل، وفتادة وعطاء عن ابن عباس.

(والاحتمال الثاني) على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال، وهو أن يأكله الدود (الوجه الثاني) في تفسير قوله (مأكول) هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تبته، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: كعصف ما كؤل الحب. كما يقال فلان حسن أي حسن الوجه، فأجرى ما كؤل على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى معلوم، وهذا

قول الحسن (الوجه الثالث) في التفسير أن يكون معنى (ما كول) أنه مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب يقال لكل شيء يصلح للأكل هو ما كول والمعنى جعلهم كمثل تأكله الدواب وهو قول عكرمة والضحاك .

(المسألة الثالثة) قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شيء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة (والجواب) أنا بينا أن ذلك وقع إرهاباً لأمر محمد ﷺ ، والإرهاب إنما يحتاج إليه قبل قدمه ، أما بعد قدمه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة قريش)

(وهي أربع آيات مكية)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَّا فِمْ (٢)

(سورة قريش وهي أربع آيات مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(لإيلاف قريش إيلافهم) اعلم أن ههنا مسائل :

(المسألة الأولى) اللام في قوله (لإيلاف) تحتمل وجوهاً ثلاثة ، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التي قبلها أو بالآية التي بعدها ، أو لا تكون متعلقة بما قبلها ، ولا بما بعدها (أما الوجه الأول) وهو أن تكون متعلقة بما قبلها ، ففيه احتمالات :

(الأول) وهو قول الزجاج وأبي عبيدة أن التقدير (فجعلهم كعصف ما كول) لإيلاف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقي قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء وال الصيف ، فإن قيل : هذا ضعيف لأنهم إنما جعلوا (كعصف ما كول) لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش ، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه (أحدها) أما لا نسلم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم ، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة ، قال تعالى (اليوم تجزي كل نفس بما كسبت) وقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها من دابة) ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم ، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار ، بل إنما فعل ذلك بهم (لإيلاف قريش) ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم (وثانها) هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافي كون شيء آخر مقصوداً حتى يكون الحكم واقعاً بمجموع الأمرين معاً (وثالثها) هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط ، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش ، جاز أن يقال أهلكوا لإيلاف قريش ، كقوله تعالى (ليكون لهم عدواً وحزناً) وهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يمهده عليه الالتقاط .

(الاحتمال الثاني) أن يكون التقدير (لم تتركف فعل ربك بأصحاب الفيل ، لإيلاف قريش) كأنه تعالى قال كل ما فعلنا بهم فقد فعلناه ، لإيلاف قريش ، فإنه تعالى جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، حتى صاروا كعصف ما كول ، فبكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش .

﴿ الاحتمال الثالث ﴾ أن تكون اللام في قوله ( لإيلاف ) بمعنى إلى كأنه قال فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم ( رحلة الشتاء والصيف ) تقول نعمة الله نعمة ونعمة ونعمة لنعمة سواء في المعنى ، هذا قول الفراء ، فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه ، وبقى من مباحث هذا القول أمران :

﴿ الأول ﴾ أن للناس في تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين : ( أحدهما ) أن جعلوا السورتين سورة واحدة واحتجوا عليه بوجوه : ( أحدها ) أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة ( وثانيها ) أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة ( وثالثها ) ما روى أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى والتين ، وفي الثانية ألم تر وإيلاف قريش معاً ، من غير فصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم : ( القول الثاني ) وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً وبين بعضها معنى بعض ، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة ، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عند من يقول به ، وقوله ( إنا أنزلناه ) متعلق بما قبله من ذكر القرآن ، وأما قوله إن أياً لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما ، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين .

﴿ البحث الثاني ﴾ فيما يتعلق بهذا القول يبين أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً لإيلاف قريش ؟ فنقول لا شك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى ( بواد غير ذي زرع ) إلى قوله ( فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات ) فكان أشرف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الاطعمة والثياب ، وهم إنما كانوا يرتحون في أسفارهم ، لأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمة وولاية الكعبة حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة ، لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرم ازداد وقع أهل مكة في القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلهذا قال الله تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ) ( لإيلاف قريش ... رحلة (١) الشتاء والصيف ) . ( والوجه الثاني ) فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى في آخر هذه السورة ( فليعبدوا رب

(١) في الأصل : رحلتى الشتاء ولعلها قراءة ولكن قراءة المشهورة رحلة بالافراد لا بالثنية . وهو مفرد مضاف فيم الواحد والاثنين ،

هذا البيت الذي) إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفمكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة .

(القول الثاني) وهو أن اللام في (إيلاف) متعلقة بقوله (فليعبدوا) وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلاف قريش . أى ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعتراًفاً بها ، فإن قيل فلم دخلت الفاء في قوله (فليعبدوا) ؟ قلنا لما في الكلام من معنى الشرط ، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى ، فكأنه قيل إن لم يعبدوه لسأرت نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة .

(القول الثالث) أن تكون هذه اللام غير متعلقة ، لا بما قبلها ولا بما بعدها ، قال الزجاج : قال قوم هذه اللام لام التعجب ، كأن المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وجهلاً وانفاساً في عبادة الأوثان ، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معاشهم ، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه ، ونظيره في اللغة قولك لزيد وما صنعنا به . ولزيد وكرامتنا إياه . وهذا اختيار الكسائي والأخفش والفراء .

(المسألة الثانية) ذكروا في الإيلاف ثلاثة أوجه (أحدها) أن الإيلاف هو الإلّاف قال علماء اللغة ألفت الشيء ، وألفته إلّافاً وإلّافاً بمعنى واحد . أى لزمته فيسكون المعنى لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر : لإلف قريش . وقرأ الآخرون لإلاف قريش ، وقرأ عكرمة ليلاف قريش (وثانها) أن يكون هذا من قولك لزمتم موضع كذا وألزمته الله ، كذا تقول ألفت كذا ، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف ألف بنفسه إلّافاً وإلّافاً ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله وهو كقوله (ولكن الله ألفت بينهم) وقال (وألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وقد تكون المسرة سبباً للوئاسة والانفاق ، كما وقعت عند انضمام أصحاب الفيل لقريش ، فيسكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول ، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتهم (وثالثها) أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابي . فيسكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل ، والمعنى لتجهيز قريش رحلتها حتى تتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر ليلاف بغير همز فحذف همزة الإفعال حذفاً كلياً وهو كمنهجه في يستهزئون وقد مر تقريره .

(المسألة الثالثة) التكرير في قوله (لإيلاف قريش إيلافهم) هو أنه أطلق الإيلاف أولاً ثم جعل المقيد بدلاً لذلك المطلق تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً للعظيم المنه فيه ، والأقرب أن يكون قوله (لإيلاف قريش) عاماً يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم ، فيدخل فيه مقامهم

## رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢٥﴾

وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم كما في قوله (وجبريل وميكال) وفائدة ترك أو العطف التنبه على أنه كل النعمة ، تقول العرب : أفنت كذا أي لزمته ، والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئاً لزمه ، ومنه (أزهمهم كلمة التقوى) كما أن الإلجاء ضربان (أحدهما) لدفع الضرر كالهرب من السبع (والثاني) لطلب الفع العظيم ، كمن يجد مالا عظيماً ولا مانع من أخذه لا عقلاً ولا شرعاً ولا حساً فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ ، وكذا الدواعي التي تكون دون الإلجاء ، مرة تكون لدفع الضرر وأخرى لجلب النفع ، وهو المراد في قوله (إيلافهم)

﴿المسألة الرابعة﴾ اتفقوا على أن قريشاً ولد النضر بن كنانة ، قال عليه الصلاة والسلام «إنا بنى النضر بن كنانة لانفقوا أمناً ولا ننتقى من أيننا» وذكروا في سبب هذه التسمية وجوها (أحدها) أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعيث بالسفن ، ولا تطلق إلا بالنار وعن معاوية أنه سأل ابن عباس : بم سميت قريش ؟ قال بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، تملو ولا تعلى ، وأنشد :

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً

والتصغير للعظيم ، ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تلي أمر الأمة ، فإن الأئمة من قريش (وثانها) أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضرهم في البلاد (وثالثها) قال الليث كانوا متفرقين في غير الحرم ، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوا ماسكناً ، فسموا قريشاً لأن القرش هو التجمع ، يقال قرش القوم إذا اجتمعوا ، ولذلك سمي قصي بجمعاً ، قال الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى بجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

(ورابها) أنهم كانوا يسدون خلة محايج الحاج ، فسموا بذلك قريشاً ، لأن القرش التفتيش

قال ابن حرة :

أيها الشامات المقرش عنا عند عمرو وهل لذلك بقاء

قوله تعالى ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ فيه مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ قال الليث الرحلة اسم الارتحال من القوم للسير ، وفي المراد من هذه

الرحلة قولان (الأول) وهو المشهور ، قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن

لأن اليمن أدهأ وبالصيف إلى الشام ، وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب في ذلك هو أن قريشاً

إذا أصاب واحداً منهم منحة خرج هو وعياله إلى موضع وضربروا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ،

## فليعبدوا رب هذا البيت ﴿٣﴾

إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والجماعة فدخل أسد على أمه يبيكي فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فهاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيباً في قريش ، فقال إنكم أجذبتم جدباً تقولون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فأريج الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاه الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، قال الشاعر فيهم :

الحالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب القيل ما أرادوا ، لترك أهل الأقطار تعظيمهم وأيضاً لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور في قوله ( وقطعناهم في الأرض أمتاً ) واجتماع القبيلة الواحدة في مكان واحد أدخل في النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى ، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والألفة ، ومنه قوله تعالى ( ولا جدال في الحج ) والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة ( القول الثاني ) أن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً وموسم منافع مكة يكون بهما ، ولو كان يتم لأصحاب القيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة .

( المسألة الثانية ) نصب الرحلة بإبلا فمهم مفعولاً به ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس كقوله : كلوا في بعض بطنكم ، وقيل معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وقرى رحلة بضم الراء وهى الجمعة .

قوله تعالى ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين ( أحدهما ) دفع الضرر ( والثاني ) جلب النفع والاول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع [فانه] غير واجب ، فلهاذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر في سورة القيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية ، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال ( فليعبدوا ) وههنا مسائل :

( المسألة الأولى ) ذكرنا أن العبادة هى التذلل والخضوع للعبود على غاية ما يكون ، ثم قال بعضهم : أراد فليؤحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذى حفظ البيت دون الأوثان ، ولأن التوحيد مفتاح العبادات ، ومنهم من قال المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح

## الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات، والأولى حملة على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرج به الدليل، وفي الآية وجه آخر، وهو أن يكون معنى فليعبدوا أى فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف، ولعل تخصيص لفظ الرب تقرر لما قالوه لأبرهة إن للبيت رباً سيحفظه، ولم يعملوا في ذلك على الأصنام فلزمهم لإقراهم أن لا يعبدوا سواه، كأنه يقول لما عولتم في الحفظ على فاصرفوا العبادة والخدمة إلى .

(المسألة الثانية) الإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول يا عبادى وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول وإلهكم كذا في البيت [تارة] يضيف نفسه إلى البيت. وهو قوله (فليعبدوا رب هذا البيت) وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول (طهرايقي).

ثم قال تعالى ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ وفي هذا الإطعام وجوه (أحدها) أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم في رحلتهم كان ذلك سبب إطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع (وثانيها) قال مقاتل شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام في الشتاء والصيف لطلب الرزق، ففدق الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام في السفن إلى مكة فخملوه، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالإبل والحمر، ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك، فكفاهم الله، وؤونة الرحلتين (وثالثها) قال الكلبي هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم دعا عليهم، فقال «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا يا محمد ادع الله فإننا مؤمنون. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط، فذاك قوله (أطعمهم من جوع) ثم في الآية سؤالات:

(السؤال الأول) العبادات إنما وجبت، لأنه تعالى أعطى أصول النعم، والإطعام ليس من أصول النعم، فلهذا علل وجوب العبادات بالإطعام؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم، ثم أمرهم بالعبادة، فكان السائل يقول: لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذبح عن النفس، فلو اشتغلنا بالعبادة فن ذا الذى يطعمنا، فقال: الذى أطعمهم من جوع، قبل أن يعبدوه. ألا يطعمهم إذا عبده! (وثانيها) أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه، ثم إنه يطعمهم مع ذلك، فكانه تعالى يقول: إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحى من إحسانى إليك بعد إسائك (وثالثها) إنما ذكر الإنعام، لأن الهيممة تطيع من يملفها، فكانه تعالى يقول لست دون الهيممة.

(السؤال الثاني) أليس أنه جعل الدنيا ملكاً لنا بقوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً)



## وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ «٤»

فكيف تحسن المنة علينا بأن أعطانا ما كنا؟ (الجواب) انظر في الأشياء التي لا بد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتمياً ، وفي الأشياء التي لا بد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكل ، فإنك تعلم أنه لا بد من الأفلاك والكواكب ، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام ، ولا بد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام ، وحينئذ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة .

(السؤال الثالث) المنة بالإطعام لا تليق بمن له شيء من الكرم ، فكيف بأكرم الأكرمين؟ (الجواب) ليس الغرض منه المنة ، بل الإرشاد إلى الأصلاح ، لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة ، بل تقوية البنية على أداء الطاعات ، فكان المقصود من الأمر بالعبادة ذلك .

(السؤال الرابع) ما الفائدة في قوله ( من جوع )؟ (الجواب) فيه فوائد (أحدها) التنبيه على أن أمر الجوع شديد ، ومنه قوله تعالى ( وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قطفوا ) وقوله ﷺ « من أصبح آمناً في سربه ، الحديث (وثانيها) تذكيرهم بالحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة ( وثالثها ) التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوع ، لأنه لم يقل وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع ، أما الإشباع فإنه يورث البطنة .

أما قوله تعالى ( وآمنهم من خوف ) ففي تفسيره وجوه (أحدها) أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم ، وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة في السفر والحضر ، وهذا معنى قوله ( أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ) ( وثانيها ) أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل ( وثالثها ) قال الضحاك والربيع : وآمنهم من خوف الجذام ، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام ( ورابعها ) آمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم (١) ( وخامسها ) آمنهم بالإسلام ، فقد كانوا في الكفر يتفكرون ، فيعلون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به ( وسادسها ) أطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحي ، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى ، كأنه تعالى يقول : يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم ، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب ، ثم أنزلت الوحي على نبيكم ، وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون

(١) أقول والأسف على الفؤاد ، ويقض الجوارح ويمزق الأكباد : إن هذا الوجه الرابع لا محل لذكره الآن . فقد أصبحت الخلافة الإسلامية أئماً ببدعين ، وانقرض ظلها ، وزوى فلم يعد للسليخ خليفة من قریش ولا من غيرهم ، والأمل معقود في الجامعة العربية أن تترقى إلى رد هذا الحق المسلوب . وإعادة هذا السلطان الضائع الذي قضى عليه الاستعمار والمستعمرون ، ليصبح التفكك والاضطراب ونم الفوضى بين المسلمين والعباد بالله ( عبد الله الصاري )

أهل العلم والقرآن ، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ، ثم إطعام الطعام الذى يكون غذا الجسد بوجوب الشكر ، فإطعام الطعام الذى هو غذا الروح ، ألا يكون موجبا للشكر وفى الآية سوالات :

( السؤال الأول ) لم لم يقل عن جوع وعن خوف ؟ (فلنا) لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيداً عنهم ، وهذا يقتضى أن يكون ذلك التباعد مسبوفاً بمقاساة الجوع زماناً ، ثم يصرفه عنه ، ومن لا تقتضى ذلك ، بل معناه أنهم عند ما يجوعون يطعمون ، وحين ما يخافون يؤمنون .

( السؤال الثانى ) لم قال من جوع ، من خوف على سبيل التنكير ؟ ( الجواب ) المراد من التنكير التعظيم . أما الجوع فلما روينا : أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة . وأما الخوف ، فهو الخوف الشديد الحاصل من أسحاب القيل ، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير ، ويكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم فى ذلك الجوع القليل والخوف القليل ، فكيف يجوز فى كرمه لو عبده أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه ( أطعمهم من جوع ) دون جوع ( وآمنهم من خوف ) دون خوف ، ليكون الجوع الثانى ، والخوف الثانى مذكراً ما كانوا فيه أولاً من أنواع الجوع والخوف ، حتى يكونوا شاكرين من وجه ، وصابرين من وجه آخر ، فيستحقوا ثواب الخصالتين .

( السؤال الثالث ) أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أما فى الإطعام فهو قوله ( وارزق أهله ) وأما الأمان فهو قوله ( اجعل هذا البلد آمناً ) وإذا كان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين ؟ ( والجواب ) أن الله تعالى لما قال ( إني جاعلك للناس إماماً ) قال إبراهيم ( ومن ذريتي ) فقال الله تعالى ( لا ينال عهدى الظالمين ) فنادى إبراهيم بهذا الأدب ، حين قال ( رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ) قيده بقوله ( من آمن بالله ) فقال الله لا حاجة إلى هذا التقييد ، بل ومن كفر فأمتعه قليلا ، فكأنه تعالى قال : أما نعمة الأمان فهى دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقياً ، وأما نعمة الدنيا فهى تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح ، وإذا كان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع ، وأمانه من الخوف إنعاماً من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم ، فزال السؤال . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

( سورة أرايت )

( سبع آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ

( سورة أرايت ، سبع آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( أرايت الذي يكذب بالدين ) فيه مسائل :

( المسألة الأولى ) قرأ بعضهم أرايت بحذف الهمزة ، قال الزجاج : وهذا ليس بالاختيار ، لأن الهمزة إنما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى ، فأما أرايت فليس يصح عن العرب فيها ريت ، ولكن حرف الاستفهام لما كان في أول الكلام سهل إلغاء الهمزة ، ونظيره :

صاح هل ريت أو سمعت براع رد في الضرع ما قرى في العلاب

وقرأ ابن مسعود أرايتك بزيادة حرف الخطاب كقوله ( أرايتك هذا الذي كرمت علي ) .

( المسألة الثانية ) قوله ( أرايت ) معناه هل عرفت الذي يكذب بالجزء من هو ، فإن لم

تعرفه ( فهو الذي يدع اليتيم ) .

واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام . لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك أرايت فلاناً ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ؟ ثم قيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل بل خطاب لكل عاقل أي أرايت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض ، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا ، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني .

( المسألة الثالثة ) في الآية قولان ( أحدهما ) أنها مختصة بشخص معين ، وعلى هذا القول

ذكروا أشخاصاً ، فقال ابن جرير نزلت في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبوع ، فأتاه يتيماً فسأله لهما فقرعه بعصاه ، وقال مقاتل نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة ، والإتيان بالأفعال القبيحة ، وقال السدي نزلت في الوليد بن المغيرة ، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل ، وروى أنه كان وصياً ليتيم ، فجاء وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبا به فأيس الصبي . فقال له أكابر قريش قل لمحمد يشفع لك ، وكان

## فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٣٠﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣١﴾

غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتس منه ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المسال لليتيم فعيره قريش ، فقالوا صبوت ، فقال لا والله ما صبوت ، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربية خفت إن لم أجبه يطعنني في ، وروى عن ابن عباس أنها نزلت في مناقف جمع بين البخل والرمادة ( والقول الثاني ) أنه عام لسلك من كان مكذباً بيوم الدين ، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرغبة عن العقاب ، فإذا كان منكراً للقيامه لم يترك شيئاً من المشتبهات واللذات . فثبت أن إنكار القيامه كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي .

( المسألة الرابعة ) في تفسير الدين وجوه (أحدها) أن يكون المراد من يكذب بنفس الدين والإسلام إما لأنه كان منكراً للصانع ، أو لأنه كان منكراً للنبوة . أو لأنه كان منكراً للعباد أولئشي . من الشرائع ، فإن قيل كيف يمكن حمله على هذا الوجه ، ولا بد وأن يكون لكل أحد دين (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الدين المطلق في اصطلاح أهل الإسلام ، والقرآن هو الإسلام قال الله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) أما سائر المذاهب فلا تسمى ديناً إلا بضرب من التقييد كدين النصراني واليهود (وثانيها) أن يقال هذه المقالات الباطلة ليست بدين ، لأن الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب إنما هي خضوع للشهوة أو للشبهة ( وثالثها ) وهو قول أكثر المفسرين . أن المراد رأيت الذي يكذب بالحساب والجزاء ، قالوا وحمله على هذا الوجه أولى لأن من ينكر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مقرأ بالقيامه والبعث ، أما المقدم على كل قببح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامه .

ثم قال تعالى ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾

واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب بالدين وصفين (أحدهما) من باب الأفعال وهو قوله (فذلك الذي يدع اليتيم) (والثاني) من باب التروك وهو قوله (ولا يحض على طعام المسكين) والفاء في قوله فذلك للسببية أي لما كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدع اليتيم ، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عن من يكذب بالدين ليس إلا ذلك ، لانا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل ، كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثالا واحداً تنبيهاً بذكره على سائر القبائح ، أو لأجل أن هاتين الخصلتين ، كما هما قبيحان منكran بحسب الشرع فهما أيضاً مستنكران بحسب المروءة والإنسانية ، أما قوله ( يدع اليتيم ) فالمنع أنه يدفعه بعنف وجفوة كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) وحاصل الأمر في دع اليتيم أمور (أحدها) دفعه

## فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾

عن حقه وماله بالظلم ( والثاني ) ترك المواسة معه ، وإن لم تكن المواسة واجبة . وقد يذم المرء بترك النوافل لاسيما إذا أسند إلى النفاق وعدم الدين ( والثالث ) يزجره ويضربه ويستخف به ، وقرى . يدع أى يتركه ، ولا يدعو بدعوة ، أى يدعو جميع الأجانب ويترك اليتيم مع أنه عليه الصلاة والسلام قال « ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم » وقرى . يدعو اليتيم أى يدعو رياء ثم لا يطعمه وإنما يدعو استخداماً أو قهراً أو استمطالة .

واعلم أن فى قوله ( يدع ) بالتشديد فائدة ، وهى أن يدع بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه ، ومثله قوله تعالى ( الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ) سمى ذنب المؤمن لمماً لأنه كالطيف والخيال يطراً ولا يبقى ، لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم ، إنما المكذب هو الذى يصير على الذنب .

أما قوله ( ولا يحض على طعام المسكين ) ففيه وجهان ( أحدهما ) أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين ، فكأنه منع المسكين مما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه ( والثانى ) لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يعتقد فى ذلك الفعل ثواباً ، والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامه بالإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف ، يعنى أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك ، فوضع الذنب هو التكذيب بالقيامه ، وههنا سؤالان :

( السؤال الأول ) أليس قد لا يحض المرء فى كثير من الأحوال ولا يكون آمماً ؟ ( الجواب ) لأن غيره ينوب منابه أو لأنه لا يقبل قوله أو لمفسدة أخرى يتوقعها ، أما ههنا فذكر أنه لا يفعل ذلك [إلا] لما أنه مكذب بالدين .

( السؤال الثانى ) لم لم يقل ولا يطعم المسكين ؟ ( الجواب ) إذا منع اليتيم حقه فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ، بل وهو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية فى الخسة ، فلأن يكون نبلا بمال نفسه أولى ، وضده فى مدح المؤمنين ( وتواصوا بالمرحمة ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ) .

ثم قال تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ وفيه مسائل :

( المسألة الأولى ) فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه ( أحدها ) أنه لما كان إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام دليلاً على النفاق فالصلاة لا مع الخشوع والخضوع أولى أن تدل على النفاق ، لأن الإيذاء والمنع من النفع مع الخلوقة ، أما الصلاة فإنها خدمة للخلاق ، ( وثانيها ) كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلاً قال : أليس إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ فقال له الصلاة كيف تنهى عن هذا الفعل المنكر وهى مصنوعة من عين الرياء

والسهو ( وثالثها ) كأنه يقول إقدامه على إبداء اليتيم وتركه للحض ، تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله ، وسهوه في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله ، فلما وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقارته ، فلهذا قال ( فويل ) وأعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله ( ويل للطففين . فويل لهم بما كتبت أيديهم ، ويل لكل همزة لمزة ) وروى أن كل أحد ينوح في النار بحسب جريرته ، فقامت يقول ويلى من حب الشرف ، وآخر يقول ويلى من الحمية الجاهلية ، وآخر يقول ويلى من صلاح ، فلهذا يستحب عند سماع مثل الآية ، أن يقول المرء ويلى إن لم يغفر لي .

( المسألة الثانية ) الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور ( أحدها ) السهو عن الصلاة ( وثانيها ) فعل المراءة ( وثالثها ) منع الماعون ، وكل ذلك من باب الذنوب ، ولا يصير المرء به منافقاً فلم يحكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال ؟ ولأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون فيه وجوهاً ( أحدها ) أن قوله ( فويل للمصلين ) أى فويل للمصلين من المناققين الذين يأتون بهذه الأفعال . وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع ، وهو يدل على صحة قول الشافعي : إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وهذا الجواب هو المعتمد ( وثانيها ) ما رواه عطاء عن ابن عباس أنه لو قال الله في صلاتهم ساهون ، لكان هذا الوعيد في المؤمنين لكنه قال ( عن صلاتهم ساهون ) والساهي عن الصلاة هو الذي لا يتذكرها ويكون فارغاً عنها ، وهذا القول ضعيف لأن السهو عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسراً بترك الصلاة ، لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله ( فويل للمصلين ) وأيضاً فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقاً ولا كفراً فيعود الإشكال ، ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مضلين نظراً إلى الصورة وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظراً إلى المعنى كما قال ( وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ) ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة وهذا لا يصدر إلا عن المناقق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة ، أما المسلم الذي يعتقد فيها فائدة عينية يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزاء الصلاة ، بل قد يحصل له السهو في الصلاة بمعنى أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة ، فثبت أن السهو في الصلاة من أفعال المؤمن والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر ( وثالثها ) أن يكون معنى ( ساهون ) أى لا يتهدون أوقات صلواتهم ولا شرائطها . ومعناه أنه لا يبالي سواء صلى أو لم يصل ، وهو قول سعد بن أبي وقاص وهـ سروق والحسن ومقاتل .

( المسألة الثالثة ) اختلفوا في سهو الرسول عليه الصلاة والسلام في صلاته ، فقال كثير من العلماء إنه عليه الصلاة والسلام ماسها ، لكن الله تعالى أذن له في ذلك الفعل حتى يفعل ما يفعله

## الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

السامعي فيصير ذلك بياناً لذلك الشرع بالفعل والبيان بالفعل أقوى، ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على أقسام (أحدها) سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنن والنوافل (والثاني) ما يكون في الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات (والثالث) الترك لا إلى قضاء والإخراج عن الوقت، ومن ذلك صلاة المنافق وهي شر من ترك الصلاة لأنه يستهزئ بالدين بتلك الصلاة.

أما قوله تعالى ﴿الذين هم يراءون﴾ فاعلم أن الفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائي المظهر مالم يس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين، أو تقول المنافق لا يصل سرأ والمرائي تكون صلواته عند الناس أحسن. واعلم أنه يجب إظهار الفرائض عن الصلاة والزكاة لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق لللعن فيجب نفي التهمة بالإظهار. إنما الإخفاء في النوافل، إلا إذا أظهر النوافل ليقنتدى به، وعن بعضهم أنه رأى في المسجد رجلاً يسجد للشكر وأطأها. فقال ما أحسن هذا لو كان في بيتك! لكن مع هذا قالوا لا يترك النوافل حياء ولا يأتي بها رياء، وقلما يتيسر اجتناب الرياء، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «الرياء أخفى من ديب الغملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود» فإن قيل مامعنى المراءة؟ قلنا هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس عمله، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به.

واعلم أن قوله (عن صلواتهم ساهون) يفيد أمرين: إخراجها عن الوقت، وكون الإنسان غافلاً فيها، وقوله (الذين هم يراءون) يفيد المراءة، فظهر أن الصلاة يجب أن تكون خالية عن هذه الأحوال الثلاثة.

ثم لما شرح أمر الصلاة أعقبه بذكر الصلوات فقال ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وفيه أقوال (الأول) وهو قول أبي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك هو الزكاة، وفي حديث أبي «من قرأ سورة (أرأيت) غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً» وذلك يوهم أن (الماعون) هو الزكاة، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة (والقول الثاني) وهو قول أكثر المفسرين، أن (الماعون) اسم لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغنى، وبسبب مائه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة، كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدر، ويدخل فيه الملح والماء والنار. فإنه روى «ثلاثة لا يحل منعها، الماء والنار والملح» ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم، وأصحاب هذا القول قالوا: الماعون فاعول من الماعن. وهو الشيء.

القليل ومنه ماله سعته ولا معنة ، أى كثير و [لا] قليل ، وسميت الزكاة ماعوناً ، لأنه يؤخذ من المال ربع العشر ، فهو قليل من كثير ، ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعوناً ، وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة ، فإن البخل بها يكون في نهاية الدنائة والراككة ، والمنافقون كانوا كذلك ، لقوله تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) وقال (مناع للخير معتد أثيم) قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران ، فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على الواجب ( والقول الثالث ) قال الفراء سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء ، وأنشدني فيه :

يمج بعيره الماعون مجاً

ولعله خصه بذلك لأنه أعز مفقود وأرخص موجود ، وأول شيء يسأله أهل النار الماء . كما قال ( أن أفيضوا علينا من الماء ) وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء ، كما قال ( وسقاهم ربهم ) ( القول الرابع ) ( الماعون ) يحسن الانقياد ، يقال رض بعيرك حتى يعطيك الماعون ، أى حتى يعطيك الطاعة .

واعلم أن الأولى أن يحمل على كل طاعة يحف فعملها لأنه أكثر فائدة ، ثم قال المحققون في الملائمة بين قوله ( يراون ) وبين قوله ( ويمنعون الماعون ) كأنه تعالى يقول الصلاة لى والماعون للخلق ، فما يجب جعله لى يعرضونه على الخلق ، وما هو حق الخلق يسترونه عنهم فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس ( فإن قيل ) لم لم يذكر الله اسم الكافر بعينه ؟ فإن قلت للستر عليه ، قلت لم لم يستر على آدم بل قال ( وعصى آدم ربه ) ؟ ( والجواب ) أنه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقروناً بالتوبة ليكون لطفاً لأولاده ، أنه أخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطعمون في الدخول مع الكبيرة ، وأيضاً فإن وصف تلك الزلة رفعة له فإنه رجل لم يصدر عند إلا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة .

ولنختتم تفسير هذه السورة بالدعاء : إلهنا ، هذه السورة في ذكر المنافقين والسورة التي بعدها في صفة محمد ﷺ فنحن وإن لم نصل في الطاعة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أصحابه ، لم نصل في الأفعال القبيحة إلى هؤلاء المنافقين ، فاعف عنا بفضلك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .



( سورة الكوثر )  
( ثلاث آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾

( سورة الكوثر ثلاث آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ) .

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف : ( إحداهما ) أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمر أربعة : ( أولها ) البخل وهو المراد من قوله ( يدع القيم ، ولا يحض على طعام المسكين ) ( الثاني ) ترك الصلاة وهو المراد من قوله ( الذين هم عن صلاتهم ساهون ) ( وثالث ) الماراة في الصلاة هو المراد من قوله ( الذين هم يرامون ) ( والرابع ) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله ( ويمنعون الماعون ) فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر في مقابلة البخل قوله ( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ) أى إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَثِيرَ ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر في مقابلة ( الذين هم عن صلاتهم ساهون ) قوله ( فصل ) أى دم على الصلاة ، وذكر في مقابلة ( الذين هم يرامون ) قوله ( لربك ) أى أنت بالصلاة لرضا ربك ، لا المرارة الناس ، وذكر في مقابلة ( ويمنعون الماعون ) قوله ( وانحر ) وأراد به التصديق بلحم الأضاحي ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله ( إن شئتك هو الأبر ) أى المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خير . وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل .

( والوجه الثاني ) في لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات : ( أعلاها ) أن يكونوا مستغفرين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله ( وثانيها ) أن يكونوا مشغولين بالطاعات والعبادات البدنية ( وثالثها ) أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله ( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ) إشارة إلى المقام الأول

وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف . أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالاً من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله ( فصل لربك ) فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله ( وانحر ) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال ( إن شئتكم هو الأبر ) ومعناه أن النفس التي تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهي السعادات الروحانية والمعارف الربانية التي هي باقية أبدية . وانشرع الآن في التفسير قوله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) اعلم أن فيه فوائد :

( الفائدة الأولى ) أن هذه السورة كاللتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كاللتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة ( والضحى ) في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته ( أولها ) قوله ( ما ودعك ربك وما قلى ) ، ( وثانيها ) قوله ( والآخره خير لك من الأولى ) ( وثالثها ) ( ولسوف يعطيك ربك فترضى ) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله ( ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ) ثم ذكر في سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء . ( أولها ) ( ألم نشرح لك صدرك ) ( وثانيها ) ( ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ) ، ( وثالثها ) ( ورفعناك ذكرك ) .

ثم إنه تعالى شرفه في سورة ( التين ) بثلاثة أنواع من التشريف ( أولها ) أنه أقسم ببلده وهو قوله ( وهذا البلد الأمين ) ، ( وثانيها ) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله ( إلا الذين آمنوا ) . ( وثالثها ) ووصلهم إلى الثواب وهو قوله ( فلهم أجر غير ممنون ) ثم شرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات ( أولها ) ( اقرأ باسم ربك ) أى اقرأ القرآن على الخلق مستعيناً باسم ربك ( وثانيها ) أنه قهر خصمه بقوله ( فليدع ناديه سندع الزبانية ) ، ( ثالثها ) أنه خصه بالقربة التامة وهو ( واجسد واقرب ) .

وشرفه في سورة القدر ببلية القدر التى لها ثلاثة أنواع من الفضيلة ( أولها ) كونها ( خيراً من ألف شهر ) . ( وثانيها ) نزول ( الملائكة والروح فيها ) ( وثالثها ) كونها ( سلاماً حتى مطلع الفجر ) . وشرفه في سورة ( لم يكن ) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات ( أولها ) أنهم ( خير البرية ) ، ( وثانيها ) أن ( جزاؤهم عند ربهم جنات ) ، ( وثالثها ) رضا الله عنهم ،

وشرفه في سورة إذا زالزلت بثلاث تشريفات : ( أولها ) قوله ( يومئذ تحدث أخبارها ) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية ( والثانى ) قوله ( يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعتهم فيحصل لهم الفرح والسورور ، ( ثالثها ) قوله ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ) ومعرفة الله لاشك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابهم ثم شرفه في سرورة والعاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف

تلك الخليل بصمغات ثلاث ( والعدايات ضجأ ، فالمروبات قدحا ، فالمغيرات صبحاً ) .  
ثم شرف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة ( أولها ) فن ثقلت موازينه ( وثانيها ) أنهم في  
عيشة راضية ( وثالثها ) أنهم يرون أعداءهم في نار حامية ،

ثم شرفه في سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة  
أوجه ( أولها ) أنهم يرون الجحيم ( وثانيها ) أنهم يرونها عين اليقين ( وثالثها ) أنهم يسألون عن النعيم  
ثم شرف أمته في سورة والعصر بأمور ثلاثة ( أولها ) الإيمان ( إلا الذين آمنوا ) ، ( وثانيها ) وعملوا  
الصالحات ( وثالثها ) إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ،  
ثم شرفه في سورة الهمزة بأن ذكر أن من همزه ولمزه ، فله ثلاثة أنواع من العذاب ( أولها ) أنه  
لا ينتفع بديناه البتة ، وهو قوله ( يحسب أن ماله أخلده كلاً ) ( وثانيها ) أنه ينبذ في الحطمة ، ( وثالثها )  
أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبيق له رجاء في الخروج ، وهو قوله ( إنها عليهم مؤصدة ) .  
ثم شرفه في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه ( أولها ) جعل كيدهم في تضليل  
( وثانيها ) أرسل عليهم طير أبابيل ( وثالثها ) جعلهم كعصف ما كول ،

ثم شرفه في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه ( أولها ) جعلهم مؤتلفين  
متوافقين لإيلاف قريش ( وثانيها ) أطعمهم من جوع ( وثالثها ) أنه آمنهم من خوف ،  
وشرفه في سورة المساعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة  
( أولها ) الدناءة واللؤم ، وهو قوله ( يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ) ( وثانيها ) ترك تعظيم  
الخالق ، وهو قوله ( عن صلاتهم ساهون الذين هم يراون ) ( وثالثها ) ترك انتفاع الخلق ، وهو  
قوله ( ويمنعون المساعون )

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها ( إنا أعطيناك  
الكوثر ) أى إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السورة المتقدمة التي كل واحدة منها  
أعظم من ملك الدنيا بخلافها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح  
لهم . أما عبادة الرب فيما بالنفس ، وهو قوله ( فصل لربك ) ولما بالمال ، وهو قوله ( وانحر ) وأما  
إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ، فهو قوله ( يا أيها الكافرون  
لا أعبد ما تعبدون ) فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل  
لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله ( يا أيها  
الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد  
من عسفهم على أرواحهم وأموالهم . وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم ، فلا  
جرم كان الطعن في مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره  
بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، وببطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له ،  
وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف

كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا . كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فدرت تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة ، هذه السورة فإن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه (أحدها) أن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أي الخير الكثير في الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ ، وهو كقوله (يا أيها النبي حسبك الله) وقوله (والله يعصمك من الناس) وقوله (إلا تنصروه فقد نصره الله) ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه . فإنه لا يخشى أحداً (وثانيها) أنه تعالى لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) ، وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف في كلام الله تعالى محال ، فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالإشارة له والوعد بأهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرم ، بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة (وثالثها) أنه عليه السلام لما كفر وأزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فتعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطولك الزوجة زوجك أكرم نساتنا ، وإن كان مطولك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا . فقال الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) أي لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر بما لهم ومرعاتهم (ورابعها) أن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله (وكلم الله موسى تكليماً) بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالترام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافه في غير هذا المعنى ، بل يفيد قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة (قل يا أيها الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمرى . فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشباع ، أن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجا ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن . وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبة مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة . أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار . وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرأة التي تنتقش فيها صور الموجودات . وقد ثبت في العلوم العقلية أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع . ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريقة التي هي أشرف الطريقتين ، فبدأ بذكر صفات

الله وشرح جلاله ، وهو سورة (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة (قل أعوذ برب العلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية . وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة في كتابه الكريم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ في قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) هي أن كلمة ( إنا ) تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما (الأول) فقد دل الدليل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم لإرسالك ، فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال موسى : رب اجعلني من أمة أحمد . وهو المراد من قوله (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) وبشرك المسيح في قوله (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) .

وأما (الثاني) وهو أن يكون ذلك محمولاً على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب في قوله تعالى ( إنا أعطيناك ) ( والهبة هي الشيء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة . ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيألها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، وباله من تشريف ما أعلاه .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدي العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاعحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيماً ، لا لأن لذة الهدية في نفسها ، بل لأن صدورها من المهدي العظيم يوجب كونها عظيمة ، فهنا الكوثر وإن كان في نفسه في غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدور من ملك الخلاق يزداد عظمة وكالا .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أنه لما قال ( أعطيناك ) قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبي حنيفة أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجوز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوي ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوي فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فهنا لما قال ( إنا أعطيناك الكوثر ) طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه بنى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه ، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفى الشبهة

ومن ههنا تعرف الفخامة في قوله (فإنها لا تعمي الأبصار) فإنه أكثر فخامة مما لو قال فإن الأبصار لا تعمي ، وما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له : أنا أعطيك ، أنا أكرمك ، أنا أقوم بأمرك . وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيماً . فلما تقع المساعدة به فعظمه يورث الشك في الوفاء به . فإذا أسند إلى المتكفل العظيم ، فحينئذ يزول ذلك الشك ، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شيء عظيم ، فلما تقع المساعدة به . فلما قدم المبتدأ ، وهو قوله (إنا) صار ذلك الإسناد مزيلاً لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة .

(الفائدة السادسة) أنه تعالى صدر الجملة بحرف التأكيدي الجارى مجرى القسم ، وكلام الصادق مصون عن الخلف . فكيف إذا بالغ في التأكيدي .

(الفائدة السابعة) قال (أعطيناك) ولم يقل سنعطيك لأن قوله (أعطيناك) يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلًا في الماضي ، وهذا فيه أنواع من الفوائد (إحداها) أن من كان في الزمان الماضي أبداً عزيزاً مرعى الجانب مقضى الحاجة أشرف من سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » (وثانيها) أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسماعيل والإشقاء والإغناء والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلًا في الأزل (وثالثها) كأنه يقول إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية (ورابعها) كأنه تعالى يقول نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لانعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة ، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والاحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام « قبل من قبل لالعة ، ورد من رد لالعة » .

(الفائدة الثامنة) قال (أعطيناك) ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشمر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال (أعطيناك) علم أن تلك العطية غير معللة بعله أصلاً بل هي محض الاختيار والمشية ، كما قال (نحن قسمنا ، الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) .

(الفائدة التاسعة) قال أولاً (إنا أعطيناك) ثم قال ثانياً (فصل لربك وانحر) وهذا يدل على أن إعطائه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعتنا ، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا ، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق ، ولهذا نقل عن الواسطي أنه قال لأعبد رباً يرضيه طاعتي ويسخطه معصيتي . ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتي ومعصيتي محدثتان والمحدث لا أثر له في القديم ، بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لا يزال ، وكذا القول في السخط والمعصية .

(الفائدة العاشرة) قال (أعطيناك الكوثر) ولم يقل آتيناك الكوثر ، والسبب فيه أمران

(الأول) أن الإبتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلاً ، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه بقوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة ، محض التفضل منا إليك وليس منه شئ على سبيل الاستحقاق والوجوب ، وفيه بشارة من وجهين (أحدهما) أن الكريم إذا شرع فى الآية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله . وكرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله ( أعطيناك ) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً . فإن قيل : أليس قال ( آتيناك سبعمائة من المائى ) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن الإعطاء يوجب التملك ، والسبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان ( هب لى ملكاً ) فقال ( هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك ) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيفاً له ، أما الإبتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال فى القرآن ( آتيناك ) فإنه لا يجوز لئنى أن يكتم شيئاً منه ( الثانى ) أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة فى النهى ، فهى شركة فى الأعيان وهى عيب ( الوجه الثانى ) فى بيان أن الإعطاء أبقى بهذا المقام من الإبتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، قال الله تعالى ( وأعطى قليلاً وكثيراً ) أما الإبتاء ، فلا يستعمل إلا فى الشئ العظيم . قال الله تعالى ( وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلاً ) والآتى السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (أحدها) يعنى هذا الحوض كالشئ القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخرك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هى أعظم من هذا المذكور ( وثانيها ) أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثرأ ، فكيف سائر النعيم ( وثالثها ) أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إبتاء ( ورابعها ) كأنه تعالى يقول هذا الذى أعطيتك ، وإن كان كوثرأ لكننه فى حقه إعطاء لا إبتاء لأنه دون حقه ، وفى العادة أن المهدي إذا كان عظيماً فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال إنها حقيرة أى هى حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدي له فكذا ههنا ( وخامسها ) أن نقول إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه دنيا ، والقرآن إبتاء لأنه دين ( وسادسها ) كأنه يقول : جميع ما نلت منى عطية وإن كانت كوثرأ إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظرفراً وخصمك أبتى ، فإنما أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر ، أما الذكر الباقى والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدم بطاعة تحصل منك ( فصل لربك وانحر ) أى فاعبدلى وسل الظفر بعد العبادة فإنى أوجبت على كرمى أن يعد كل فريضة دعة مستجابة ، كذا روى فى الحديث المسند ، فحينئذ أستجيب فيصير



خصلتك أبت وهو الإتياء ، فهذا ما يخظر بالبال في تفسير قوله تعالى ( إنا أعطيناك ) أما الكوثر فهو في اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط في الكثرة ، قيل لأعرابية رجعت إليها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، أى بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر ، قال السكيت : وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثرًا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر في اللغة ، واختلف المفسرون فيه على وجوه ( الأول ) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر في الجنة ، روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رأيت نهرًا في الجنة حافته قباب اللؤلؤ المجوف فضربت يدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت ما هذا ؟ قيل الكوثر الذى أعطاك الله » وفي رواية أنس « أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضرها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان » ولعله إنما سمي ذلك النهر كوثرًا إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخير أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روى أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، أو لكثرة الذين يشربون منها ، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال عليه السلام « إنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير » ( القول الثاني ) أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول . والقول الأول أن يقال لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع ( والقول الثالث ) الكوثر أولاده قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت ردًا على من عابه عليه السلام بدمم الأولاد ، فالمنعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت . ثم العالم تمتلئ منهم ، ولم يبق من بنى أمية في الدنيا أحد يعبا به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم ( القول الرابع ) الكوثر علماء أمته وهو لعمرى الخير الكثير لأهمم كانوا نبيا . بنى إسرائيل ، وهم يحبون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه ، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين ( أحدهما ) أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبي ويتبعه أمته فرمما يجيء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فرمما يزيد عدد متبعي بعض العلماء على عدد متبعي ألف من الأنبياء . ( الوجه الثاني ) أنهم كانوا مصيدين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحي ، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيدين مع كد الاستنباط والاجتهاد ، أو على قول البعض إن كان بعضهم مخطئًا لكن المخطئ يكون أيضاً مأجوراً ( القول الخامس ) الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية



ولهذا قال ( من يطعم الرسول فقد أطاع الله ) وهو شرط الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لا بد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته . ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخيرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين . وهو الذي يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى . ولنذكر هنا قليلاً منها ، فنقول :

إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى ( فتلقى آدم من ربه كلمات ) وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال ( وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ) وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال ( صحف إبراهيم وموسى ) أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال ( ومهيماً عليه ) وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنشورة فقال ( أنبتوني بأسماء هؤلاء ) ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم ( قل لئن اجتمعت الإنس والجن ) وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل في محمد ﷺ ما هو أعظم منه . روى أن النبي عليه الصلاة والسلام « كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فقال لئن كنت صادراً فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب الآخر فليسبح ولا يفرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذي أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدي الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبي ﷺ يكفيك هذا ؟ قال حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبي عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل في حق محمد أعظم من ذلك ، عن محمد بن حاطب قال « كنت طفلاً فانصب القدر على من النار . فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى الرسول ﷺ وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله ﷺ على جلدي ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب البأس ، رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بي » وأكرم موسى ففلق له البحر في الأرض ، وأكرم محمداً ففلق له القمر في السماء . ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، ونجر له الماء من الحجر ، ونجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظله . وأكرم موسى باليد البيضاء ، وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم ، الذي وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه ، وكان داود إذا أمسك الحديدلان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص . روى

أن امرأة معاذ بن عفراء أتهت وكانت برصاء . وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسبح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص . وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس في بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عنه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة ، وفعل ذلك أيضاً للرسول حين نام ورأسه في حجر علي فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى ، وردها مرة أخرى لعلي فصلى المصطفى وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك في حق محمد ، روى أن طيراً فجح بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال أيكم فجح هذه بولدها ؟ فقال رجل أنا ، فقال اردد إليها ولدها ، وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيره غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في ساعة ، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجيء به ، وقد شكوا إليه من ناقة أنها أغليت ، وأنهم لا يقدرون عليها فذهب إليها ، فلما رأته خضعت له ، وأرسل معاذاً إلى بعض النواحي ، فلما وصل إلى المغازة . فإذا أسد جائم فهاله ذلك ولم يستجر [ي] أن يرجع ، فتقدم وقال لفي رسول رسول الله فتبصص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابي بالضب ، وقال لا تؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، فتكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجه من الكفالة وحتت الحنطة لفرافه ، وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار ، قالت كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه ! وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد ، فلها فادمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثرأ ، فقال ( إنا أعطيناك الكوثر ) (القول السادس) الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، ( ولو أن مافي الأرض من شجرة أفلام ) ( قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى ) (القول السابع) الكوثر الإسلام ، وهو لعمرى الخير الكثير . فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة ، وبفوائده يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والإسلام عبارة عن المعرفة . أو ما لا بد فيه من المعرفة ، قال ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ) وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر ، فإن قيل لم خصه بالإسلام ، مع أن نعمته عمت الكل ؟ قلنا لأن الإسلام وصل منه إلى غيره . فكان عليه السلام كالأصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الاتباع والأشياء ، ولا شك أن له من الاتباع ما لا يحصيهم إلا الله ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال «أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشري عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة ، فينبأ أكرن مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فيبتدروهم بأبصارنا ما منا من نبي إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الرضوء . فأقول أمتى ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يظهر لنا مثلاً ما ظهر أولاً

فتبتدهم بأبصارنا ما من نبي إلا ويرجو أن تسكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الرضوء فأقول أمي ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فتبتدهم ، وذكر كما ذكر في المرة الأولى والثانية ، ثم قال ( ليدخلن ) ثلاث فرق من أمي الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس ، « ولقد قال عليه الصلاة والسلام » تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ، ولو بالسقط « وإذا كان يباهي بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجرم الغفير ، فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال ( إنا أعطيناك الكوثر ) ( القول التاسع ) ( الكوثر ) الفضائل الكثيرة التي فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثيراً الخير ، وفي صحاح اللغة ( الكوثر ) السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول ( إنا أعطيناك الكوثر ) ( القول العاشر ) الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره في قوله ( ورفعنا لك ذكرك ) ( القول الحادي عشر ) أنه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه ( أحدها ) أن العلم هو الخير الكثير قال ( وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ) وأمره بطلب العلم ، فقال ( قل رب زدني علماً ) وسمى الحكمة خيراً كثيراً ، فقال ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ) ( وثانيتها ) أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة داخلة في العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم ( وثالثها ) أنه لما قال ( أعطيناك الكوثر ) قال عقبيه ( فصل لربك وانحر ) والشئ الذي يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال في سورة النحل ( أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ) وقال في طه ( إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ) ( فقدم في السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب في قوله ( فصل ) تدل على أن إعطاء الكوثر كالواجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الواجب للعبادة ليس إلا العلم ، ( القول الثاني عشر ) أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا الانتفاع بالخلق بالحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعافل ، فأما الانتفاع بالعلم فهو مختص بالعقل ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفي مهمهم ، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه ، قال « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » ( القول الثالث عشر ) الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة ، فقال في الدنيا ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) وقال في الآخرة « شفاعتي لأهل الكبائر من أمي » وعن أبي هريرة قال عليه السلام « إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » ( القول الرابع عشر ) أن المراد من الكوثر هو هذه السورة ، قال وذلك لأنها مع

## فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢٠﴾

قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه ( أولها ) أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع ، أو على كثرة الأولاد ، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب ، وقد وقع مطابقاً له ، فكان معجزاً ( وثانيها ) أنه قال ( فصل لربك وانحر ) وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر ، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب ( وثالثها ) قوله ( إن شئت لك هو الأبتى ) وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً ( ورابعها ) أنهم معجزوا عن معارضتها مع صغرها ، ثبت أن وجه الإعجاز في كمال القرآن ، إنما تقر بها لأنهم لما معجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقررت التوحيد ومعرفة الصانع . وتقرر الدين والاسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بآيات جميع المقاصد فكانت صغيرة في الصرورة كبيرة في المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهي أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهي بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة ( القول الخامس عشر ) أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة . فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي فوجب حملها على الكل . وروى أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) يقتضى أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع إلا أن الحقيقة ما قدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه في حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضعة له يصح أن يقال إنه أعطاه تلك الضيقة مع أن الصبي في تلك الحال لا يكون أهلاً للتصرف والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( فصل ) وجوه ( الأول ) أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن قيل اللاتق عند النعمة الشكر ، فلم قال فصل ولم يقل فاشكر ؟ ( الجواب ) من وجوه ( الأول )

أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان (أحدها) يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره (والثاني) باللسان وهو أن يمدحه (والثالث) بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هذه المعاني ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن ( وثانيها ) أنه لو قال فاشكر لسكان ذلك يوم أنه ما كان شاكرأ ولكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكرأ لنعمه ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحى ، قال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) ( الثالث ) أنه في أول ما أمره بالصلاة . قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلى ولست على الوضوء ، فقال الله (إنا أعطيناك الكوثر) ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقبل له عند ذلك فصل ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة . فكأنه قال أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك ( القول الثاني ) فصل لربك أى فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا في فائدة الفاء في قوله فصل وجوهاً (أحدها) التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي ( وثانيها ) أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم إنه خص محمداً ﷺ في هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) ولأنه قال له ( فإذا فرغت فانصب ) أى فعليك بأخرى عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتى إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع في الشكر عقيب ذلك ( القول الثالث ) فصل أى فادع الله لأن الصلاة هى الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك (بالكوثر) فكيف بعد سؤالك لكن «سل تعطه واشفع تشفع» وذلك لأنه كان أبداً في فم أمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله ( وانحر ) قولان :

( الأول ) وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن ( والقول الثانى ) أن المراد بقوله ( وانحر ) فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوهاً : ( أحدها ) قال الفراء . معناها استقبال القبلة ( وثانيها ) روى الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل « ما هذه النجيرة التى أمرنى بها ربى ؟ قال ليست بنجيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » ( وثالثها ) روى عن علي بن أبى طالب أنه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر فى الصلاة ، وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع ( ورابعها ) قال عطاء معناه أقدمين الوجدتين حتى يبدو نحرك ( وخامسها ) روى عن الضحاك ، وسليمان التيمى أنهما قالوا ( انحر )

معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى تحرك ، قال الواحدى ، وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذى هو الصدر يقال لمنح البعير النحر لأن منحره فى صدره حيث يبدو الخلقوم من أعلى الصدر فعنى النحر فى هذا الموضع هو اصابة النحر كما يقال برأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه ، وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابى النحر اتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب وهو أن ينصب تحره بإزاء القبلة ، ولا يلتفت يمينا ولا شمالا ، وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد :

أبا حكم هل أنت عم مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

والسكنة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول السكبة بيتى وهى قبلة صلاتك وقبلك وقبلة رحمتى ونظر عنايتى فلتسكن القبلمان متناحر تبين قال الأكثرون حمله على نحر البدن أولى لوجوه (أحدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها (وثانها) أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقبل له فصل وانحر لربك ( وثالثها ) أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأباضها فكانت داخلية تحت قوله ( فصل لربك ) فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشيء على جميعه ( ورابعها ) أن قوله (فصل) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله ( وانحر ) إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين ( وخامسها ) أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله فى سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله ( واتبعوه ) ولقوله ( فاتبعونى يحببكم الله ) وأصحابنا قالوا الأمر بالمناجعة مخصوص بقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر » .

( المسألة الثالثة ) اختلف من فسر قوله ( فصل ) بالصلاة على وجوه ( الأول ) أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصل ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المحمل بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بين كيفية هذه الصلاة أجاب أبو مسلم ، وقال أراد به الصلاة المفروضة أعنى الخمس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل ( القول الثانى ) أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون هذا قول ضعيف لأن عطف الشيء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب ( القول الثالث ) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى ، والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام في قوله ( لربك ) فيها فوائد ( الفائدة الأولى ) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً مدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود . وإن حسنت في الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى موسى ( وأقم الصلاة لذكري ) وقيل إنه كانت صلواتهم ونحرم للصنم فقبل له لتسكن صلاتك ونحرك لله .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ كأنه تعالى يقول ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمرأة فصل أنت لا الرباه لكن على سبيل الإخلاص .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفاء في قوله ( فصل ) تفيد سببية أمرين ( أحدهما ) سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإناعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية ( والثاني ) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أبتى فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبالي بقولهم وهديانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء في قوله ( فصل ) اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لاجرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال أفلا أكون عبداً شكوراً « فقوله « أفلا أكون عبداً شكوراً » إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله ( فصل ) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كان الأليق في الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لنا واحمر . لكنه ترك ذلك إلى قوله ( فصل لربك ) لفوائدها ( إحداها ) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة ( وثانيها ) أن صرف الكلام من المضمّر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلقاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين ( وثالثها ) أن قوله ( إنا أعطيناك ) ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضاً كلمة إنا تحتل الجمع كما تحتل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال صل لنا ، لنتي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التثريب . فلهذا ترك اللفظ ، وقال ( فصل لربك ) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله ( فصل لربك ) أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد الترية المتقدمة المشار إليها بقوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يريه ولا يتركه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ في الآية سؤالان : ( أحدهما ) أن المذكور عقيب الصلاة هو الزكاة . فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ ( والثاني ) لما لم يقل ضحى حتى يشمل جميع أنواع



## إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْرُ ﴿٣﴾

الضحايا؟ (والجواب) عن الأول، أما على قول من قال: المراد من الصلاة صلاة العيد، فالأمر ظاهر فيه، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة، فلوجوه (أحدها) أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان، فقيل له اجعلهما لله (وثانها) أن من الناس من قال: إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا، بل كان يملك بقدر الحاجة، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه، أما النحر فقد كان واجباً عليه لقوله «ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتي: الضحى والاضحى والوتر» (وثالثها) أن أعز الأموال عند العرب. هو الإبل فأمره بنحرها وصرافها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك، وكانت النوق يزدهن على رسول الله، فلما أخذ على السكين تباعدت منه (والجواب عن الثاني) أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل.

﴿المسألة التاسعة﴾ دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر، لا لأن الواو توجب الترتيب، بل لقوله عليه السلام «ابدؤا بما بدأ الله به».

﴿المسألة العاشرة﴾ السورة مكية في أصح الأقوال، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف.

قوله تعالى ﴿إن شأنتك هو الأبر﴾ وفي الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا في سبب النزول وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد، والعاص بن وائل السهمي يدخل فالتقيا فتحدنا، وصناديد قريش في المسجد، فلما دخل قالوا من الذي كنت تتحدث معه؟ فقال ذلك الأبر، وأقول إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض، مع أن الله تعالى أظهره، فحينئذ يكون ذلك معجزاً، وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول: إن محمداً أبر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير (القول الثاني) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة أنه جماعة قريش فقالوا نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الأبر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ فقال بل أنتم خير منه فنزل (إن شأنتك هو الأبر) ونزل أيضاً (الم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت)، (والقول الثالث) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام، قالوا بتر محمد أي خالفنا وانقطع



عنا ، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون ( القول الرابع ) نزلت في أبي جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل إني أبغضه لأنه أبت ، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الإبن لم يكن من مراده ( القول الخامس ) نزلت في عمه أبي لهب فإنه لما شافهه بقوله تبارك كان يقول في غيبته إنه أبت ( والقول السادس ) أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وإنه هو الذى كان يقول ذلك ؛ واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه .

( المسألة الثانية ) الشنآن هو البغض . والشانئ هو المبغض ، وأما البتر فهو في اللغة استئصال القطع يقال بترته أبتره بترأ بتر أى صار أبتراً وهو مقطوع الذنب ، ويقال للذى لا عقب له أبتراً ، ومنه الحمار الأبتراً الذى لا ذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فانك إذا قلت زيد هو العالم فيفيد أنه لا عالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام إنه أبتراً لاشك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه .

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات ( أما الأول ) فيحتمل وجوهاً ( أحدها ) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فإنا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة ( وثانيها ) قال الحسن عتوا بكونه أبتراً ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك ، فانهم صاروا مدبرين مغلوبين مهزومين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة ( وثالثها ) زعموا أنه أبتراً لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب ( ورابعها ) الأبت هو الحقيق الذليل ، روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلاً حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد فى أن يصرعه ، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل . ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه . فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء . فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله ( إن شئتك هو الأبت ) هذه الواقعة ( وخامسها ) أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل ( إن شئتك هو

الأبر) أى الذى قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى، وأما المدح الذى ذكرناه فيك، فإنه باقى على وجه الدهر (وسادسها) أن رجلاً قام إلى الحسن بن على عليهما السلام، وقال: سؤدت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية، فقال لا تؤذيني يرحمك الله، فإن رسول الله رأى بنى أمية فى المنام يصعدون منبره رجلاً فرجلاً فساده ذلك، فأرسل الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فكان ملك بنى أمية كذلك، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين.

(المسألة الثالثة) الكفار لما شتموه، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة، فقال (إن شانتك هو الأبر) وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم، وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا (هل ندلكم على رجل يبتئكم إذا مزقكم كل ممزق إنكم لئن لم تخلق جديد، افترى على الله كذباً أم به جنة) فقال سبحانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وحين قالوا هو مجنون أقسم ثلاثاً، ثم قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ولما قالوا (لست مرسلًا) أجاب فقال (يس، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) وحين قالوا (أئنا لناركو آلهتنا لشاعر مجنون) رد عليهم وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فصدقه، ثم ذكر وعيد خصمائه، وقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) وحين قال حاكياً (أم يقولون شاعر) قال (وما علمناه الشعر) ولما حكى عنهم قولهم (إن هذا إلا إمك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) سماهم كاذبين بقوله (فقد جاؤا ظلماً وزوراً) ولما قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) أجابهم فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم لىأكلن الطعام ويمشون فى الأسواق) فما أجل هذه الكرامة.

(المسألة الرابعة) اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعمة العظيمة، وعلم تعالى أن النعمة لاتنهأ إلا إذا صار العدو مقهوراً، لاجرم وعده بقهر العدو، فقال (إن شانتك هو الأبر) وفيه لطائف (إحداها) كأنه تعالى يقول: لا أفدله لىكى يرى بعض أسباب دولتك، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانها) وصفه بكونه شائئاً، كأنه تعالى يقول: هذا الذى يبغضك لا يقدر على شئ آخر سوى أنه يبغضك. والمبغض إذا عجز عن الإيذاء، فحينئذ يمتحن قلبه غيظاً وحسداً، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبر، لأنه كان شائئاً له ومبغضاً، والأمر بالحقيقة كذلك، فإن من عادى محسوداً فقد عادى الله تعالى، لاسيما من تكفل الله بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة، ونفسه بالكثرة والدولة، فقلب الله الأمر عليه، وقال العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام، والأبرية والندامة والذلة للعدو، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف.

(المسألة الخامسة) اعلم أن من تأمل فى مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التى

ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بملئه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر . روى عن مسيلة أنه عارضها فقال : إنا أعطيناك الجماهر . فصل لربك وجاهر . إن مبغضك رجل كافر ، ولم يعرف المخدول أنه محروم عن المطلوب لوجوه (أحدها) أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة (وثانها) أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها ، وكالاصول لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالا لا كثير لطائف هذه السورة ( وثالثها ) التفاوت العظيم الذي يقربه من له ذوق سليم بين قوله ( إن شأنتك هو الأبر ) وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فأنه سبحانه مدحه مدحا أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشيء دون شيء ، لا جرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيان . لأن طاعة البدن هي الصلاة ، وطاعة المال هي الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله ، واللام في قوله ( لربك ) يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن في الذكر ، وهو قوله ( فصل ) وآخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبهاً على فساد مذهب أهل الإباحة في أن العبد قد يستغنى بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة ، وعلى أنه لا بد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله في المعاد ، كأنه يقول : كنت ربيتك قبل وجودك ، فأفترقت ربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولاً بإفاضة النعم عليه تكفل في آخر السورة بالذبح عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم . والآخر بتكميل النعم في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

## (سورة الكافرون)

(ست آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾

(سورة الكافرون ست آيات مكية)

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقة ، وروى أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن ، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعاً للقرآن والله أعلم .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل يا أيها الكافرون)

اعلم أن قوله تعالى ( قل ) فيه فوائد : ( أحدها ) أنه عليه السلام كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال ( ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فيما رحمة من الله لنت لهم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) ثم كان مأموراً بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن ( وجمادهم بالنبي هي أحسن ) ولما كان الأمر كذلك ، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون كيف يليق هذا التعليل بذلك الرفق فأجاب بأن مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسه فكان المراد من قوله قل تقرير هذا المعنى ( وثانيها ) أنه لما قيل له ( وأنذر عشيرتلك الأقرين ) وهو كان يجب أفراده لقوله ( قل لا أسألكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى ) فكانت القربة ووحدة النسب كالسانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتعليل فقيل له ( قل ) ، ( وثالثها ) أنه لما قيل له ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ) فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه فلما قال الله تعالى له ( قل يا أيها الكافرون ) نقل هو عليه السلام هذا الكلام بحملته كأنه قال إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أنزل علي والذي أنزل علي هو مجموع قوله ( قل يا أيها الكافرون ) فأنا أيضاً أبلغه إلى الخلق هكذا ( ورابعها ) أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع ، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم ، علي ما قال

تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) والعبد يتحمل من هوله ما لا يتحملة من غيره. فلو أنه عليه السلام قال ابتداء (يا أيها الكافرون) لجوزوا أن يكون هذا الكلام محمداً، فلعلمهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه. أما لما سمعوا قوله (قل) علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيمهم به (وخامسها) أن قوله (قل) يوجب كونه رسولا من عند الله، فكلما قيل له (قل) كان ذلك كالمشور الجديد في ثبوت رسالته، وذلك يقتضى المبالغة في تعظيم الرسول، فإن الملك إذا فوض مملكته إلى بعض عبده، فإذا كان يكتب له كل شهر سنة منشوراً جديداً دل ذلك على غاية اعتناؤه بشأنه، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيماً وتشريفاً (وسادسها) أن الكفار لما قالوا نعيد إهلك سنة، وتعيد آلهتنا سنة، فكأنه عليه السلام قال: استأمرت إلهي فيه. فقال (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (وسابعها) الكفار قالوا فيه السر، فهو تعالى زجرهم عن ذلك، وأجابهم وقال (إن شئتكم هو الأبر) وكأنه تعالى قال: حين ذكروك بسوء، فأنا كنت المحيب بنفسى، حين ذكرونى بالسوء وأثبتوا لى الشركاء، فسكن أنت المحيب (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون) (ونامنها) أنهم سموك أبتى، فإن شئت أن تستوفى منهم القصاص، فاذا كرمهم بوصف ذم بحيث تكون صادفاً فيه (قل يا أيها الكافرون) لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيهم بما هو فعلهم (وتاسعها) أن بتقدير أن تقول: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه. والكفار يقولون: هذا كلام ربك أم كلامك، فإن كان كلام ربك فربك يقول: أنا لا أعبد هذه الأصنام، ونحن لا نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك إنى لا أعبد هذه الأصنام. فلم قلت إن ربك هو الذى أمرك بذلك، أما لما قال قل، سقط هذا الاعتراض لأن قوله (قل) يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها (وعاشرها) أنه لو أنزل قوله (يا أيها الكافرون) لكان يقرؤها عليهم لا محالة، لأنه لا يجوز أن يخون فى الوحي إلا أنه لما قال (قل) كان ذلك كالتأكيدي في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم، والتأكيدي يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم. فهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذى قاله وطلبوه من الرسول أمر منكر فى غاية القبح ونهاية الفحش (الحادى عشر) كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف، أما الآن لما قويتنا قلبك بقولنا (إنا أعطيناك الكوثر) وبقولنا (إن شئتكم هو الأبر) فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون) (الثانى عشر) أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار، أنه تعالى لا يكلمهم، فلو قال (يا أيها الكافرون) لكان ذلك من حيث إه خطاب مشافهة يوجب التعظيم، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء. فينجبر الإيذاء بالإكرام، أما لما قال (قل يا أيها الكافرون) فحينئذ يرجع تشريف

المخاطبة إلى محمد ﷺ ، وترجع الإهامة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار ، فيحصل فيه تعظيم الأولياء ، وإهانة الأعداء ، وذلك هو النهاية في الحسن ( الثالث عشر ) أن محمداً عليه السلام كان منهم ، وكان في غاية الشفقة عليهم والرافة بهم ، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب ، والاب الذي يكون في غاية الشفقة بولده ، ويكون في نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم فالولد إن كان عاقلاً يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقتة عليه إلا لصدقه في ذلك ولأنه بلغ مبلغاً لا يقدر على إخفائه ، فقال تعالى ( قل ) يا محمد لهم ( يا أيها الكافرون ) ايعلوا أنكم لما وصفتم بذلك مع غاية شفقتكم عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة ، فربما يصير ذلك داعياً لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها ( الرابع عشر ) أن الإيذاء والإيحاء من ذوى القربى أشد وأصعب من الغير فأنت من قبيلتهم ، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم ( يا أيها الكافرون ) فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم ، فيصير ذلك داعياً لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر ( الخامس عشر ) كأنه تعالى يقول ألسنا بينا في سورة ( والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) وفي سورة الكوثر ( إنا أعطيناك الكوثر ) وأنت بالإيمان والأعمال الصالحات ، بمقتضى قولنا ( فصل لربك وانحر ) بقى عليك التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وذلك هو أن تمتعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله . فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السادس عشر ) كأنه تعالى يقول يا محمد أنسيت أني لما أخرجت الوحى عليك مدة قليلة ، قال الكافرون إنه ودعه ربه وقلاه ، فشق عليك ذلك غاية المشقة ، حتى أنزلت عليك السورة ، وأقسمت بالضحى ( والليل إذا سجى ) أنه ( ما ودعك ربك وما قلى ) فلما لم تستجز أن أتركك شهراً ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه ( ما ودعك ربك وما قلى ) أفتستجز أن تتركنى شهراً وتشتغل بعبادة آلهتهم فلما ناديت بنفى تلك التهمة ، فناد أنت أيضاً في العالم بنفى هذه التهمة و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( السابع عشر ) لما سألوهم أنه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إله سنة ، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئاً ، لا لأنه جوز في قلبه أن يكون الذى قالوه حقاً ، فإنه كان قاطعاً بفساد ما قالوه لكننه عليه السلام ، توقف في أنه بماذا يجيبهم ؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذاباً ، فأغتم الكفار ذلك السكوت وقالوا إن محمداً مال إلى ديننا . فكأنه تعالى قال يا محمد إن توقعك عن الجواب في نفس الأمر حق ولكنه أوهم باطلا ، فتدرك إزالة ذلك الباطل . وصرح بما هو الحق و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( الثامن عشر ) أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج أن على استولى عليه هيئة الحضرة الالهية فقال لأحصى ثناء عليك ، فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن فكأنه

قيل له إن سكت عن الثناء رعاية لهيئة الحضرة فأطلق لسانك في مذمة الأعداء. و ( قل يا أيها الكافرون) حتى يكون سكوئك لله وكلامك لله ، وفيه تقرير آخر وهو أن هيئة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى إن هيئة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار ( التاسع عشر) لو قال له لا تعبد ما يعبدون لم يلزم منه أن يقول بلسانه ( لا أعبد ما يعبدون) أما لما أمره بأن يقول بلسانه ( لا أعبد ما يعبدون) يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذبا ، ثبت أنه لما قال له قل ( لا أعبد ما يعبدون) فلزمه أن يكون منكراً لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه . ولو قال له لا تعبد ما يعبدون لزمه تركه ، أما (١) لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان ، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه في نفسه وأنكره بلسانه فقوله له (قل) يقتضى المبالغة في الإنكار ، فلهذا قال ( قل ... لا أعبد ما يعبدون ) ، (العشرون) ذكر التوحيد ونفي الأنداد جنة للعارفين ونار للمشركين فاجعل لفظك جنة للوحديين ونارا على المشركين و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدن) ( الحادى والعشرون) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة سكت محمد فقال إن شافهتهم بالرد تأذوا ، وحصلت النفرة عن الإسلام في قلوبهم ، فكانه تعالى قال له يا محمد لم سكت عن الرد ، أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك ، فلا حاجة بك في هذا المعنى إليهم (فإننا أعطيناك الكوثر) وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك الخوف بقولنا (إن شاتك هو الأبر) فلا تلتفت إليهم ، ولا تبال بكلامهم ، (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثاني والعشرون) أنسيت يا محمد أنى قدمت حَقك على حق نفسى ، فقلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) فقدمت أهل الكتاب في الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين في ، فقدمت حَقك على حق نفسى وقدمت أهل الكتاب في الذم على المشركين ، وأنت أيضاً هكذا كنت تفعل فإهم لما كسروا سنك قلت «اللهم اهد قومي» ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت «اللهم املا بطونهم ناراً» فههنا أيضاً قدم حتى على حق نفسك وسواء كنت خائفاً منهم . أو لست خائفاً منهم فأظهر إنكار قولهم (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ( الثالث والعشرون) كأنه تعالى يقول قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة ، ثم إنى هناك مارضيت منك أن تضمر في قلبك شيئاً ولا تظهره بلسانك . بل قلت لك على سبيل العتاب (وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فإذا كنت لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار ، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك في هذه المسألة ، وهى أعظم المسائل خطراً بالسكوت . قل بصريح لسانك ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الرابع والعشرون) يا محمد ألست قلت لك (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً) ثم إنى مع هذه القدرة راعيت جانبك وطبعت قلبك وناديت في العالمين بأنى لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره ، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت (ولكن رسول الله وخاتم النبيين)



فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلاً أن يشاركني غيري في العبودية أولى أن تنادي في العالمين بنفي هذه الشرك، فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الخامس والعشرون ) كأنه تعالى يقول القوم جاؤك وأطمعوك في متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الإنكار والرد ، ألسنت أنا جعلت البيعة معك بيعة معي حيث قلت ( إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ) وجعلت متابعتك متابعة لي حيث قلت ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ) ثم إنى ناديت في العالمين وقلت ( إن الله برئ من المشركين ورسوله ) فصرحت أنت أيضاً بذلك ، و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( السادس والعشرون ) كأنه تعالى يقول ألسنت أرف بك من الوالد بولده ، ثم العري والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب ، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جاءتة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جاءعون عن العلم عارون عن التقوى ، فقد جربتني ، ألم أجدك يتقياً وضالاً وعائلاً ، ألم نشرح لك صدرك ، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هبة وبعثان معونة ، وبعلي علماً ، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك ، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف . ألم أعطك الكوثر ، ألم أضمن أن خصمك أتر ، ألم يقل جدك في هذه الأصنام بعد تخريبها ( لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ) فصرح بالبراءة عنها و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ( السابع والعشرون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ألسنت قد أنزلت عليك ( فاذكروا الله كذا كرم آباءكم أو أشد ذكراً ) ثم إن واحداً لو نسبك إلى والدين لغضبت ولا ظهرت الإنكار ولبالغت فيه ، حتى قلت « ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح » فإذا لم تسكت عند التشريك في الولادة ، فكيف سكت عند التشريك في العبادة ! بل أظهر الإنكار ، وبالغ في التصريح به ، و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( الثامن والعشرون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ألسنت قد أنزلت عليك ( أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ) حكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجمد في العبودية لا يكون عاقلاً بل يكون مجنوناً ، ثم إنى أقسمت وقلت ( ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ) والكفار يقولون إنك مجنون ، فصرح برد مقالاتهم فإنها تفيد براءتي عن عيب الشرك ، وبراءتك عن عيب الجنون و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( التاسع والعشرون ) أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة ، والمشاركة في الاسم لا توجب المشاركة في المعنى ، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان في الإنسانية حقيقة ، ثم القيمة كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر ، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق في القيمة ، فمن لا قدرة له ولا علم البتة كيف يكون له حق في القيومية ، بل ههنا شيء آخر : وهو أن امرأه لو ادعاه رجلان فاصطاحا عليها لا يجوز ، ولو أقام كل واحد منهما بيعة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما ، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما ، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين ، ولا أمة بين موليين في حل الوطاء



فكيف يعقل عابد واحد بين معبودين ! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحمل الزوجة لاحدهما شهراً ، ثم الثاني شهراً آخر كان كافراً ، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافراً فكأنه تعالى يقول لرسوله : إن هذه المقالة في غاية القبح فصرح بالإنكار وقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) (الثلاثون) كأنه تعالى يقول أنسيت أنى لما خيرت نساءك حين أنزات عليك ( قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ) إلى قوله ( أجر أعظيماً ) ثم خشيت من عائشة أن تختار الدنيا ، فقلت لها لا تقول شيئاً حتى تستأمرى أبويك ، فقالت أفى هذا أستأمر أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ! فنافضة العقل ما توقفت فيما يخالف رضاي أتوقف فيما يخالف رضاي وأمرى مع أنى جبار السموات والأرض ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الحادى والثلاثون ) كأنه تعالى يقول : يا محمد ألسنت أنت الذى قلت : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يوقفن موافق التهم ، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذى يريد أن يفارقه ، لا تخاف السلطان قال ولم ؟ قال : لأنه يوقع الناس فى أحد الخطأين ، إما أن يعتقدوا أن السلطان متدين ، لأنه يخاطبه العالم الزاهد ، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله ، وكلاهما خطأ ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يا محمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك ، لا سيما وقد سبق أن الشيطان أتى فيما بين قراءتك : تلك الغرائق العلى منها الشفاعة لترجى ، فأزل عن نفسك هذه التهمة و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثانى والثلاثون ) الحقوق فى الشاهد نوعان حق من أنت تحت يده . وهو مولاك ، وحق من هو تحت يدك وهو الولد ، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد ، فإذا كان حق المولى المجازى مقدماً ، فبأن يكون حق المولى الحقيقى مقدماً كان أولى ، ثم روى أن علياً عليه السلام إستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى التزوج بانه أبى جهل فضجر وقال لا آذن لا آذن أن فاطمة بضعة منى يؤذيني ما يؤذيها ويسرفى ما يسرفها والله لا يجمع بين بنت عدو الله ، وبنت حبيب الله ، فكأنه تعالى يقول صرحت هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد ، فههنا أولى أن تصرح بالرد ، وتكرره رعاية لحق المولى فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ولا أجمع فى القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العدو ( الثالث والثلاثون ) يا محمد ألسنت قلت لعمر رأيت قصرأ فى الجنة . فقلت لمن ؟ فقيل لفتى من فريش ، فقلت من هو ، فقالوا عمر بن الخطاب غيرك فلم أدخلها حتى قال عمر أو أغار عليك يا رسول الله ، فكأنه تعالى قال خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره أفسا تخشى غيرتى فى أن تدخل قلبك طاعة غيرى ، ثم هناك أظهرت الامتناع فههنا أيضاً أظهر الامتناع و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ، ( الرابع والثلاثون ) أنرى أن نعمتى عليك دون نعمه الوالدة ، ألم أربك ؟ ألم أخلقك ؟ ألم أرزقك ؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق ؟ ثم حين كنت طفلاً عديم العقل وعرفت تربية الام فلو أخذتكم امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت

ولوأعطتك المدى لددت فك تقول لا أريد غير الام لأنها أول المنعم على ، فههنا أولى أن تظهر  
 النفرة فتقول لا أعبد سوى ربى لأنه أول منعم على قتل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون )  
 ( الخامس والثلاثون ) نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنوبة ، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب  
 لا ينسيان نعمة الاطعام ولا يميلان إلى غير من أطعمهما فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد  
 والإحسان فكيف في حق أفضل الخلق ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السادس  
 والثلاثون ) مذهب الشافعى أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة فإذا لم يجد من الأنصار  
 تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلا بها ( لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك  
 شيئاً ) فيتقدير أن كنت متصلا بها ، كان يجب أن تنفصل عنها وتركها ، فكيف وما كنت متصلا  
 بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السابع  
 والثلاثون ) هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة في الإلهية كالكثرة في المسال يزيد به  
 الغنى وليس الأمر كذلك بل هو الكثرة في العيال يزيد به الحاجة فقل يا محمد لى إله واحد أقوم له  
 في الليل وأصوم له في النهار ، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه . فكيف ألزم  
 عبادة آلهة كثيرة ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثامن والثلاثون ) أن مريم عليها  
 السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام ( قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ) فاستعذت  
 أن تميل إلى جبريل دون الله أفستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام ( قل يا أيها  
 الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( التاسع والثلاثون ) مذهب أبى حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة  
 بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة يقول لأنه كان قيميا فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب  
 فالحق سبحانه يقول ، كنت قيميا ولم أتعيب ، فكيف يجوز الإعراض عنى ( قل يا أيها الكافرون  
 لا أعبد ما تعبدون ) ( الأربعون ) هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم ( ولئن سألتهم من  
 خلق السموات والأرض ليقولن الله ) وقال في موضع آخر ( أرؤى ماذا خلقوا من الأرض )  
 فكانه تعالى يقول هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل ، لأن البذر منى والتربة والسقى  
 منى ، والحفظ منى ، فأى شيء للصنم ، أو شركة الوجوه وذلك أيضاً باطل أنرى أن الصنم أكثر  
 شهرة وظهوراً منى ، أو شركة الأبدان وذلك أيضاً باطل ، لأن ذلك يستدعى الجنسية ، أو شركة  
 العنان ، وذلك أيضاً باطل ، لأنه لا بد فيه من نصاب فما نصاب الأصنام ، أو يقول ليس هذا من  
 باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيباً من الملك ، فكان الرب يقول : ما أشد جهلكم إن  
 هذا الصنم أكثر مجزاً من الذبابة ( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ) فأننا أخلق البذر  
 ثم ألقيه في الأرض . فالنزية والسقى والحفظ منى . ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر  
 والتغلب نصيباً منى ، ما هذا بقول يليق بالعقلاء ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون )  
 ( الحادى والأربعون ) أنه لا ذرة في عالم المحدثات إلا وهى تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات

وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام ، ولما كان كل بق وبموضة داعياً إلى معرفة الذات والصفات قال ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ) ، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله . فكأنه تعالى يقول مثل هذا الشيء . كيف يستحي منه ، روى أن عمر رضى الله عنه كان في أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشاً وحمله بنفسه فراه على من بعيد فتسكب على عن الطريق فاستقبله عمرو وقاله لم تسكب عن الطريق ؟ فقال على : حتى لا تستحي ، فقال : وكيف أستحي من حل ما هو غذائي ! فكأنه تعالى يقول إذا كان عمر لا يستحي من السكرش الذى هو غذاؤه فى الدنيا فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذى بمطيك غذا . دينك . ثم كأنه تعالى يقول يا محمد إن نمرود لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار ، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم أفلا تصرح بالرد عليهم ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) وإن فرعون لما ادعى الإلهية فجبريل ملا فاه من الطين فإن كنت ضعيفاً فلست أضعف من بعوضة نمرود ، وإن كنت قوياً فلست أقوى من جبريل ، فأظهر الإنكار عليهم و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثانى والأربعون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ( قل ) بلسانك ( لا أعبد ما تعبدون ) واتركه قرصاً على فإني أفضيك هذا القرص على أحسن الوجوه ، ألا ترى أن النصرانى إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله فأقول أنا لا أكتفى بهذا ما لم تصرح بالبراءة عن النصرانية ، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت أيضاً أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيرى فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثالث والأربعون ) أن موسى عليه السلام كان فى طبعه الخشونة فلما أرسل إلى فرعون قيل له ( فقولا له قولاً ليناً ) وأما محمد عليه السلام فلما أرسل إلى الخلق أمر بإظهار الخشونة تنبيهاً على أنه فى غاية الرحمة . فقيل له ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) .

أما قوله تعالى ( قل يا أيها الكافرون ) ففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) يا أيها ، قد تقدم القول فيها فى مواضع ، والذى يزيد ههنا ، أنه روى عن على عليه السلام أنه قال : يا نداء النفس وأى نداء القلب ، وها نداء الروح ، وقيل : يا نداء الغائب وأى للحاضر ، وها للتنبية ، كأنه يقول أدعوك ثلاثاً ولا تجيبني مرة ما هذا إلا لجهلك الخفى ، ومنهم من قال إنه تعالى جمع بين يا الذى هو للبعيد ، وأى الذى هو للقريب ، كأنه تعالى يقول معاملتك مئى وفرارك عنى يوجب البعد البعيد ، لكن إحسانى إليك ، ووصول نعمتى إليك توجب القرب القريب ( ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ) وإنما قدم يا الذى يوجب البعد على أى الذى يوجب القرب ، كأنه يقول التقصير منك والتوفيق مئى ، ثم ذكرها بعد ذلك لأن

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢٦﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ

ما يوجب البعد الذي هو كالموت وأى يوجب القرب الذى هو كالحياة ، فلما حصلنا حالة متوسطة بين الحياة والموت ، وتلك الحالة هى النوم ، والنائم لا يد وأن يبنه وما كلمة تنبيه ، فهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف .

(المسألة الثانية) روى فى سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطالب ، وأمىة بن خلف ، قالوا لرسول الله تعالى حتى نعبد إلهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل الصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة ونزل أيضاً قوله تعالى ( قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ) فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر ، واعلم أن الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة ، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه ، وههنا سوالات :

(السؤال الأول) لم ذكرهم فى هذه السورة بالكافرين ، وفى الأخرى بالجاهلين؟ (الجواب) لأن هذه السورة بتماها نازلة فيهم ، فلا بد وأن تكون المبالغة ههنا أشد ، وليس فى الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقاً أو مقيداً ، أما لفظ الجهل فإنه عند التقيد قد لا يذم ، كقوله عليه السلام فى علم الأنساب «علم لا ينفع وجهل لا يضر» . (السؤال الثانى) لما قال تعالى فى سورة (لم تحرم) يا أيها الذين كفروا ، ولم يذكر قل . وههنا ذكر قل ، وذكره باسم الفاعل (والجواب) الآية المذكورة فى سورة لم تحرم : إنما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولا إليهم فأزال الوساطة وفى ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين . فلذلك ذكره بلفظ الماضى ، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولا إليهم ، فلا جرم قال ( قل يا أيها الكافرون ) .

(السؤال الثالث) قوله ههنا ( قل يا أيها الكافرون ) خطاب مع الكل أو مع البعض؟ (الجواب) لا يجوز أن يكون قوله ( لا أعبد ما تعبدون ) خطاباً مع الكل لأن فى الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز أن يقول لهم ( لا أعبد ما تعبدون ) ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) خطاباً مع الكل ، لأن فى الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله ، فإذاً يجب أن يقال إن قوله ( يا أيها الكافرون ) خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتمد آلهتنا سنة ، والحاصل أننا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ، ولو حملناه على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك ، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى . أما قوله تعالى ( لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا

مَا عَبَدْتُمْ «٤» وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ «٥»

أتم عابدون ما أعبد ( فففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) في هذه الآية قولان ( أحدهما ) أنه لا تكرر فيها ( والثاني ) أن فيها تكراراً ( أما الأول ) فتقريره من وجوه ( أحدها ) أن الأول للمستقبل ، والثاني للحال والدليل على أن الأول للمستقبل أن لا يتدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال ، ألا ترى أن لن تأكيد فيما ينفيه لا ، وقال الخليل في لن أصله لا أن ، إذا ثبت هذا فقوله ( لا أعبد ما تعبدون ) أى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة أهتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ، ثم قال ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) أى ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أتم في الحال بعابدين لمعبودى ( الوجه الثانى ) أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثانى للاستقبال والدليل على أن قوله ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا : أنا عابد ما عبدتم ولا شك أن هذا للاستقبال بديل أنه لو قال أنا قاتل زيداً فهم منه الاستقبال ( الوجه الثالث ) قال بعضهم كل واحد منهما يصلح للحال وللإستقبال ، ولكننا نخص أحدهما بالحال ، والثانى بالاستقبال دفماً للتكرار ، فإن قلنا إنه أخبر عن الحال ، ثم عن الإستقبال ، فهو الترتيب ، وإن قلنا أخبر أولاً عن الإستقبال ، فلأنه هو الذى دعوه إليه ، فهو الأهم فبدأ به ، فإن قيل ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم ، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله فى بعض الأحوال ؟ قلنا أما الحكاية عن نفسه فلتلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سرأخوفاً منها أو طمعاً إليها وأما نفيه عبادتهم . فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً ( الوجه الرابع ) وهو اختيار أبى مسلم أن المقصود من الأولين المعبود وما بمعنى الذى ، فكأنه قال لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله ، وأما فى الأخيرين فإمعان الفعل فى تأويل المصدر أى لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون عبادتى المبنية على اليقين ، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهى ، كان ذلك باطلاً لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم ، فهو منهى عنه ، وغير مأمور به ( الوجه الخامس ) أن تحمل الأولى على نبي الاعتبار الذى ذكره ، والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات فكأنه أولاً قال ( لا أعبد ما تعبدون ) رجاء أن تعبدوا الله ، ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قال ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض ، ومقصود من المقاصد البتة بوجه من الوجوه ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) بوجه من الوجوه ، واعتبار من الاعتبارات ، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعم ، فيقول لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلاً لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض ( القول الثانى ) وهو أن نسلم حصول التكرار ، وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه ( الأول ) أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير

أحسن ، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ في هذا المعنى مراراً ، وسكت رسول الله عن الجواب ، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل . فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال ( الوجه الثاني ) أنه كان القرآن ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالمشركون قالوا استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك فأنزل الله ( ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ) ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً فأنزل الله ( ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ) ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضراً البتة ( الوجه الثالث ) أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهمك فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافاً به واستحقاراً لقوله ،

( المسألة الثانية ) في الآية سؤال وهو أن كلمة ( ما ) لا تتناول من يعلم فنبأ أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) أجابوا عنه من وجوه ( أحدها ) أن المراد منه الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق ( وثانيها ) أن مصدرية في الجملتين كأنه قال لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل ، ثم قال ثانياً لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال ( وثالثها ) أن يكون ما بمعنى الذي وحينئذ يصح الكلام ( ورابعها ) أنه لما قال أولاً ( لا أعبد ما تعبدون ) حمل الثاني عليه ليقس الكلام كقوله ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) .

( المسألة الثالثة ) احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) والخبر الصدق عن عدم الشيء . بضاد وجود ذلك الشيء . فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين ، واعلم أنه بقي في الآية سوالات :

( السؤال الأول ) أليس أن ذكر الوجه الذي لا حله تقبح عبادة غير الله كان أولى من هذا التكرير ؟ الجواب بل قد يكون التأكيد والتكرير أولى من ذكر الحججة ، إما لأن المخاطب يلبد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحججة أو لاجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فلما نظرت في مسألة الجبر والقدر حسنة ، أما القائل بالصمم فهو إما مجنون يجب شدة أو عاقل معاد فيجب قتله ، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه ، والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية :

( السؤال الثاني ) أن أول السورة اشتمل على التشديد ، وهو النداء بالكفر والتكرير وآخرها على اللطف والتساهل ، وهو قوله ( لكم دينكم ولي دين ) فكيف وجه الجمع بين الأمرين ؟



## لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

(الجواب) كأنه يقول إني قد بالغت في تحذيركم عن هذا الأمر القبيح ، وما قصرت فيه ، فإن لم تقبلوا قولي ، فاز كوني سواء بسواء .

(السؤال الثالث) لما كان التكرير لاجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغي أن يقول : لن أعبد ما تبتدون ، لأن هذا أبلغ . ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا (لن ندعو من دونه إلهاً) (والجواب) المبالغة إنما يحتاج إليها في موضع التهمة ، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع ، فكيف يعبد بعد ظهور الشرع ، بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل .

أما قوله تعالى ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ ففيه مسائل .

(المسألة الأولى) قال ابن عباس لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له ، فإن قيل فهل يقال إنه أذن لهم في الكفر قلنا ، كلا فإنه عليه السلام ما بعث إلا للذم من الكفر فكيف يأذن فيه ، ولكن المقصود منه أحد أمور (أحدها) أن المقصود منه النهيد ، كقوله اعملوا ما شئتم (وثانيها) كأنه يقول إني نبي مبعوث إليكم لادعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فاز كوني ولا تدعوني إلى الشرك (وثالثها) (لكم دينكم) فكونوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم (ولي ديني) لأنني لأرفضه (القول الثاني) في تفسير الآية أن الدين هو الحساب أي لكم حسابكم ولي حسابي ، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر البتة (القول الثالث) أن يكون على تقدير حذف المضاف أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني وحسبهم جزاء دينهم وبالإضافة عقاباً كما . جزاء دينك تعظيماً وثواباً (القول الرابع) الدين العقوبة (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله يعني الحد ، فلكم العقوبة من ربي ، ولي العقوبة من أصنامكم ، لكن أصنامكم جمادات ، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام ، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض (القول الخامس) الدين الدعاء ، فادعوا الله مخلصين له الدين ، أي لكم دعاؤكم (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) (وإن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ثم ليها تبقى على هذه الحالة فلا يضر ونكم ، بل يوم القيامة يجدون لساناً فيكفرون بشركم ، وأما ربي فيقول (ويستجيب الذين آمنوا) (ادعوني أستجب لكم) (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (القول السادس) الدين العادة ، قال الشاعر :

يقول لها وقد دارت وضيئي أهذا دينها أبداً وديني

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ، ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي ، ثم يبقى كل واحد منا على عادته ، حتى تلقوا الشياطين والنار ، وألقى الملائكة والجنة .



﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( لكم دينكم ) يفيد الحصر ، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم ، ولي ديني لا لغيري ، وهو إشارة إلى قوله ( وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ) أى أنا مأمور بالوحى والتبليغ ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول ، فأنا لما فعلت ما كلفتم به خرجت عن عهدة التكليف ، وأما إصراركم على كفركم ، فذلك مما لا يرجع إلى منه ضرر البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(سورة النصر)

(وهي ثلاث آيات مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

(سورة النصر وهي ثلاث آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاء نصر الله) في الآية لطائف :

(إحداها) أنه تعالى لما وعد محمداً بالترية العظيمة بقوله (واسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (إنا أعطيناك الكوثر) لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال يا محمد لم يضيق قلبك، ألسنت حين لم تسكن مبعوثاً لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبايل، وفي أول الرسالة زدت لجملت الطير ملائكة أن يكفيكم (أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف) ثم الآن أزيد فأقول إنى أكون ناصرأ لك بذاتى (إذا جاء نصر الله) فقال إلهى إنما تم النعمة إذا فتحت لى دار مولدى ومسكى فقال (والفتح) فقال إلهى لسن القوم إذا خرجوا، فأى لذة فى ذلك فقال (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) ثم كأنه قال هل تعلم يا محمد بأى سبب وجدت هذه التشرىفات الثلاثة إنما وجدت لأنها قلت فى السورة المتقدمة (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) وهذا يشتمل على أمور ثلاثة (أولها) نصرتى بلسانك فكان جزاؤه (إذا جاء نصر الله) (وثانيها) فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله، والفتح (والثالث) أدخلت رعية جوارحك وأعضائك فى طاعى وعبودى فأنأ أيضاً أدخلت عبادى فى طاعتك، وهو المراد من قوله (يدخلون فى دين الله أفواجا) ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث إلى حضرتى بثلاث أنواع من العبودية تهادوا تحابوا، إن نصرتك فسيح، وإن فتحت مكة فاحمد وإن أسلموا، فاستغفر، وإنما وضع فى مقابلة (نصر الله) تسبيحه، لأن التسبيح هو تنزيهه الله عن مشابهة المحدثات، يعنى تشاهد أنه نصرك، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر، بل اعتقد كونه منزهأ عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً، ثم جعل فى مقابلة فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد، ثم جعل فى مقابلة دخول الناس فى الدين الاستغفار وهو المراد من قوله (واستغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات) أى كثرة الأتباع مما يشغل

القلب بلذة الجاه والقبول ، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك ، واستغفر لذنبهم كما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر ( الوجه الثاني ) أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء في قوله ( يا أيها الكافرون ) كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الحشونة فقال ( لكم دينكم ولي دين ) فقييل يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك ( إذا جاء نصر الله ) نظيره « زويت لى الأرض » يعنى لا تذهب إلى الأرض بل تجىء الأرض إليك ، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة ، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين ( سبحان الذى أسرى بعبده ) بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم أمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقى الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه ( وأزافت الجنة للمتقين ) ( الوجه الثالث ) كأنه سبحانه قال يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تنوم عنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا اعبدا آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال الرحيل الرحيل أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال ، فاستغفره أيها الإنسان لا تحزن من جوع الربيع فعقبيه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فعقبيه وحشة الشتاء ، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه :

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

إلهى لم فعلت كذلك قال حتى لا تضع قلبك على الدنيا بل تكون أبداً على جناح الارتحال والسير ( الوجه الرابع ) لما قال فى آخر السورة المتقدمة ( لكم دينكم ولي دين ) فكانت قال إلهى وما جزأتى فقال نصر الله فيقول وما جزاء عمى حين دعانى إلى عبادة الأصنام فقال ( تبت يدا أبى لهب ) فإن قيل فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا لوجوه ( أحدها ) لأن رحمته سبقت غضبه ( والثانى ) ليكون الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال ( ولي دين ) وهو النصر كقوله ( يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين أسودت وجوههم ) ، ( وثالثها ) الوفاء بالوعد أهم فى الكرم من الوفاء بالانتقام ، فتأمل فى هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر منازل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره ( الوجه الخامس ) أن فى السورة المتقدمة لم يذكر شيئاً من أسماء الله ، بل قال ما أعبد بلفظ ما ، كأنه قال لا أذكر اسم الله حتى لا يستخزروا فتزداد عقوبتهم ، وفى هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها منزلة على الأجيال ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكانت سبحانه قال لا تذكر اسمى مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الأولياء حتى يكرموه ( الوجه السادس ) قال النحويون إذا منصوب بسبح ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله . كأنه سبحانه يقول جعلت الوقت ظرفاً لما تريده وهو النصر والفتح والظفر . وملأت ذلك الظرف من هذه

الاشياء ، وبمئته إليك فلا تردده على فارغاً ، بل املاءه من العبودية ليتحقق معنى «تهادوا تحابوا» فكأن محمداً عليه السلام قال : بأى شئ أملاً ظرف هديتك وأنا فقير ، فيقول الله في المعنى : إن لم تجد شيئاً آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا . لا جرم حصلت المحبة ، فلهذا كان محمد حبيب الله (الوجه السابع) كأنه تعالى يقول : إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس في دينك ، فاشتغل أنت أيضاً بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فإن قلت «لئن شكرتم لازيدنكم» فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة ، ولا تزال تكون في الترقى حتى يصير الوعد بقولى «إنا أعطيناك الكوثر» (الوجه الثامن) أن الإيمان إنما يتم بأمرين : بالنفى والإثبات ، وبالبراءة والولاية . فالنفي والبراءة قوله (لا أعبد ما تعبدون) والإثبات والولاية قوله (إذا جاء نصر الله) فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة .

واعلم أن في الآية أسراراً ، وإنما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب .

(السؤال الأول) ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان متعلقاً ، وظاهر أن النصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ يذكر النصر وعطف الفتح عليه (وثانيها) يحتمل أن يقال النصر كمال الدين ، والفتح الإقبال الدينوى الذى هو تمام النعمة ، ونظير هذه الآية قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) (وثالثها) النصر هو الظفر في الدنيا على المنى ، والفتح بالجنة ، كما قال (وفتحت أبوابها) وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب .

(السؤال الثانى) أن رسول الله ﷺ كان أبدأ منصوراً بالدلائل والمعجزات ، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ (الجواب) من وجهين (أحدهما) المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبيع ، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر الخصوص ، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمدوم ، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) ، (وثانيهما) لعل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذى حكم به لأنبيائه كقوله (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) .

(السؤال الثالث) النصر لا يكون إلا من الله . قال تعالى (وما النصر إلا من عند الله) فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله (نصر الله) ؟ (الجواب) معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذلك ههنا . أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم (متى نصر الله) فيقول هذا الذى سأتموه .

(السؤال الرابع) وصف النصر بالمجىء مجاز وحقيقته إذا وقع نصر الله فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز؟ الجواب فيه إشارات: (إحداها) أن الأمور مربوطة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتها مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر وإليه الإشارة بقوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم)، (وثانيها) أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقاً له بحكم الوعد فالمتقضى كان موجوداً إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقل المعلق فإن ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقل يكون كالمشتاق إلى الهوى، فكذا هنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أن عالم العدم عالم لا نهاية له وهو عالم الظلمات إلا أن في قرعها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع حود الله وإيجاده، ثم اشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت في السيلان، وسيلانها يقتضى في كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين فيحاررحمة الله ونصرته كانت أخذة في السيلان من الأزل فكانه قيل يا محمد قرب ووصولها إليك وبجيتها إليك فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله (بسم الله مجراها ومرساها).

(السؤال الخامس) لا شك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم إنه سمي نصرتهم لرسول الله (نصر الله) فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافاً إلى الله؟ (الجواب) هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر، وذلك لأن فعلهم فعل الله، وتقريره أن أفعالهم مستندة إلى ما في قلوبهم من الدواعي والصوارف، وتلك الدواعي والصوارف أمور حادثة فلا بد لها من محدث وليس هو العبد، وإلا لزم التسلسل، فلا بد وأن يكون هو الله تعالى، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد. فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى، فإن قيل فعلى هذا التقدير الذى ذكرتم يكون فعل العبد مفرعاً على فعل الله تعالى. وهذا يخالف النص، لأنه قال (إن تنصروا الله ينصركم) فجعل نصرنا له مقدماً على نصره لنا (والجواب) أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل، فيصير ذلك سبباً لصدور فعل عنا. ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كلفيته أكثر العقول البشرية.

(السؤال السادس) كلمة (إذا) للمستقبل، فهنا لما ذكر وعداً مستقبلاً بالنصر، قال (إذا جاء نصر الله) فذكر ذاته باسم الله، ولما ذكر النصر الماضى حين قال (وإن جاء نصر من ربك

والفتح<sup>صه</sup> «١»

ليقول ( فذكره بلفظ الرب ، فما السبب في ذلك ؟ ) ( الجواب ) لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار رباً ، وقوله ما كان رباً لكان كان إلهاً .

( السؤال السابع ) أنه تعالى قال ( إن تنصروا الله ينصركم ) وإن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال ( يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله ، فلا جرم قال ( إذا جاء نصر الله ) فهل نقول بأن هذا النصر كان واجباً عليه ؟ ( الجواب ) أن ما ليس بواجب قد يصير واجباً بالوعد ، ولهذا قيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده ، وعلى المولى نصرة عبده ، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحداً اتفاقاً ، وإن كان مشغولاً بصلاته نفسه . ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى فوعد مع الكرم وهو أرف بعبد من الوالد بولده والمولى بعبد وهو ولي بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة ، وقيام للتدبير وواحد فرد لثاني له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده ، فلهاذا قال ( إذا جاء نصر الله ) .

أما قوله تعالى ( والفتح ) ففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذي يقال له فتح الفتوح روى أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة وكانوا في عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فغضب ذلك عليه ، ثم قال أما إن هذا العارض ليخبرني أن الظفر يحى من الله . ثم قال لأصحابه انظروا فإن أبا سفيان يحى ويلتمس أن يجد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكابر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك ورجع إلى مكة آيساً وتجهز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكة ، ثم روى أن سارة مولاة بعض بني هاشم أنت المدينة فقال عليه السلام لها جئت مسلمة ؟ قالت لالكن كنتم الموالي وبني حاجة ، فحث عليها رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب فسكسوها وحملوها وزودوها فأناها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتاباً إلى مكة نسخته : اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وعماراً في جماعة وأمرهم أن يأخذوا الكتاب وإلا فاضربوا عنقها ، فلما أدر كوها جحدت وحلفت فسل على عليه السلام سيفه ، وقال والله ما كذبنا فأخرجه من عقيصة شعرها ، واستحضر النبي حاطباً وقال ما حملك عليه ؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا أحببتهم منذ فارقتم ، لکن كنت غريباً في قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم بداً ، فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق

فقال وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما كنتم قد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ، ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بحر الظهران ، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمره خاصة فقال أبو سفيان ، إما أن تأذن لي وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعاً وعطشاً فرق قلبه ، فأذن له وقال له : ألم يأن أن تسلم وتوحد؟ فقال أظن أنه واحد ، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا ، فقال : ألم يأن أن تعرف أني رسوله ؟ فقال إن لي شكاً في ذلك ، فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر . فقال : وماذا أصنع بالعزى ، فقال عمر لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك ، فقال : يا محمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصلح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك ، و[لا] تعرضهم للشز والعار ، فقال عليه السلام : هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي ، وأهل مكة أخرجوني وظلموني ، فإن هم أسروا فيسروهم ، وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتيبة تمر عليه ، فيقول من هذا ؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يرى منها إلا الحدق ، فسأل عنهم ، فقال العباس : هذا رسول الله . فقال أوتى ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال العباس : هو النبوة ، فقال هيهات النبوة ، ثم تقدم ودخل مكة ، وقال إن محمداً جاء بمسكر لا يطيقه أحد ، فصاحت هند وقالت : اقبلوا هذا المبشر ، وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه ، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعا شديداً وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً ، ثم التمس أبو سفيان الأمان ، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقال : ومن تسع داري ، فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن فقال : ومن يسع المسجد ، فقال : من أتقى سلاحه فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد ، وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ثم قال : يا أهل مكة ما ترون في فاعل بكم ، فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فانتم الطلقاء فاعتقهم ، ولذلك سمي أهل مكة الطلقاء ، ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمعاوية أني يستوى المرئي والمعتق يعني اعتقناكم حين مكنتنا الله من رقابكم ولم يقل اذهبوا فانتم معتقون ، بل قال : الطلقاء ، لأن المعتق لا يجوز أن يرد إلى الرق ، والمطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر . فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان ، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء ، والمطلقة تجلس في البيت للعدة ، وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ، ثم إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجا ، روى أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات : أربعة صلاة الضحى ، وأربعة أخرى شكر الله نافلة ، فهذا هو



## وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢٥﴾

قصة فتح مكة ، والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة ، وعمّا يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر . وقد كان يجد النصر دون الفتح كيدر ، والفتح دون النصر كاجلاء بنى النضير ، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم ، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح ، وصار الخلق له كالآراء حتى أعتقهم ( القول الثاني ) أن المراد فتح خيبر ، وكان ذلك على يد علي عليه السلام ، والقصة مشهورة ، روى أنه استصحب خالد بن الوليد ، وكان يساميه في الشجاعة ، فلما نصب السلم قال لخالد : أنتقدم ؟ قال لا ، فلما تقدم علي عليه السلام سأله كم صعدت ؟ فقال لا أدري لشدة الخوف ، وروى أنه قال لعلي عليه السلام ألا تصارعني ، فقال ألسنت صرعتك ؟ فقال نعم لكن ذاك قبل إسلامي ، ولعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يتمتع عنه علي ، أو كان علي يقول صرعتك حين كنت كافراً ، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعتك ( القول الثالث ) أنه فتح الطائف وقصته طويلة ( والقول الرابع ) المراد النصر على الكفار ، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق ، وهو قول أبي مسلم ( والقول الخامس ) أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم ، ومنه قوله ( وقل رب زدني علماً ) لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوفاً بانسراح الصدر وصفاء القلب ، وذلك هو المراد من قوله ( إذا جاء نصر الله ) ويمكن أن يكون المراد بنصر الله اعانته على الطاعات والخيرات ، والفتح هو انفتاح عالم المعقولات والروحانيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فليتناس في وقت نزول هذه السورة قولان ( أحدهما ) أن فتح مكة كان سنة ثمان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، ولذلك سميت سورة التوديع ( والقول الثاني ) أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى ( إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) وقوله ( إذا جاء نصر الله والفتح ) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء وإذا وقع ، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ، والإخبار عن الغيب معجز ( فإن قيل ) لم ذكر النصر مضافاً إلى الله تعالى . وذكر الفتح بالألف واللام ؟ ( الجواب ) الألف واللام للبهود السابق ، فينصرف إلى فتح مكة .

قوله تعالى ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت يحتمل أن يكون معناه أبصرت ، وأن يكون معناه علمت ، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون في محل النصب على الحال ، والتقدير : ورأيت الناس حال دخولهم

في دين الله أفواجاً ، وإن كان معناه علمت كان يدخلون في دين الله مفعولاً ثانياً لعلمت ، والتقدير : علمت الناس داخلين في دين الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر لفظ الناس للعموم ، فيقتضى أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك ( الجواب ) من وجهين ( الأول ) أن المقصود من الإنسانية والعقل ، إنما هو الدين والطاعة ، على ما قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) فمرأعرض عن الدين الحق وبقى على الكفر ، فكأنه ليس بإنسان ، وهذا المعنى هو المراد من قوله ( أولئك كالأنعام بل هم أضل ) وقال ( آمنوا كما آمن الناس ) وسئل الحسن بن علي عليه السلام : من الناس ؟ فقال نحن الناس ، وأشياعنا أشباه الناس ، وأعداؤنا النسناس ، فقبله على عليه السلام بين عينيه ، وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن قيل إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير ، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم ؟ قلنا هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله ، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره ، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه . ويمدحه هذا المدح العظيم ، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان : أتيت وإن كنت قد أتيت . ويروى أنه عليه السلام قال « لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواصل ، والظالم النوارى » والمعنى كان الرب تعالى يقول ربيته سبعين سنة ، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار ، فحينئذ يضيع إحسانى إليه في سبعين سنة ، فكلمة كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولاً ( الوجه الثانى ) فى الجواب ، روى أن المراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت هذه السورة ، قال رسول الله ﷺ « الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية ، وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين إن إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية ، قالوا إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنى على محمد عليه السلام ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً لما ذكره فى هذا المعرض ، ثم انا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية والمكان والحيز ولا إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضرورى ، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح ، ولا يقال إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالماً بهذه التفاصيل ، لأننا نقول إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركباً من عشر مقدمات ، فن علم تسعة

منها ، وكان في المقدمة العاشرة مقلداً كان في النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عالماً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحالة كون غيره أعرف منه بذلك الدليل ، لأن تلك الزيادة إن كانت جزءاً معتبراً في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل ، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة ، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية ، وإن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمراً منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول ، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة والنقصان ، فأما أن يقال إن أولئك الأعراب كانوا عالين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة . وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك . فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين ، وبما يؤكد ما ذكرنا ماروى عن الحسن أنه قال لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل . وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال ، هذا ما رواه الحسن ، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بحجيد ، فعلمنا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين .

( المسألة الرابعة ) دين الله هو الإسلام لقوله تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) وقوله ( ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ) وللدن أسماء أخرى ، منها الإيمان قال الله تعالى ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) ومنها الصراط قال تعالى ( صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ) ومنها كلمة الله ، ومنها النور ( ليطفئوا نور الله ) ومنها الهدى لقوله ( يهدي به من يشاء ) ومنها العروة ( فقد استمسك بالعروة الوثقى ) ومنها الحبل ( واعتصموا بحبل الله ) ومنها صبغة الله ، وفطرة الله ، وإنما قال ( في دين الله ) ولم يقل في دين الرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين ( الأول ) أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول ( والثاني ) لو قال دين الرب لسكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قوله لأنه رباك ، وأحسن إليك وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلا يكون الإخلاص حاصلًا ، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أني إله لا أنفع يعود إليك .

( المسألة الخامسة ) الفوج الجماعية الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين وإثنين ، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له ما يبكيك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » فعوذ بالله من السلب بعد العطاء .

فَسِيحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى ﴿ فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ، ولهذا الترتيب فوائد :  
 ﴿ الفائدة الأولى ﴾ اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمداً كان على الحق مما يشغل على القلب ويقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلم لاتصرتي ولم سلطات هؤلاء الكفرة على فلاجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح ، أما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما فعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئاً ، وأما على قول المعتزلة ففائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي تخيئذ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر ، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه ( الوجه الثاني ) أن للسائرين طريقين فمنهم من قال ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده ، ومنهم من قال ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، ولا شك أن هذا الطريق أكمل . أما بحسب المعالم الحسكية ، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر ، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود ، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة ، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل ، وإذا ثبت هذا فنقول : الآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين وذلك لأنه قدم الاشتغال بالخائق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخائق أمرين ( أحدهما ) التسبيح ( والثاني ) التمجيد ، ثم ذكروا في المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة مزوجة من الالتفات إلى الخائق وإلى الخلق .

واعلم أن صفات الحق محصورة في السلب والإيجاب والنفي والإثبات والسلوب مقدمة على الإيجابيات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لواجب الوجود وهي صفات الجلال ، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له ، وهي صفات الإكرام . ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام ، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس ، وفيه رؤية جود الحق ، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس . ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروماً عن مطالعة حضرة جلال الله ، فلهذه الدقيقة أخرج ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد ( الوجه الثالث ) أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكوتية . وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل

متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل آحر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) بقوله ههنا (فسبح بحمد ربك) إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم (ونحن نسبح بحمدك) وقوله ههنا (واستغفره) إشارة إلى قوله تعالى (ونقدس لك) لأنهم فسروا قوله (ونقدس لك) أى نجمل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك والاستغفار يرجع معناه أيضاً إلى تقديس النفس ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سجدوا بحمدى ورأوا ذلك من أنفسهم . وأما أنت فسبح بحمدى واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيق وإحسانى ، ويحتمل أن يقال الملائكة كما قالوا فى حق أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) قال الله فى حقهم (ويستغفرون للذين آمنوا) فانت يا محمد استغفر للذين جاؤا أفراجاً كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون (ربنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) (الوجه الرابع) التسميح هو التطهير . فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام وكسرها ثم قال (بحمد ربك) أى ينبغى أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك ، وإعانتة وتقويته ، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغى أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللائقة به ، بل يجب أن ترى نفسك فى هذه الحالة مقصرة ، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك فى طاعته (والوجه الخامس) كأنه تعالى يقول يا محمد إما أن تكون معصوماً أو لم تكن معصوماً فإن كنت معصوما فاشتغل بالتسبيح والتحميد ، وإن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف فى العبودية كما قال (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

(المسألة الثانية) فى المراد من التسبيح وجهان (الأول) أنه ذكر الله بالتنزيه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال تنزيه الله عن كل سوء وأصله من سبح فإن السابح يسبح فى الماء كالطير فى الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتعبيد لأنك تسبحه أى تبعده عما لا يجوز عليه ، وإنما حسن استعماله فى تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات والفعل نفياً وإثباتاً لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة فكذلك الحق سبحانه لا يقبل ما لا ينبغى البتة فاللفظ يفيد التنزيه فى الذات والصفات والأفعال (والقول الثانى) أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد فى القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى (ف سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) والذى يؤكد أن هذه السورة من آخر ما نزل . وكان عليه السلام فى آخر مرضه يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » جعل يلجأها فى صدره وما يقبض بها أسانه ، ثم قال بعضهم : عنى به صلاة الشكر صلاحها يوم الفتح ثمان ركعات وقال آخرون هى صلاة الضحى . وقال آخرون : صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة للضحى وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لا تنفك عنه (وفيه تنبيه) على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص فى الأقوال والأفعال ، واحتج

أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك ، روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك . وقالت أيضاً كان الرسول يقول كثيراً في ركوعه سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي وعنها أيضاً كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان الله وبحمده فقلت يا رسول الله إنك تكثر من قول سبحان الله وبحمده قال إني أمرت بها ، وقرأ ( إذا جاء نصر الله ) وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور » وروى أنه قال « إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافياً في أداء ما واجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ، ولم لا يكون كذلك وقوله « الصوم لي » من أعظم الفضائل للصوم فإنه أضافه إلى ذاته ، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم في هذا التشريف ( وأن المساجد لله ) فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير ، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال ( ولذكري الله أكبر ) وكيف لا يكون كذلك ، وإنشاء عليه بما مدحه معلوم عقلا وشرعاً . أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالرصعة من التسبيح والتكبير . فإن قيل عدم وجوب التسبيحات يقتضى أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة . قلنا الجواب عنه من وجوه : ( أحدها ) أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح والتهليل فالعقل داع إليه والروح عاشق عليه فاكتمى بالحلب الطبيعي ولذلك قال ( والذين آمنوا أشد حبا لله ) ، ( وثانيها ) أن قوله ( فسبح ) أمر والأمر المطابق للوجوب عند الفقهاء ، ومن قال الأمر المطابق للندب قال إنه ههنا للوجوب بقريظة أنه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ( وثالثها ) أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهاراً لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما الحمد فقد تقدم تفسيره . وأما تفسير قوله ( فسبح بحمد ربك ) فذكروا فيه وجوهاً : ( أحدها ) قال صاحب الكشف أى قل ( سبحان الله والحمد لله ) متعجباً مما أراك من عجيب انعمائه أى اجمع بينهما تقول شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خطأ وشراباً ( وثانيها ) أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد لأن الثناء عليه والشكر له لا بد وأن يتضمن تزيهه عن النقائص لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال الحمد لله الذى نصر عبده ، ولم يفتح كلامه بالتسبيح فقوله ( فسبح بحمد ربك ) معناه سبحه بواسطة أن تحمده أى سبحه بهذا الطريق ( وثالثها )

أن يكون حالاً ، ومعناه سبح حامداً كقولك اخرج بسلاحك أى متسلحاً ( ورابعها ) يجوز أن يكون معناه سبح مقدراً أن تحمد بعد التسبيح كأنه يقول لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوى الصلاة مقدراً أن تنحر بعدها . فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة كذا ههنا ( وخامسها ) أن تكون هذه الباء هي التي في قولك : فعلت هذا بفضل الله ، أى سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه ، لا بحمد غيره . ونظيره في حديث الإيفك قول عائشة « بحمد الله لا بحمدك » والمعنى : فسبحه بحمده . فإنه الذي هداك دون غيره ، ولذلك روى أنه عليه السلام كان يقول « الحمد لله على الحمد لله » ( وسادسها ) روى السدى بحمد ربك ، أى بأمر ربك ( وسابعها ) أن تكون الباء صلة زائدة ، ويكون التقدير : سبح حمد ربك ، ثم فيه احتمالات ( أحدها ) اختر له أظهر المحامد وأزكاها ( والثاني ) طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة ، والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة ( والثالث ) طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به . وإليه الإشارة بقوله ( وما قدروا الله حق قدره ) ( وثامنها ) أى اثبت بالتسبيح بدلا عن الحمد الواجب عليك ، وذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم . ونعم الله علينا غير متناهية ، فحدها لا يكون في وسع البشر ، ولذلك قال ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) فكأنه تعالى يقول : أنت عاجز عن الحمد ، فأنت بالتسبيح والتنزيه بدلا عن الحمد ( وتاسعها ) فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمران لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني ، ولا يتصور أيضاً أن يؤتى بهما معاً ، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب ، وجب أن يقول : احترت الشفعة بردى ذلك المبيع ، كذا قال ( فسبح بحمد ربك ) ليقعاً معاً ، فيصير حامداً مسبحاً في وقت واحد معاً ( وعاشرها ) أن يكون المراد سبح قلبك ، أى طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك ، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله ، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وسعيك وجهدك ، فقوله ( فسبح ) إشارة إلى نفي ما سوى الله تعالى ، وقوله ( بحمد ربك ) إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى .

( المسألة الخامسة ) في قوله ( واستغفره ) وجوه ( أحدها ) لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم من آذاه ، ويسأل الله أن ينصره ، فلما سمع ( إذا جاء نصر الله ) استبشر ، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنفصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام ، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم ؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن الباع حرفته يبيع الأمتعة التي عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعته منه ، سواء كان المشتري عدواً أو ولياً ، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكياً أو مدنياً ، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم



( لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ) أى أمرنى أن أستغفر لكم فلا يجوز أن يردنى ( وثانيها ) أن قوله ( واستغفره ) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمته ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فمن قال صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهاً : ( أحدها ) أنه لا يتمتع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة ( وثانيها ) لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار ( وثالثها ) لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جباراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً ، وأما من قال ما صدرت المعصية عنه فذكر في هذا الاستغفار وجوهاً : ( أحدها ) أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار ( وثانيها ) تعبد الله بذلك ليقضى به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته ، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغنى عن الاستغفار فكيف من دونه ( وثالثها ) أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل ( ورابعها ) أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد وإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر الله لأجل ذلك ( وخامسها ) الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لاجرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية ، أما الاحتمال ( الثاني ) وهو أن يكون المراد واستغفر لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر ، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله ( واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ) فهنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهكذا إذا قلنا المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته .

( المسألة السادسة ) في الآية إشكال ، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم على التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب في أن صار مذكوراً على العكس من هذا الترتيب ؟ ( وجوابه ) من وجوه ( أولها ) لعلة ابتداء بالأشرف ، فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس ، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق ( وثانيها ) فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه ( وثالثها ) التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق [الله] ، والأول كالصلاة ، والثاني كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة ، فكذا ههنا .

( المسألة السابعة ) الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ، وذلك من وجوه ( أحدها ) أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة

إلى كل الأمة حتى يبق نقل القرآن متوازراً ، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بقبليغ الوحى ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض ( وثانيها ) أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة ( وثالثها ) أن الأغلب فى الشاهد أن يأتي بالحمد فى ابتداء الأمر ، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفى كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال واستغفره حين نعت نفسه إليه ليفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

( المسألة الثامنة ) فى الآية سوآلات ( أحدها ) وهو أنه قال ( إنه كان تواباً ) على الماضى وحاجتنا إلى قبوله فى المستقبل ( وثانيها ) هلا قال غفاراً كما قاله فى سورة نوح ( وثالثها ) أنه قال ( نصر الله ) وقال ( فى دين الله ) فلم لم يقل بحمد الله بل قال ( بحمد ربك ) ( والجواب ) عن الأول من وجوه ( أحدها ) أن هذا أبلغ كأنه يقول ألسنت أئذيت عليكم بأنكم ( خير أمة أخرجت للناس ) ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفاق البحر وتقى الجبل ، ونزول المن والسلى عصوا ربهم . وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً للتوبة من دونكم أفلا أقبلكم ( وثانيها ) منذ كثير كنت شرعت فى قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف فى كرم الرحمن ( وثالثها ) كنت تواباً قبل أن أمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار ( ورابعها ) كأنه إشارة إلى تخفيف جناباتهم أى لستم بأول من جنى وتاب بل هر حرقى ، والجنابة مصيبة للجاني والمصيبة إذا عمّت خفت ( وخامسها ) كأنه نظير ما يقال : لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

( والجواب ) عن السؤال الثانى من وجوه ( أحدها ) لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال فى صفات العبد غفار ، ويقال تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالى كنت لى سميأ من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى مختلفاً فبى حتى تصير سميأ لى فى آخر الأمر ، فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب فى حق الله ، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فبى على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً ( وثانيها ) إنما قيل تواباً لأن القائل قد يقول أستغفر الله وليس بتائب ، ومنه قوله « المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزى . بربه » إن قيل فقد يقول أتوب ، وليس بتائب ، فلما فإذا يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه . فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمار ، وروى أنه لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار ( والجواب ) عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين ( أحدهما ) الرب ( والثانى ) التواب ، ولما كانت التربية تحصل أولاً والتواوية آخرأ ، لاجرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخرأ .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعى لرسول الله ﷺ روى أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال نعت إليك نفسك فقال الأمر كما تقول ، وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً » روى أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبدالرحمن أأذن لهذا الفتى معنا ، وفى أبنائنا من هو مثله ؟ فقال لأنه من قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم فسألهم عن قول الله ( إذا جاء نصر الله ) وكأنه ماسألهم إلا من أجلى فقال بعضهم أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت ليس كذلك ولكن نعت إليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها إلا مثل ماتعلم ، ثم قال كيف تلوه وتنى عليه بعد ما زون ، وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال « إن عبداً خيرته الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختر لقلاه الله » فقال السائل وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى ؟ (الجواب) من وجوه ( أحدها ) قال بعضهم إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير ( وثانها ) أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس فى الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يعقبه الزوال كما قيل :

إذا تم شيء دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

( وثالثها ) أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبية على أن أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقى بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز ( ورابعها ) قوله ( واستغفره ) تنبيهه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر . ونهيه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة ( وخامسها ) كأنه قيل له كان منتهى مطلوبك فى الدنيا هذا الذى وجدته ، وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله تعالى وعذك بقوله « والآخرة خير لك من الأولى » فلبوا جدت أقصى مرادك فى الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة . وأما الذين قالوا إنها نزلت بعد فتح مكة ، فذكر الماوردى أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يوماً مستديماً للتسبيح والاستغفار ، وقال مقاتل عاش بعدها حولا ونزل ( اليوم أكملت لكم دينكم ) فعاش بعده ثمانين يوماً ثم نزل آية الكلاله ، فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ثم نزل ( واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ) فعاش بعدها أحد عشر يوماً وفى رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم كيف كان ذلك .

## سورة أبي لهب

( خمس آيات مكية بالاتفاق )

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أنه تعالى قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) ثم بين في سورة ( قل يا أيها الكافرون ) أن محمداً عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفي عبادة الشركاء والأضداد وأن الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد ، فكانه قيل : إلهنا ما ثواب المطيع ، وما عقاب العاصي ؟ فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستعلاء في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى ، كما دل عليه سورة ( إذا جاء نصر الله ) وأما عقاب العاصي فهو الخسار في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى كما دلت عليه سورة ( تبت ) ونظيره قوله تعالى في آخر سورة الأنعام ( وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ) فكانه قيل إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز ، فما السبب في هذا التفاوت ؟ فقال ( ليلوكم فيما آتاكم ) فكانه قيل إلهنا فإذا كان العبد مذنّباً عاصياً فكيف حاله ؟ فقال في الجواب ( إن ربك سريع العقاب ) وإن كان مطيعاً متقادماً كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفوراً سيّئانه في الدنيا رحيماً كريماً في الآخرة ، وذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوهاً ( أحدها ) قال ابن عباس كان رسول الله يكتّم أمره في أول المبعث ويصلى في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى ( وأندر عشيرتك الأقربين ) فصعد الصفا ونادى يا آل غالب نخرجت إليه غالب من المسجد فقال أبو لهب هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى يا آل لؤى فرجع من لم يكن من لؤى فقال أبو لهب هذه لؤى قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة ، فقال أبو لهب هذه مرة قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل كلاب ، ثم قال بعده يا آل قصي ، فقال أبو لهب هذه قصي قد أتتك فما عندك ؟ فقال إن الله أمرني أن أندر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون ، املوا أنى لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال أبو لهب عند ذلك تبا لك ألهذا دعوتنا ، فنزلت السورة ( وثانيها ) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال يا أصحاباه فاجتمع إليه قريش فقالوا مالك ؟ قال أرايتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني ؟ قالوا بلى قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال عند ذلك أبو لهب ما قال فنزلت السورة ( وثالثها ) أنه جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً في صحفة فاستحقروه وقالوا إن أحدنا يأكل كل الشاة ، فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلا اليسير ، ثم قالوا فما عندك ؟ فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو لهب ما قال ، وروى أنه قال أبو لهب فإلى إن أسلمت فقال ما للمسلمين ، فقال أفلا أفضل عليهم ؟ فقال

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

النبي عليه الصلاة والسلام بماذا تفضل ! فقال تباً لهذا الدين يستوى فيه أنا وغيرى ( ورابعها ) كان إذا وفد على النبي . وفد سألوا عمه عنه وقالوا أنت أعلم به فيقول لهم إنه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأناؤه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا نتصرف حتى نراه فقال إنالم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فحزن ونزلت السورة .

قوله تعالى ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ اعلم أن قوله ( تبت ) فيه أفاديل ( أحدها ) التباب الهلاك ، ومنه قولهم شابة أم نابة أى هالكة من الهرم ، ونظيره قوله تعالى ( وما كيد فرعون إلا فى تباب ) أى فى هلاك ، والذي يقرر ذلك أن الأعرابي لما وافع أهله فى نهار رمضان قال : هلكت وأهلكت ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك ، فدل على أنه كان صادقاً فى ذلك ، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلاً فى الإيمان ، أو إن كان داخلاً لكتنه أضعف أجزائه ، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك ، ففى حق أبى لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل ، وحصل وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك ، فلهذا قال ( تبت ) ( وثانيها ) تبت خسرت ، والتباب هو الخسران المفضى إلى الهلاك ، ومنه قوله تعالى ( وما زادهم غير تنبيىب ) أى تحسير بدليل أنه قال فى موضع آخر غير تحسير ( وثالثها ) تبت خابت ، قال ابن عباس لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله إنه ساحر ، فيصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لايتهم ، فلما نزلت السورة وسمعها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهماً فلم يقبل قوله فى الرسول بعد ذلك ، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ، ولعله إنما ذكر البتد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه ، فيقول انصرف راشداً فإنه مجنون ، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع ( ورابعها ) عن عطاء تبت أى غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هى العليا وأنه يخرج من مكة ويذله ويغلب عليه ( وخامسها ) عن ابن وثاب : صفرت يده عن كل خير ، إن قيل ما فائدة ذكر اليد ؟ قلنا فيه وجوه ( أحدها ) ما يروى أنه أخذ حجراً ليرمى به رسول الله ، روى عن طارق المحاربى أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد آدمى عقيبه ،

## وَتَبَّ ١١

لا تطعموه فيه كذاب . فقلت من هذا ، فقالوا : محمد وعمه أبولهب ( وثانها ) المراد من  
اليدى الجملة كقوله تعالى ( ذلك بما قدمت يداك ) ومنه قولهم : يداك أو كتبا ، وقوله تعالى ( بما  
عملت أيدينا ) وهذا التأويل متأكد بقوله ( وتب ) ( وثانها ) تببت يده أى دينه  
ودنياه أولاه وعقباه ، أو لأن ياحدى اليدى تجر المنفعة ، وبالأخرى تدفع المضرة ، أو لأن  
اليمى سلاح والأخرى جنة ( ورابعها ) روى أنه عليه السلام لما دعاه نهاراً فأبى . فلما جن الليل  
ذهب إلى داره مستمّاً بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له جئتى معتذراً  
بجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج ، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : إن كان يمنعك العار  
فأجبنى في هذا الوقت واسكت ، فقال لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدى ، فقال عليه الصلاة  
والسلام للجدى : من أنا ؟ فقال رسول الله . وأطلق لسانه يثنى عليه ، فاستولى الحسد على أبى لهب ،  
فأخذ يدى الجدى ومزقه وقال : تبأ لك أثر فيك السحر ، فقال : الجدى . بل تبأ لك ، فنزلت  
السورة على وفق ذلك ( تببت يدا أبى لهب ) ليمزقه يدى الجدى ( وخامسها ) قال محمد بن إسحق :  
يروى أن أبالهب كان يقول : يعدنى محمد أشياء . لا أرى أنها كاتنة يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع  
في يدى من ذلك شيئاً ، ثم يتفخ في يديه ويقول : تبأ لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فنزلت السورة .  
أما قوله تعالى ﴿ وتب ﴾ ففيه وجوه ( أحدها ) أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله  
( قتل الإنسان ما أ كفره ) والثاني مخرج الخبر أى كان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود  
وقد تب ( وثانها ) كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالاول هلاك عمله ، وبالثناني هلاك نفسه  
ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصاحبة نفسه وعمله ، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين ( وثانها )  
( تببت يدا أبى لهب ) يعنى ماله ومنه يقال ذات اليد ( وتب ) هو بنفسه كما يقال ( خسروا أنفسهم  
وأهلهم ) وهو قول أبى مسلم ( ورابعها ) ( تببت يدا أبى لهب ) يعنى نفسه ( وتب ) يعنى ولده  
عتبة على ما روى أن عتبة بن أبى لهب خرج إلى الشام مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا  
قال لهم عتبة بلعوا محمدأعنى أنى قد كفرت بالنجم إذا هوى . وروى أنه قال ذلك في وجه رسول الله  
وتقل في وجهه ، وكانم بالعاقى عداوته . فقال اللهم ساطط عليه كلباً من كلابك فوقع الرعب في قلب عتبة وكان  
يحترز فسار ليلة من الليالى فلما كان قريباً من الصبح ، فقال له أصحابه هل سكت الركاب فما زالوا به حتى  
نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل  
الأسد يتخلل حتى افترسه ومزقه ، فإن قيل نزول هذه الـورة كان قبل هذه الواقعة . وقوله  
( وتب ) إخبار عن الماضى ، فكيف يحمل عليه ؟ قلنا لأنه كان في معلومه تعالى أنه يحصل ذلك

( وخامسها ) ( تبث يدا أبي لهب ) حيث لم يعرف حق ربه ( وتب ) حيث لم يعرف حق رسوله وفي الآية سوالات :

( السؤال الأول ) لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتسكنية من باب التعظيم ؟ ( والجواب ) عن الأول أن التسكنية قد تكون اسماً ، ويؤيده قراءة من قرأ تبث يدا أبو لهب كما يقال علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كنانهم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه ( أحدها ) أنه لما كان اسماً خرج عن إفادة التعظيم ( والثاني ) أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته ( والثالث ) أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير ( الرابع ) كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تمكياً واحترافاً له .

( السؤال الثاني ) أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبى الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق ، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له ( لارجنك واحجرتني ملياً ) قال ( سلام عليك سأستغفر لك ربى ) وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولطرون ( فقول لا قولاً لينا ) مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبي لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصاً ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ما كانوا يهتمونه ، لأنه كان كالآب له ، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة مهمماً في القدر في محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك ( وثانيها ) أن الحكمة في ذلك ، أن محمداً لو كان يدهن أحداً في الدين ويسأحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسأحة مع عمه الذى هو قائم مقام أبيه ، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطلاع وعلم كل أحد أنه لا يسأح أحداً في شئ يتعلق بالدين أصلاً ( وثالثها ) أن الوجه الذى ذكرتم كالمعارض ، فإن كونه عمّاً يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه . فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم .

( السؤال الثالث ) ما السبب في أنه لم يقل قل ( تبث يدا أبي لهب وتب ) وقال في سورة الكافرون ( قل يا أيها الكافرون ) ؟ ( الجواب ) من وجوه ( الأول ) لأن قراءة العمومة تقتضى



## مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢٥﴾

رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشم بما خلافاً للسورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماماً له ( الثاني ) أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى يا محمد أجب عنهم ( قل يا أيها الكافرون ) وفي هذه السورة طعنوا في محمد ، فقال الله تعالى أسكت أنت فإني أشتمهم ( تبت يدا أبي لهب ) ( الثالث ) لما شتموك ، فأسكت حتى تدرج تحت هذه الآية ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) وإذا أسكت أنت أكون أنا المحيب عنك ، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فتى ساكتاً ، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويذره ، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول ، فقال أبو بكر : ما السبب في ذلك ؟ قال : لأنك حين كنت ساكتاً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجه الشيطان .

واعلم أن هذاتبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفه كان الله ذاباً عنه وناصراً له ومعيناً .  
 ﴿ السؤال الرابع ﴾ ما الوجه في قراءة عبدالله بن كثير المسكى حيث كان يقرأ ( أبي لهب ) ساكنة الهاء ؟ ( الجواب ) قال أبو علي يشبهه أن يكون لهب ولهب لعتين كالشمع والشمع والنهر والنهر ، وأجمعوا في قوله ( سيصلى ناراً ذات لهب ) على فتح الهاء ، وكذا قوله ( ولا يغني من اللهب ) وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان ، وقال غيره إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوافق الفواصل .

قوله تعالى ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما في قوله ( ما أغنى ) يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفيًا ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أى تأثير كان لهاله وكسبه في دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحد أكثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه (١) ، ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه ، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخباراً بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما كسب مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعنى مكسوبه أو كسبه . يروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أحمى حقاً فأنا أفندي منه نفسى بمالى وأولادى ، فأزل الله تعالى هذه الآية ، ثم ذكروا في المعنى وجوهاً : ( أحدها ) لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعنى رأس المال والأرباح ( وثانيها ) أن المال هو المشاشية وما كسب من نسلها ، وتناجها ، فإنه كان صاحب النعم والتناج ( وثالثها ) ( ماله ) الذى ورثه من أبيه والذى كسبه بنفسه ( ورابعها ) قال ابن عباس ( ما كسب ) ولده ، والدليل عليه قوله عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » وقال عليه السلام « أنت ومالك لأبيك » وروى أن بنى أبى لهب احتسبوا إليه فاقنتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقه ، فغضب فقال أخرجوا عنى الكسب

(١) المناسب هنا أن يقول فهل دفع الخلف عنه . لئلا تصعبه الآية الكريمة ( نخسنا به وبيداره الأرض ) .

## سَيَصَلِّي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ «٣»

الحيث ( وخامسها ) قال الضحاك ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعنى كيده فى عداوة رسول الله ( وسادسها ) قال قتادة ( وما كسب ) أى عمله الذى ظن أنه منه على شئ . كقوله ( وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ) وفى الآية سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال ههنا ( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) وقال فى سورة ( والليل إذا يعشى ) . ( وما يغنى عنه ماله إذا تردى ) فما الفرق ؟ ( الجواب ) التعبير بلفظ الماضى يكون أكد كقوله ( ما أغنى عنى ماله ) وقوله ( أنى أمر الله ) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما أغنى عنه ماله وكسبه فيماذا ؟ ( الجواب ) قال بعضهم فى عداوة الرسول فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم بل لم يغنيا عنه فى دفع النار ولذلك قال ( سيصلى ) .  
قوله تعالى ﴿ سيصلى ناراً ذات لب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما أخبر تعالى عن حال أبى لهب فى الماضى بالتياب بأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه ، أخبر عن حاله فى المستقبل بأنه ( سيصلى ناراً ) .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ ( سيصلى ) قرى . بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه ( أحدها ) الإخبار عنه بالتياب والخسار ، وقد كان كذلك ( وثانيها ) الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده . وقد كان كذلك . روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبيد المطاب وكان الإسلام دخل بيتنا . فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا . وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه ، وكان أبو لهب يتخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلاً آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فى أنفسنا قوة ، وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح ألحياً فى حجرة زهم ، فكنت جالساً هناك وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جامنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجله ، فجلس على طناب الحجرة وكان ظهرى إلى ظهره ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطاب . فقال له أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أختى ؟ فقال لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا ، وإيم الله مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل باق بين السماء والأرض ، قال أبو رافع : فرفعت طناب الحجرة ، ثم قلت أولئك والله الملائكة ، فأخذنى وضربنى على الأرض ، ثم برك على فصربنى وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربته على رأسه وشجته ، وقالت تستضعفه أن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال ، فانصرف ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ،

## وامرأته حمالة الحطب «٤»

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتى أنن في بيته ، وكانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون ، وقالوا تخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه . فهذا معنى قوله ( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) ( وثالثها ) الإخبار بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

( المسألة الرابعة ) احتج أهل السنة على وقوع تكليف مالا يطاق بأن الله تعالى كلف أباهب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه ، وبما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأنه يؤمن بأنه لا يؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال . وأجاب السكعي وأبو الحسين البصري بأنه لو آمن أبو لهب لكان لهذا الخبر خبراً بأنه آمن ، لا بأنه ما آمن ، وأجاب القاضي عنه فقال متى قيل لو فعل الله ما أخبر أنه لا يفعله فكيف يكون ؟ فجوابنا أنه لا يصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم .

واعلم أن هذين الجوابين في غاية السقوط ، أما ( الأول ) فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع ، والخبر الصادق عن عدم إيمانه يتأفیه وجود الإيمان منافاة ذاتية بمتعة الزوال فإذا كان كلفه أن يأتي بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين .

وأما الجواب ( الثاني ) فأرك من الأول لأننا لسنا في طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم ، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقاً ، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية ، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفاً بالجمع بين الضدين ، وهذا الإشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئاً أو بقي ساكناً .

أما قوله تعالى ( وامرأته حمالة الحطب ) ففيه مسائل :

( المسألة الأولى ) قرى . ومرئنه بالتصغير وقرى . حمالة الحطب بالنصب على الشتم . قال صاحب الكشف وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل وقرى . بالنصب والتنوين والرفع .

( المسألة الثانية ) أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية ، وكانت في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكروا في تفسير كونها حمالة الحطب وجوهاً : ( أحدها ) أنها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنترها بالليل في طريق رسول الله ، فإن قيل إنها كانت من بيت العز فكيف يقال إنها حمالة الحطب ؟ قلنا لعلها كانت مع كثرة مالها خسيصة أو كانت أشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب ، لأجل أن تلقيه في طريق رسول الله ( وثانيها ) أنها كانت تمشى بالنيمة يقال للشاة بالتأثم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أي يوقديهم النار ، ويقال للكفار : هو حاطب

ليل (وئالها) قول قتادة أنها كانت تعبر رسول الله بالفقر ، فعبرت بأنها كانت تحتطب ( والرابع ) قول أبي مسلم وسعيد بن جبير أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول ، لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشى وعلى ظهره حمل ، قال تعالى ( فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ) وقال تعالى ( يحملون أوزارهم على ظهورهم ) وقال تعالى ( وحملها الإنسان ) .

( المسألة الثالثة ) امراته إن رفعت ، ففيه وجهان ( أحدهما ) العطف على الضمير في سيصلي ، أي سيصلي هو وامراته . وفي جيدها في موضع الحال ( والثاني ) الرفع على الابتداء ، وفي جيدها الخبر .

( المسألة الرابعة ) عن أسماء لما نزلت ( تبت ) جاءت أم جميل ولها ولولة ويدها حجر ، فدخلت المسجد ، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر ، وهي تقول :

مذمماً قليتنا ودينه أئينا وحكمه عصينا

فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك . فقال عليه السلام « إنها لا تراني » وقرأ ( وإذا قرأت القرآن جملنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججاً مستوراً ) وقالت لاني بكر : قد ذكر لي أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فولت وهي تقول :  
قد علمت قریش أئی بنت سیدها  
وفي هذه الحكاية أبحاث :

( الأول ) كيف جاز في أم جميل أن لا ترى الرسول ، وترى أبا بكر والمسكان واحد؟ (الجواب) أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل ، لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزاً لا واجباً . فإن خلق الله الإدراك رأى وإلا فلا . وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوهاً ( أحدها ) لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاهها ظهره ، ثم إنها كانت لغاية غضبها لم تفتش ، أو لأن الله ألقى في قلبها خوفاً ، فصار ذلك صارفاً لها عن النظر ( وثانيها ) لعل الله تعالى ألقى شبه إنسان آخر على الرسول ، كما فعل ذلك بعبسى ( وثالثها ) لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمعت حتى أنها ما رآته .

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثة لازم ، لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشيء حاضرأ ولا نراه ، وإذا جوزنا ذلك فلم لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات ، ولا نراها ولا نسمعها (١) .

( البحث الثاني ) أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك ، وهذا من باب المعاريض ، لأن القرآن لا يسمى هجراً ، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ، فدللت هذه الحكاية على جواز المعاريض .

(١) إنما برد الاشكال عند من لا يقولون بالمعجزات وخوارق العادات وهي أمور لا يستطيع مع العقل جدها ولا إنكارها ، أما من يقولون بها ، فلا إشكال .

## فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ۝٥

بقي من مباحث هذه الآية سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ لم لم يكتف بقوله (وامراته) بل وصفها بأنها حمالة الحطب؟ (الجواب) قيل كان له امرأتان، سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة.

﴿السؤال الثاني﴾ أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة، فكيف يليق ذكرها بكلام الله، ولا سيما امرأة العم؟ (الجواب) لما لم يستبعد ذلك في امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين، فلأن لا يستبعد في امرأة كافرة زوجها رجل كافر أولى.

قوله تعالى ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ قال الواحدى : المسد في كلام العرب القتل ، يقال مسد الحبل يمسه مسداً إذا أجاد قتله ، ورجل مسود إذا كان مجذول الخلق ، والمسد ما مسد أى قتل من أى شيء كان ، فيقال لما قتل من جلود الإبل ، ومن الليف والخوص مسد . ولما قتل من الحديد أيضاً مسد ، إذا عرفت هذا فنقول ذكر المفسرون وجوهاً (أحدها) في جيدها حبل مما مسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون ، والمقصود بيان خساستها تشبيهاً لها بالحطابات إيذاء لها ولزوجها (وثانيها) أن يكون المعنى أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفي جيدها حبل من سلاسل النار . فإن قيل الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبداً في النار؟ قلنا كما يبقى الجلد واللحم والعظام أبداً في النار ، ومنهم من قال ذلك المسد يكون من الحديد ، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد أو من غيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

( سورة الإخلاص )

( أربع آيات مكية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١٠

( سورة الإخلاص أربع آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( قل هو الله أحد ) قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول :

( الفصل الأول ) روى أبى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة قل هو الله أحد ، فكأنما قرأ ثلث القرآن وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله » وقال عليه الصلاة والسلام « من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد » ، وروى « أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذ أقبل أبوذر الغفارى ، فقال جبريل هذا أبو ذر قد أقبل ، فقال عليه الصلاة والسلام أو تعرفونه ؟ قال هو أشهر عندنا منه عندكم ، فقال عليه الصلاة والسلام بما ذا نال هذه الفضيلة ؟ قال لصغره في نفسه وكثرة قراءته قل هو الله أحد » وروى أنس قال « كنا في تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء ومارأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كنا ، فنزل جبريل وقال إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية ، فهل لك أن تصلى عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فضلى هو وأصحابه عليه ، ثم قال : بم بلغ ما بلغ ؟ فقال جبريل كان يجب سورة الإخلاص » وروى « أنه دخل المسجد فسمع رجلا يدعو ويقول أسألك يا الله يا أحد يا حمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال غفرك غفرك غفرك ثلاث مرات » وعن سهل بن سعد « جاء رجل إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك ، وقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقا حتى أفاض على جيرانه » وعن أنس « أن رجلا كان يقرأ فى جميع صلواته ( قل هو الله أحد ) فسأله الرسول عن ذلك فقال يا رسول الله إنى أحبها . فقال حبك إياها

يدخلك الجنة » وقيل من قرأها في المنام : أعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله ، وكان مستجاب الدعوة .

﴿ الفصل الثاني ﴾ في سبب نزولها وفيه وجوه ( الأول ) أنها نزلت بسبب سؤال المشركين ، قال الضحاك إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا شققت عصانا وسبيت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيراً أغنيناك ، وإن كنت مجنوناً دؤبناك ، وإن هويت امرأة زوجنا كما ، فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأنزل الله هذه السورة ، فقالوا له ثلاثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق ؟ فنزلت ( والصفات ) إلى قوله ( إن إلهكم لواحد ) فأرسلوه أخرى ، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل ( إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ) ( الثانى ) أنها نزلت بسبب سؤال اليهود ، روى عكرمة عن ابن عباس ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف ، فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فغضب نبي الله عليه السلام . فنزل جبريل فسكنه ، وقال اخفض جناحك يا محمد . فنزل ( قل هو الله أحد ) فلما تلاه عليهم قالوا صف لنا ربك كيف عضده ، وكيف ذراعاه ؟ فغضب أشد من غضبه الأول . فأتاه جبريل بقوله ( وما قدروا الله حق قدره ) ( الثالث ) أنها نزلت بسبب سؤال النصراني ، روى عطاء عن ابن عباس ، قال قدم وفد نجران ، فقالوا صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ فقال إن ربى ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت ( قل هو الله أحد ) قالوا هو واحد ، وأنت واحد ، فقال ليس كمثل شيء ، قالوا زدنا من الصفة ، فقال ( الله الصمد ) فقالوا وما الصمد ؟ فقال الذى يصمد إليه الخلق في الحوائج . فقالوا زدنا فنزل ( لم يلد ) كما ولدت مريم ( ولم يولد ) كما ولد عيسى ( ولم يكن له كفواً أحد ) يريد نظيراً من خلقه .

﴿ الفصل الثالث ﴾ في أساميها ، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة ، والعرف يشهد لما ذكرناه ( فأحدها ) سورة التفريد ( وثانيها ) سورة التجريد ( وثالثها ) سورة التوحيد ( ورابعها ) سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التى هى صفات الجلال ، ولأن من اعتقده كان مختصاً في دين الله ، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار ، ولأن ما قبله خاص في ذم أبى لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبى لهب ( وخامسها ) سورة النجاة لأنها تتجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا ، وعن النار في الآخرة ( وسادسها ) سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة ( وسابعها ) سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك ، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بنى سليم « يا أبا بنى سليم استوص



بنسبة الله خيراً « وهو من لطيف المباني، لأنهم لما قالوا انسب لنا ربك، فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبته الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها (وثامنها) سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك (وتاسعها) سورة الجمل قال عليه الصلاة والسلام « إن الله جميل يحب الجمال » فسأله عن ذلك فقال أحد صمد لم بلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه (وعاشرها) سورة المشقشة، يقال تشقشش المريض مماسه، فن عرف هذا حصل له البره من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال (في قلوبهم مرض) (الحادى عشر) المعوذة، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذ بهما وبالتين بعدها، ثم قال « تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها » (والثاني عشر) سورة الصمد (١) لأنها مختصة بذكره تعالى (والثالث عشر) سورة الأساس، قال عليه الصلاة والسلام « أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد » وبما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال) فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعبارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (الرابع عشر) سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإحلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران (الخامس عشر) سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت (السادس عشر) المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها (السابع عشر) البراءة لأنه روى أنه عليه السلام رأى رجلاً يقرأ هذه السورة، فقال أما هذا فقد برى من الشرك، وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار (الثامن عشر) سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ماتغافل عنه مما أنت محتاج إليه (التاسع عشر) سورة النور قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) فهو المنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام « إن لكل شئ نوراً ونور القرآن قل هو الله أحد » ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان (العشرون) سورة الأمان قال عليه السلام « إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي » .

(الفصل الرابع) في فضائل هذه السورة وهي من وجوه (الأول) اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشراف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة

(١) يشيع على ألسنة العامة تسميتها (الصمدية) وهي تسمية عربية صحيحة نسبة إلى (الصمد) سمي الله تعالى نفسه فيها .

على معرفة الذات ، فكانت هذه السورة معادلة لثلاث القرآن ، وأما سورة ( قل يا أيها الكافرون ) فهي معادلة لربع القرآن ، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة ، وسورة ( قل يا أيها الكافرون ) لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب ، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعنى ( قل يا أيها الكافرون ) ، و ( قل هو الله أحد ) في بعض الاسامى فهما المقشقشتان والمبرثنان ، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى ، إلا أن ( قل يا أيها الكافرون ) يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و ( قل هو الله أحد ) يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ( قل يا أيها الكافرون ) تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله ، و ( قل هو الله أحد ) تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به ( الوجه الثاني ) وهو أن ليلة القدر لكونها صدفاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله ( قل هو الله أحد ) فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة ( الوجه الثالث ) وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستتيراً بنور جلال الله وكبريائه ، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة ، فكانت هذه السورة أعظم السور ، فإن قيل فصقات الله أيضاً مذكورة في سائر السور ، قلنا لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب . فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل وليرجع الآن إلى التفسير قوله تعالى ( قل هو الله أحد ) فيه مسائل :

( المسألة الأولى ) اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك ، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ، ولا كان القبر سجناً على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه ، ثم إن معرفة الله تعالى عما يريد بها الهوى والعقل ، فصارت جنة مطلقة ، وبيان ما قلناه أن العقل يريد أميناً تودع عنده الحسنات ، والشهوة تريد غنياً يطلب منه المتلذذات ، بل العقل كالإنسان الذي له همه عالية فلا يتقاد إلا للمولاه ، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غنى ، فإنه ينشط للاتجاج إليه ، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المترتبة ، فلما عرفاه كما أراد علماً وغنياً تعلقا بذيله . فقال العقل : لا أشكر أحداً سواك ، وقالت الشهوة : لا أسأل أحداً إلا إياك . ثم جاءت الشهوة فقالت : يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً ؟ وباشهوة كيف اقتصرمت عليه ولعل ههنا باباً آخر ؟ فبقى العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة ، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكان الحق سبحانه قال : كيف أنقص على عبدى لذة الاشتغال بخدمتى وشكرى ، فبعث الله رسوله وقال : لا تقله من عند نفسك ، بل قل هذا الذى عرفته صادقاً

يقول لى (قل هو الله أحد) ففرقك الوجدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل ، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات ، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل جواز وقوعه ، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معاً ، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرتى إلى غيرهما ، وقد استقصينا فى تقرير دلائل الوجدانية فى تفسير قوله تعالى ( لو كان فىهما آلهة إلا الله لفسدتما ) .

( المسألة الثانية ) اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد فى سورة ( قل يا أيها الكافرون ) من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل فى سورة ( تبت ) وأما فى هذه السورة فقد اختلفوا ، فالقراءة المشهورة ( قل هو الله أحد ) وقرأ أبى وابن مسعود . بقير قل هكذا ( هو الله أحد ) وقرأ النبي صلى الله عليه ، بدون قل هو هكذا ( الله أحد الله الصمد ) فمن أثبت قل قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس فى مقدوره ، بل يحسكى كل ما يقال له ، ومن حذفه قال : لثلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام .

( المسألة الثالثة ) اعلم أن فى إعراب هذه الآية وجوهاً ( أحدها ) أن هو كناية عن اسم الله ، فيكون قوله : الله مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ ، ويجوز فى قوله ( أحد ) ما يجوز فى قولك : زيد أخوك قائم ( الثانى ) أن هو كناية عن الشأن ، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره ، والحلمة تكون خبراً عن هو ، والتقدير الشأن والحديث : هو أن الله أحد . ونظيره قوله ( فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ) إلا أن هى جاءت على التأنيث ، لأن فى التفسير : اسما مؤنثاً ، وعلى هذا جاء ( فإيها لا تسمى الأبصار ) أما إذا لم يكن فى التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة ، كقوله ( إله من يأت ربه بجرماً ) ( والثالث ) قال الزجاج : تقدير هذه الآية أن هذا الذى سألت عنه هو الله أحد .

( المسألة الرابعة ) فى أحد وجهان ( أحدهما ) أنه بمعنى واحد ، قال الخليل : يجوز أن يقال أحد اثنان وأصل أحد واحد إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة ، والمكسورة كقولهم جوه وأجوه وسادة وأسادة ( والقول الثانى ) أن الواحد والاحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري : لا يوصف شىء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال : رجل واحد أى فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شىء . ثم ذكروا فى الفرق بين الواحد والاحد وجوهاً ( أحدها ) أن الواحد يدخل فى الاحد والاحد لا يدخل فيه ( وثانها ) أنك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال لكنته يقاومه اثنان بخلاف الأحـد ، فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال : لكنته يقاومه اثنان

(وثالثها) أن الواحد يستعمل في الإثبات والاحد في النفي ، تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً وتقول في النفي ما رأيت أحداً فيفيد العموم .

(المسألة الخامسة) ) اختلف القراء في قوله (أحد الله الصمد) فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله ، وهو القياس الذي لا إشكال فيه . وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة ، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر ، وعن أبي عمرو ، أحد الله بغير تنوين ، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزداد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذف ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والوار والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم ، ويرى القوم ، ولهذا حذف النون الساكنة في الفعل نحو (لم يك) (ولا تك في مرية) فكذلك ههنا حذف في أحد الله لالتقاء الساكنين كما حذف هذه الحروف .

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله (عزيرابن الله) وروى أيضاً عن أبي عمرو (أحد الله) وقال أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلا على السكون ، قال أبو علي قد تجرى الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف وعلى هذا قال من قال (فأضلونا السيلا ، ربنا) (وما أدراك ماهيه ، نار) فكذلك (أحد الله) لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجزاء في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم ، وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) فإن قيل لماذا؟ قيل أحد على التنكرة ، قال الماوردي فيه وجهان (أحدهما) حذف لام التعريف على نية اضمارها والتقدير قل هو الله الأحد (والثاني) أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم .

(المسألة السادسة) ) اعلم أن قوله (هو الله أحد) ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين (فالمقام الأول) مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي ، فلا جرم مارأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً ، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه ، وقوله (هو) إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين ، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز ، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان ، وقد بينا أن هؤلاء ماشاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فلهذا السبب كانت لفظه (هو) كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء ، (المقام الثاني) وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول ، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخالق أيضاً موجوداً ، فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافيّاً في الإشارة إلى الحق ، بل لابد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق : فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظه الله بلفظه هو ، فقيل لأجلهم هو

الله ، لأن الله هو الموجود الذى يفترق إليه ماعداه ، ويستغنى هو عن كل ماعداه (والمقام الثالث) وهو مقام أصحاب الشمال وهو أحسن المقامات وأدونها ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وبإطالة المقالاتهم فقيل ( قل هو الله أحد ) .

( وههنا بحث آخر ) أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية ، أما الإضافية فمكقولنا عالم ، قادر مريد خلاق ، وأما السلبية فمكقولنا ليس بحسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات وثانياً على النوع الثانى منها . وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وقولنا أحد يدل على مجامع الصفات السلبية . فكان قولنا ( الله أحد ) تاماً في إفادة العرفان الذى يليق بالعقول البشرية ، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذى يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعاقب بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وهذه مجامع الصفات الإضافية ، وأما مجامع الصفات السلبية فهى الأحدية ، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التراكيب . وذلك لأن كل ماهية مركبة فهى مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته ، فالإله الذى هو مبدأ جميع الكائنات متمتع أن يكون ممكناً ، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية ، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره ، وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن فى شىء من الأحياز والجهات ، ويجب أن لا يكون حالاً فى شىء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشيء ، لأنه مع حاله لا يكون أحداً ، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة ، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجباً الوجود لاشتراكا في الوجود ولتمايزا في التعيين وما به المشاركة غير مابه المايزة فكل واحد منهما مركب ، ثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً ( فإن قيل ) كيف يعقل كون الشىء أحداً ، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية وجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد ( الجواب ) أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية ، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله ( الله أحد ) كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وعمام الكلام فى هذا الباب مذكور فى تفسير قوله ( وإلهكم إله واحد ) .

قوله تعالى ﴿ الله الصمد ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تفسير ( الصمد ) وجهين ( الأول ) أنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ، قال الشاعر :

ألا بكر النزاعى بخير بنى أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال أيضاً : علوته سامى ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة « هذا التفسير ماروى ابن عباس » أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : الله الصمد ؟ قال عليه السلام هو السيد الذى يصمد إليه في الحوائج ، وقال الليث صمدت صمد هذا الأمر أى قصدت قصده ( والقول الثانى ) أن الصمد هو الذى لا جوف له ، ومنه يقال لسداد القارورة الصمد ، وشىء مصمد أى صلب ليس فيه رخاوة ، وقال قتادة ، وعلى هذا التفسير : الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت ، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة الصمد هو الأملس من الحجر الذى لا يقبل الغبار ولا يدخله شىء ولا يخرج منه شىء ، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً يتأفى كونه جسماً فقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك ، فإذاً يجب أن يحمل ذلك على مجازه ، وذلك لأن الجسم الذى يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته متمتعاً بالتغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته ، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوى في هذه الآية .

أما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه ، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيداً مرجوعاً إليه في دفع الحاجات ، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية ، وبعضها بالوجه الثانى وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته متمتع بالتغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين .

أما النوع ( الأول ) فذكروا فيه وجوهاً : ( الأول ) الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيداً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك ( الثانى ) الصمد هو الخليم لأن كونه سيداً يقتضى الحلم والكرم ( الثالث ) وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذى قد انتهى سؤدده ( الرابع ) قال الأصم الصمد هو الخالق للأشياء ، وذلك لأن كونه سيداً يقتضى ذلك ( الخامس ) قال السدى الصمد هو المقصود في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب ( السادس ) قال الحسين بن الفضل البجلي : الصمد هو الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه . ولا راد لقضائه ( السابع ) أنه السيد المعظم ( الثامن ) أنه الفرد المساجد لا يقضى في أمر دونه .

وأما النوع ( الثاني ) وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكرها فيه وجوهاً : ( الأول ) الصمد هو الغنى على ما قال ( وهو الغنى الحميد ) ( الثاني ) الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله ( وهو القاهر فوق عباده ) ولا يخاف من فوقه ، ولا يرحو من دونه ترفع الحوائج إليه ( الثالث ) قال قتادة لا يأكل ولا يشرب ( وهو يطعم ولا يطعم ) ( الرابع ) قال قتادة الباقي بعد فناء خلقه ( كل من عليها فان ) ( الخامس ) قال الحسن البصري : الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان ، ولا أين ولا أوان ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا جنى ولا إنسى وهو الآن كما كان ( السادس ) قال أنبن كعب : الذي لا يموت ولا يورث وله ميراث السموات والأرض ( السابع ) قال يمان وأبو مالك : الذي لا ينام ولا يسهو ( الثامن ) قال ابن كيسان : هو الذي لا يوصف بصفة أحد ( التاسع ) قال مقاتل بن حبان : هو الذي لا عيب فيه ( العاشر ) قال الربيع بن أنس : هو الذي لا تعتربه الآفات ( الحادي عشر ) قال سعيد بن جبير : إنه الكامل في جميع صفاته ، وفي جميع أفعاله ( الثاني عشر ) قال جعفر الصادق : إنه الذي يغلب ولا يغلب ( الثالث عشر ) قال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ( الرابع عشر ) قال أبو بكر الوراق : إنه الذي أيس الخلاق من الاطلاع على كفيته ( الخامس عشر ) هو الذي لا تدركه الأبصار ( السادس عشر ) قال أبو العالية ومحمد القرظي : هو الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث ، ولا شيء يولد إلا وسيموت ( السابع عشر ) قال ابن عباس : إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد ( الثامن عشر ) أنه المنزه عن قبول النقائص والزيادات ، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات ، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآفات والجهات .

وأما ( الوجه الثالث ) وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل . لأنه بحسب دلالاته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب ، وبحسب دلالاته على كونه مبدأً للكل يدل على جميع النوع الإلهية .

( المسألة الثانية ) قوله ( الله الصمد ) يقتضى أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله ، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه في الحوائج ، أو بما لا يقبل التغير في ذاته لزم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى ، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد ، فقوله ( الله أحد ) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه ، وقوله ( الله الصمد ) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد . وبقى في الآية سؤالان :

( السؤال الأول ) لم جاء أحد منكرأ . وجاء الصمد معرفاً ؟ ( الجواب ) الغالب على أكثر أوهم الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا مالا يكون منقسماً لا يكون خاطراً ببال أكثر الخلق . وأما الصمد فهو الذي يكون مصموداً إليه في الحوائج ، وهذا كان معلوماً للعرب بل لا أكثر الخلق على ما قال ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) وإذا كانت



لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ «٣»

الاحدية بجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق ، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق ، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف .

﴿السؤال الثاني﴾ ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله (الله أحد الله الصمد) ؟ (الجواب) لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يراد ، إما نكرتين أو معرفتين ، وقد بينا أن ذلك غير جائز ، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منسكراً ولفظ الصمد معرفاً . قوله تعالى ﴿لم يلد ولم يولد﴾ فيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ لم قدم قوله (لم يلد) على قوله (ولم يولد) مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً ، ثم يكون والداً ؟ (الجواب) إنما وقعت البسامة بأنه لم يلد ، لأنهم ادعوا أن له ولداً ، وذلك لأن مشركي العرب قالوا (الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله) ولم يدع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال (لم يلد) ثم أشار إلى الحجية فقال : (ولم يولد) كأنه قيل الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره .

﴿السؤال الثاني﴾ لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال (لم يلد) ولم يقل ان يلد ؟ (الجواب) إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى (ألا إنهم من إفيكم ليقولون ولد الله) فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي ، لا جرم وردت الآية على وفق قولهم .

﴿السؤال الثالث﴾ لم قال ههنا (لم يلد) وقال في سورة بنى إسرائيل (ولم يتخذ ولداً) ؟ (الجواب) أن الولد يكون على وجهين : (أحدهما) أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي (والثاني) أن لا يكون متولداً منه ولكن يتخذه ولداً ويسميه هذا الإسم ، وإن لم يكن ولداً له في الحقيقة ، والنصارى فربقان : منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة ، ومنهم من قال إن الله اتخذ ولداً تشريفاً له . كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له ، فقوله (لم يلد) فيه إشارة إلى نفي الولد في الحقيقة ، وقوله (لم يتخذ ولداً) إشارة إلى نفي القسم الثاني ، ولهذا قال (لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك) لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب ، ولذلك قال في سورة أخرى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه هو الغنى) وهو إشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة .

﴿السؤال الرابع﴾ نفي كونه تعالى والداً ومولوداً ، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا ، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا ؟ (الجواب) نفي كونه تعالى والداً مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعص ولا منقسم ، ونفي كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى

## وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ «٤»

قديم . والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن ، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية . بقى أن يقال فلما لم يمكن استفادتهما من السمع ، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة ؟ ( قلنا ) قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه في ذاته وماهيته منزهاً عن جميع أنحاء البراكيب ، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته متمنع التغير في ذاته وجميع صفاته ، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية بوجبان نفي الولدية والمولودية ، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الولدية والمولودية ، لا جرم ذكر هذين الحكيمين . فالملقوصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفاءهما .

﴿ أسؤال الخامس ﴾ هل في قوله تعالى ( لم يلد ولم يولد ) فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية ؟ ( قلنا ) فيه فوائد كثيرة ، وذلك لأن قوله ( الله أحد ) إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزهاً عن التركيب ، وقوله ( الله الصمد ) إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال . وهذان المقامان الشريقان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان ، وبين الفلاسفة ، إلا أن من بعد هذا الموضوع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة ، فإن الفلاسفة قالوا : إنه يتولد عن واجب الوجود عقل ، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك ، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر ، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحته ، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه ، فالحق سبحانه وتعالى نفي الولدية أولاً ، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفوس ، ثم قال : والشئ الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شئ آخر ، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه .

قوله سبحانه ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه ، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟ ( والجواب ) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله ، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الأهم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف القراءة في هذه الآية ؟ ( الجواب ) قرئ . ( كفواً ) بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرهما مع سكون الفاء ، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنن وطمب وعتق وعتق . وقال أبو عبيدة يقال كفواً وكفواً . وكفواً كل بمعنى واحد وهو المثل ، والمفسرين فيه أقاويل ( أحدها ) قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عدل ، ومنه المكافأة في الجزاء . لأنه

يعطيه ما يساوى ما أعطاه ( وثانيتها ) قال مجاهد : لم يكن له صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال : لم يكن أحد كفواً له فصاهره ، رداً على من حكى الله عنه قوله ( وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ) فنفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى ( لم يلد ) ( وثالثها ) وهو التحقيق أنه تعالى لما بين أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله ( لم يلد ولم يولد ) على ما بيناه ، فحينئذ ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له في شيء من صفات الجلال والعظمة ، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي ، وأما سائر الحقائق ، فإنها قابلة للعدم ، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالي ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك ، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان ، واعلم أن هذه السورة أربع آيات ، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد :

( الفائدة الأولى ) أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد ، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و ( لم يلد ولم يولد ) على أنه غنى على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً ، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضرر ، بل بمحض الإحسان وقوله ( ولم يكن له كفواً أحد ) إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات .

( الفائدة الثانية ) نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله ( أحد ) ونفى النقص والمعلومية بلفظ الصمد ، ونفى المعلومية والعلية بلم يلد ولم يولد ، ونفى الأضداد والانداد بقوله ( ولم يكن له كفواً أحد ) .

( الفائدة الثالثة ) قوله ( أحد ) يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، والنصارى في التثليث ، والصابئين في الأفلاك والنجوم ، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات ، والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، والمشركون في أن الملائكة بنات الله ، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاه له وشركاء .

( الفائدة الرابعة ) أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتز لاولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذلك لأن عدم الولد في حق الانسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى ، فلهذا السبب قال ههنا ( قل ) حتى تكون ذاباً عني ، وفي سورة ( إنا أعطيناك ) أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

## مقدمة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصلين :

(الفصل الأول) سمعت بعض العارفين فسر هاتين السورتين على وجه عجيب ، فقال إنه سبحانه لما شرح أمر الإلهية في سورة الإخلاص ذكر هذه السورة عقيبها في شرح مراتب مخلوقات الله فقال أولا ( قل أعوذ برب الفلق ) وذلك لأن ظلمات العدم غير متناهية ، والحق سبحانه هو الذى فلق تلك الظلمات بنور التكوين والإيجاد والإبداع ، فلهذا قال ( قل أعوذ برب الفلق ) ثم قال ( من شر ما خلق ) والوجه فيه أن عالم الممكنات على قسمين عالم الأمر وعالم الخلق على ما قال (أله الخلق والأمر) وعالم الأمر كخيرات محضة بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، فالشر لا يحصل إلا فيه . وإنما سمي عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق : لأن الخلق هو التقدير : والمقدار من لواحق الجسم ، فلما كان الأمر كذلك ، لاجرم قال : أعوذ بالرب الذى فلق ظلمات بحر العدم بنور الإيجاد والإبداع من الشرور الواقعة في عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، ثم من الظاهر أن الأجسام ، إما أثرية أو عنصرية والأجسام الأثرية خيرات ، لأنها بريئة عن الاختلال والفطور ، على ما قال ( ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ) وأما العنصرية فهي إما جماد أو نبات أو حيوان ، أما الجمادات فهي خالية عن جميع القوى النفسانية . فالظلمة فيها خالصة والأنوار عنها بالكلية زائلة ، وهى المراد من قوله ( ومن شر غاسق إذا وقب ) وأما النبات فالقوة الغازية النباتية هى التى تزيد فى الطول والعرض والعمق معاً ، فهذه النباتية كأشجار التفاح فى العقد الثلاثة ، وأما الحيوان فالقوى الحيوانية هى الحواس الظاهرة والحواس الباطنة والشهوة والغضب وكلها تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله وهو المراد من قوله ( ومن شر حاسد إذا حسد ) ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهى المستعينة ، فلا تكون مستعاضاً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة وذكر بعدها فى سورة الناس مراتب درجات النفس الإنسانية فى الترقى ، وذلك لأنها بأصل فطرتها مستعدة ، لأن تفتش بمعرفة الله تعالى ومحبهه إلا أنها تكون أول الأمر خالية عن هذه المعارف بالكلية ، ثم إنه فى المرتبة الثانية يحصل فيها علوم أولية بديهية يمكن التوصل بها إلى استعلام المجهولات

الفكرية ، ثم في آخر الأمر تلك المجهولات الفكرية من القوة إلى الفعل ، فقوله تعالى ( قل أعوذ برب الناس ) إشارة إلى المرتبة الأولى من مراتب النفس الإنسانية وهي حال كونها خالية من جميع العلوم البديهية والكسبية ، وذلك لأن النفس في تلك المرتبة تحتاج إلى مرب يربها ويزينها بتلك المعارف البديهية ، ثم في المرتبة الثانية وهي عند حصول هذه العلوم البديهية يحصل لها ملكة من الانتقال منها إلى استعلام العلوم الفكرية وهو المراد من قوله ( ملك الناس ) ثم في المرتبة الثالثة وهي عند خروج تلك العلوم الفكرية من القوة إلى الفعل يحصل الكمال التام للنفس وهو المراد من قوله ( إله الناس ) فكان الحق سبحانه يسمى نفسه بحسب كل مرتبة من مراتب النفس الإنسانية بما يليق بتلك المرتبة ، ثم قال ( من شر الوسواس الخناس ) والمراد منه القوة الوهمية ، والسبب في إطلاق اسم الخناس على الوهم أن العقل والوهم ، قد يتساعدان على تسليم بعض المقدمات ، ثم إذا آل الأمر إلى النتيجة فالعقل يساعد على النتيجة والوهم يخنس ، ويرجع ويمتنع عن تسليم النتيجة ، فلهذا السبب يسمى الوهم ( بالخناس ) ثم بين سبحانه أن ضرر هذا الخناس عظيم على العقل ، وأنه قلما يتفك أحد عنه فكانه سبحانه بين في هذه السورة مراتب الأرواح البشرية وربه على عدوها وربه على مابه يقع الامتياز بين العقل وبين الوهم ، وهناك آخر درجات مراتب النفس الإنسانية ، فلا جرم ، وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه .

( الفصل الثاني ) ذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوها ( أحدها ) روى أن جبريل عليه السلام أتاه وقال إن عفريتاً من الجن يكيدك ، فقال إذا أويت إلى فراشك قل أعوذ برب السورتين ( وثانيها ) أن الله تعالى أنزلها عليه ليكونا رقية من العين ، وعن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا : تعالوا نتجوع فنعين محمداً ففعلوا ، ثم أتوه وقالوا ما أشد عضدك ، وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين ( وثالثها ) وهو قول جمهور المفسرين ، أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة وفي وتر دسه في بئر يقال لها ذروان ففرض رسول الله ﷺ ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فزلت المعوذتان لذلك ، وأخبره جبريل بموضع السحر فأرسل علياً عليه السلام ، وطلحة وجاءابه ، وقال جبريل للنبي حل عقدة ، وقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الحقة والراحة .

واعلم أن المعتزلة أنكروا ذلك بأسرهم ، قال القاضي هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بسحبتها ، والله تعالى يقول ( والله يعصمك من الناس ) وقال ( ولا يفلح الساحر حيث أتى ) ولأن تجوزيه يفضي إلى الفدح في النبوة ، ولأنه لو صح ذلك لسكان من الواجب أن يصلوا إلى الضرر لجميع الأنبياء والصالحين . ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل ، ولأن الكفار كانوا يعبرونه بأنه مسحور ، فلو وقعت هذه الواقعة لسكان الكفار صادقين في تلك

الدعوة ، ولحصل فيه عليه السلام ذلك العيب ، ومعلوم أن ذلك غير جائز ، قال الأصحاب : هذه القصة قد صححت عند جمهور أهل النقل ، والوجه المذكورة قد سبق الكلام عليها في سورة البقرة . أما قوله : الكفار كانوا يعيبون الرسول عليه السلام بأنه مسجور ، فلو وقع ذلك لسكان الكفار صادقين في ذلك القول ( بخبره ) أن الكفار كانوا يريدون بكونه مسجوراً أنه مجنون أزيل عقله بواسطة السحر ، فلذلك ترك دينهم ، فأما أن يكون مسجوراً بالم مجده في بدنه فذلك مما لا ينكره أحد ، وبالجملة فأنه تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه في دينه وشرعه ونبوته ، فأما في الإضرار ببدنه فلا يبعد ، وتام الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة ، ولنرجع إلى التفسير .

﴿ سورة الفلق ﴾

﴿ خمس آيات مدنية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ « ١ »

﴿ سورة الفلق خمس آيات مدنية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قوله تعالى ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( قل ) فوائد ( أحدها ) أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به في ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكان العبد قال : إلهنا هذه الطاعة عظيمة جداً لا أتق بنفسى في الوفاء بها ، فأجابه بأن قال ( قل أعوذ برب الفلق ) أى استعذ بالله ، والتجئ إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكل الوجوه ( وثانيها ) أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته ، فكان الرسول عليه السلام قال : كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لا يليق بك ، فقال الله ( قل أعوذ برب الفلق ) أى استعذ بى حتى أصونك عن شرهم ( وثالثها ) كأنه تعالى يقول : من التجأ إلى بى شرفته وجعلته آمناً فقلت ومن دخله كان آمناً فالتجئ أنت أيضاً إلى حتى أجعلك آمناً ( فقل أعوذ برب الفلق ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟ منهم قال إبه يجوز واحتجوا بوجوه ( أحدها ) ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام ، فقال بسم الله أريك من كل شيء يؤذيك ، والله يشفيك ( وثانيها ) قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها والحى هذا الدعاء « بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار » ( وثالثها ) قال عليه السلام من دخل على مريض لم يحضره أجله ، فقال أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى ( ورابعها ) عن علي عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال : « أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت » ( وخامسها ) عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين بقول « أعينكما بكلمات الله التامة من شيطان وهامة ، ومن



كل عين لامة» ويقول هكذا كان أبى إبراهيم يعوذ ابنه إسماعيل وإسحق (وسادسها) قال عثمان بن أبى العاص الثقفى قدمت على رسول الله وبى وجمع قد كاد يبطلنى فقال رسول الله ﷺ «اجعل يدك اليمنى عليه . وقل بسم الله أعوذ بركة الله وقدرته من شر ما أجد » سبع مرات ففعلت ذلك فشفانى الله (وسابعها) روى أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول «يا أرض ، ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فىك وشر ما يخرج منك ، وشر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود وحية وعقرب ، ومن شر ساكنى البلد ووالد وما ولد » ( وثامنها) قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ ( قل هو الله أحد ) والمعوذتين فى كفه اليمنى ومسح بها المكان الذى يشتكى ومن الناس من منع من الرقى لما روى عن جابر . قال نبى رسول الله ﷺ عن الرقى ، وقال عليه السلام « إن لله عبادة لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » وقال عليه السلام « لم يتوكل على الله من اکتوى واسترقى » وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهى عن الرقى المجهولة التى لا تعرف حقايقها ، فأما ما كان له أصل موثوق ، فلا نهى عنه ، واختلفوا فى التعليق ، فروى أنه عليه السلام قال « من علق شيئاً وكل إليه » وعن ابن مسعود : أنه رأى على أم ولده تيمعة مربوطة بمصدها ، فخذبها جذباً عنيفاً فقطعها ، ومنهم من جوزوه ، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه ، واختلفوا فى النفث أيضاً ، فروى عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده . فلما اشتكى رسول الله ﷺ وجعه الذى توفى فيه طففت أنفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها على نفسه ، وعنه عليه السلام « أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ فيهما بالمعوذات ، ثم مسح بهما جسده » ومنهم من أنكروا النفث . قال عكرمة : لا ينبغى للراقى أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد . وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون النفث فى الرقى ، وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجيع . فقلت ألا أعوذك يا أباحمّد؟ قال بلى ولكن لا تنفث ، فعوذته بالمعوذتين . قال الحلیمی : الذى روى عن عكرمة أنه ينبغى للراقى أن لا ينفث ولا يمسح ولا يعقد ، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث فى العقد مما يستعاض منه ، فوجب أن يكون منها عنه إلا أن هذا ضعيف ، لأن النفث فى العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضرراً بالأرواح والأبدان ، فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون حراماً .

( المسألة الثالثة ) أنه تعالى قال فى مفتاح القراءة ( فاستعذ بالله ) وقال ههنا ( أعوذ برب الفلق ) وفى موضع آخر ( وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ) وجاء فى الأحاديث ( أعوذ بكلمات الله التامات ) ولا شك أن أفضل أسماء الله هو الله ، وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره ، قال تعالى ( أرباب متفرقون ) فما السبب فى أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل أعوذ بالله بل قال ( برب الفلق ) ؟ وأجابوا عنه من وجوه : ( أحدها ) أنه فى قوله ( وإذا قرأت القرآن فاستعذ

بالله ) إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن ، وإنما أمره بالاستعاذة هنا في هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر . والمهم الأول أعظم ، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم ( وثانيها ) أن الشيطان يبالغ حال منعهك من العبادة أشد مبالغة في إيصال الضرر إلى بدنك وروحك ، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا ( وثالثها ) أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له في الزمان الآتي ، أو كأن العبد يقول : التربية والاحسان حرفتك فلا تهملني ، ولا تخيب رجائي ( ورابعها ) أن بالتربية صار شارعاً في الإحسان ، والشروع ملزم ( وخامسها ) أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيهاً على أنه سبحانه لا تفتق عنك تربيته وإحسانه ، فإن قيل إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال ( ملك الناس إله الناس ) قلنا فيه لطيفة وهي كونه تعالى قال قل أعوذ بمن هو ربي وسكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالآب المشفق الذي يقول أرجع عند مهماتك إلى أبيك المشفق عليك الذي هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية ( وسادسها ) كان الحق قال لمحمد عليه السلام قلبك لي فلا تدخل فيه حب غيري . واسانك لي فلا تذكر به أحداً غيري ، وبدنك لي فلا تشغله بخدمة غيري . وإن أردت شيئاً فلا تطلبه إلا مني ، فإن أردت العلم فقل ( رب زدني علماً ) وإن أردت الدنيا فاسألوا الله من فضله ، وإن خفت ضرراً فقل ( أعوذ برب الفلق ) فإنني أنا الذي وصفت نفسي بأن خالق الإصباح . وبأنى فائق الحب والنوى ، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك ، فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك ، أفلا أصونك عن الآفات والخفافات .

( المسألة الرابعة ) ذكروا في ( الفلق ) وجوهاً ( أحدها ) أنه الصبح وهو قول الأكثرين قال الزجاج لأن الليل يفتق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال هو أبيض من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه في التعمود لوجوه ( الأول ) أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه ( الثاني ) أن طلوع الصبح كالمثال لمحجى الفرج ، فكأن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصبح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاة ( الثالث ) أن الصبح كالبرق فإذ الإنسان في الظلام يكون كحلم على وضئ ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفرج ، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في وقت السحر ، فالحق سبحانه يقول ( قل أعوذ برب ) يعطى لإنعام فلق الصبح قبل السؤال فكيف بعد السؤال ( الرابع ) قال بعضهم إن يوسف عليه السلام لما ألقى في الجب وجعت ركبته وجداً شديداً فبات ليلته ساهراً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بإذن الله يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال يا جبريل ادع أنت وأؤمن أنا فدعا جبريل وأمن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر ، فلما طاب وقت يوسف قال يا جبريل وأنا أدعو أيضاً

وتؤمن أنت ، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاد في ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل ، وروى أن دعاه في الجب : يا عدتي في شدتي ويا مؤنسي في وحشتي وياراحم غربتي ويا كاشف كربتي ويا مجيب دعوتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أرحم صغرى سنى وضعف ركنى وقلة حيلتى يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام ( الخامس ) لعل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضوع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت الذى يفرج فيه عن كل مهموم ( السادس ) يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور ، ثم منهم من يخرج من داره مفلساً عرباناً لا يلتفت إليه ، ومنهم من كان مدبوناً فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه ، كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار ، ومن عبد كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق ( السابع ) يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال ( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتاب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة قوله ( ناكسوا رؤوسهم ) والسجود في الصلاة يذكر قوله ( ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ) والقعود يذكر قوله ( وترى كل أمة جاثية ) فكان العبد يقول : إلهى كما خلصتني من ظلمة الليل فخلصنى من هذد الأهوال ، وإتساخص وقت صلاة الصبح لأن لها من يد شرف على ما قال ( إن قرآن الفجر كان مشهوداً ) أى تحضرها ملائكة الليل والنهار ( الثامن ) أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال ( والمستغفرين بالأسحار ) ( القول الثانى ) فى الفلق أنه عبارة عن كل ما يفاقمه الله كالأرض عن النبات ( إن الله فائق الحب والنوى ) والجبال عن العيون ( وإن منها لما يتفجر منه الأنهار ) والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرح والقلوب عن المعارف ، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب ، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود ، وثبت أنه كان الله فى الأزل ولم يكن معه شيء البتة فكأنه سبحانه هو الذى فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع . فهذا هو المراد من الفلق ، وهذا التأويل أقرب من وجوه ( أحدها ) هو أن الموجود إما الخالق وإما الخلق ، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات . فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة فى هذا المعنى ( وثانها ) أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والممكن لذاته يكون موجوداً بغيره . معدوماً فى حد ذاته ، فإذا كان ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه وببقية حال بقاءه ، فإن الممكن حال بقاءه يفتقر إلى المؤثر والترية ، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء ، فكأنه يقول : إنك لست محتاجاً إلى حال

## مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ «٢»

الحدوث فقط بل في حال الحدوث وحال البقاء معاً في الذات وفي جميع الصفات ، فقوله ( برب الفلق ) يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتى الحدوث والبقاء في الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات وسر التوحيد لا يصفون عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعاني ، ( وثالثها ) أن التصوير والتسكين في الظلمة أصعب منه في النور ، فكأنه يقول أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء. ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة وإليه الإشارة بقوله ( هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لإله إلا هو العزيز الحكيم ) ( القول الثالث ) أنه واد في جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمان من الأرض الفلق والجمع فلقان ، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال لا أبالي ، أليس من ررائهم الفلق ، فقيل وما الفلق ؟ قال بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، وإنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق ، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه ، فكأنه يقول يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأكمل وأتم وأسبق وأقدم من عذابك .  
قوله تعالى ﴿ من شر ما خلق ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير هذه الآية وجوه ( أحدها ) قال عطاء عن ابن عباس يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شر منه ولأن السورة إنما نزلت في الاستعاذة من السحر ، وذلك إنما يتم بإبليس وأعدائه وجنوده ( وثانيها ) يريد جهنم كأنه يقول قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها ( وثالثها ) ( من شر ما خلق ) يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما ، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذى من الجن والإنس أيضاً ووصف أفعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة ما ، لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة ما فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ويدخل فيه شرور الأطمعة الممرضة وشرور الماء والنار ، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء ، على ما هو قول أكثر المتكلمين ، أو متولدة من قوى خلقها الله تعالى في هذه الأجرام ، على ما هو قول جمهور الحكماء . وبعض المتكلمين ، وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله ، فما معناه ؟ قلنا وأى بأس بذلك ، ولقد صرح عليه السلام بذلك ، فقال « وأعوذ بك منك » ( ورابعها ) أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات ، وزعم الجبائي والقاضي أن هذا التفسير باطل ، لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر ، قالوا

## وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

وبدل عاينه وجوه (الأول) أنه يلزم على هذا التقدير أن الذى أمر بالتمعّود منه هو الذى أمرنا أن نتمعّود به ، وذلك متناقض (والثاني) أن أفعال الله كلها حكمة وصواب ، وذلك لا يجوز أن يقال إنه شر (والثالث) أن فعل الله لو كان شراً لوصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك (والجواب) عن الأول أنا بينا أنه لا امتناع في قوله أعوذ بك منك ؟ وعن الثاني أن الإنسان لما تألم به فإنه يعدشراً ، فورد اللفظ على وفق قوله ، كما في قوله . (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعن الثالث أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية ، ثم الذى يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى (إذا مسه الشر جزوعاً) وقوله (وإذا مسه الشر فذود دعاء عريض) وكان عليه السلام يقول « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ طعن بعض الملحّدة في قوله ( قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ) من وجوه (أحدها) أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله وقدره ، أو لا بقضاء الله ولا بقدره ؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعّذ بالله منه ، وذلك لأن ما قضى الله به وقدره فهو واقع ، فكأنه تعالى يقول الشيء الذى قضيت بوقوعه ، وهو لا بد واقع فاستعّذ بي منه حتى لا أوقعه ، وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح في ملك الله وملكوته (وثانيها) أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له ، فلا فائدة في الاستعاذة وإن كان معلوم اللاوقوع ، فلا حاجة إلى الاستعاذة (وثالثها) أن المستعاذ منه إن كان مصاحبة فكيف رغب المسكف في طلب دفعه ومنعه ، وإن كان مفسدة فكيف خلقه وقدره ، واعلم أن الجراب عن أمثال هذه الشبهات ، أن يقال إنه ( لا يسأل عما يفعل ) وقد تكرر هذا الكلام في هذا الكتاب .

قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ ذكروا في الغاسق وجوهاً (أحدها) أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله (إلى غسق الليل) ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً ، وهذا قول الفراء وأبي عبيدة ، وأنشد ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقال الزجاج الغاسق في اللغة هو البارد ، وسمى الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، ومنه قوله إنه الزمهرير ( وثالثها ) قال قوم الغاسق والغساق هو السائل من قولهم : غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء ، وسمى الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض ، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين ، يقال وقب يقب وقوباً إذا دخل ، والوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء . والإيقاب إدخال الشيء في الوقبة ، هذا ما يتعلق باللغة وللمفسرين في الآية أقوال

## وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعَقَدِ ﴿٤﴾

(أحدها) أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل ، وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج السباع من أجامها والهوام من مكها ، ويهجم السارق والمكابرو ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ، ولذلك لوشه [معتد] سلاحا على إنسان ليلا فقتله المشهور عليه لا يلزمه قصاص ، ولو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث ، وقال قوم إن في الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين ، وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تهمهم ، أما في الليل فيحصل لهم نوع استيلاء (ونائبها) أن الغاسق إذا وقب هو القمر ، قال ابن قتيبة الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيفسق ، أي يذهب ضوءه ويسود ، [و] رقبه دخوله في ذلك الاسوداد . روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأشار إلى القمر ، وقال « استعذى بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب » قال ابن قتيبة : ومعنى قوله تعوذى بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف ، وعندى فيه وجه آخر : وهو أنه صح أن القمر في جرمه غير مسنن بل هو مظلم ، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً ، وأما وقوبه فهو انمحاه نوره في آخر الشهر ، والمنجمون يقولون إنه في آخر الشهر يكون منحوساً قليل القوة لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته ، ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض في هذا الوقت . وهذا مناسب لسبب نزول السورة فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبي ﷺ لأجل التمريض (ونائبها) قال ابن زيد الغاسق إذا وقب يعنى الثريا إذا سقطت قال ، وكانت الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقاً ، لانصباها عند وقوعه في المغرب ، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيوبته عن الأعين (ورابعها) قال صاحب الكشاف يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقوبه ضربه ونقبه ، والوقب والنقب واحد ، واعلم أن هذا التأويل أضعف الوجه المذكورة (وخامسها) الغاسق (إذا وقب) هو الشمس إذا غابت وإنما سميت غاسقاً لأنها في الفلك تسبح فسمى حركتها وجريانها بالفسق ، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض .

قوله تعالى ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية قولان (الأول) أن النفث النفخ مع ريق ، هكذا قاله صاحب الكشاف ، ومنهم من قال إنه النفخ فقط ، ومنه قوله عليه السلام إن جبريل نفث في روعي والعقد جمع عقدة ، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطاً ، ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث في تلك العقد ، وإنما أنت النفاثات لوجوه (أحدها) أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن ، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه ، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلتهن وشدتهن شهوتهن ، فلا جرم كان

## وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥٥﴾

هذا العمل منهن أقوى ، قال أبو عبيدة (النفائات) هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي يحزن النبي ﷺ (وثانيها) أن المراد من (النفائات) النفوس (وثالثها) المراد منها الجماعات ، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد (القول الثاني) وهو اختيار أبي مسلم (من شر النفائات) أى النساء فى العقد ، أى فى عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال ، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل يريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً ، فعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) ، فلذلك عظم الله كيدهن فقال (إن كيدكن عظيم) .

واعلم أن هذا القول قول حسن ، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنكرت المعتزلة تأثير السحر ، وقد تقدمت هذه المسألة ، ثم قالوا سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه (أحدها) أن يستعاذ من أثم عملهن فى السحر (والثانى) أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن (والثالث) أن يستعاذ من إطعامهن الاطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت .

قوله تعالى ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ من المعلوم أن الحاسد هو الذى تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه ، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل ، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه ، وقد دخل فى هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرز منه دينياً ودنياً ، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها لكونها مع ما يلها جامعة فى التعوذ لكل أمر ، ويجوز أن يراد بشر الحاسد أئمه وسماعة حاله فى وقت حسده وإظهار أثره . بقى هنا سؤالان :  
 ﴿السؤال الأول﴾ قوله (من شر ما خلق) عام فى كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفائات والحاسد؟ (الجواب) تنبيهاً على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر .  
 ﴿السؤال الثانى﴾ لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؟ (الجواب) عرف النفائات لأن كل نفاة شريرة ، ونكر غاسقاً لأنه ليس كل غاسق شريراً ، وأيضاً ليس كل حاسد شريراً ، بل رب حسد يكون محمود أو هو الحسد فى الخيرات .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .



(سورة الناس)

(وهي ست آيات مدنية)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

(سورة الناس ست آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس) فيه مسائل :

(المسألة الأولى) (قل أعوذ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ونظيره (نخذ أربعة من الطير) وأيضاً أجمع القراء على ترك الإمالة في الناس ، وروى عن الكسائي الإمالة في الناس إذا كان في موضع الحذف ،

(المسألة الثانية) أنه تعالى رب جميع المحدثات ، ولكنه هنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه (أحدها) أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم (وثانيها) أن أشرف المخلوقات في هذا العالم هم الناس (وثالثها) أن الأمور بالاستعاذة هو الإنسان ، فإذا قرأ الإنسان هذه السورة صار كأنه يقول : يارب ياملكى يا إلهي .

(المسألة الثالثة) قوله تعالى (ملك الناس ، إله الناس) هما عطف بيان كقوله سيرة أبي حفص عمر الفاروق ، فوصف أولاً بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملئكاً وقد لا يكون ، كما يقال رب الدار ورب المتاع قال تعالى (اتخذوا أجبازهم وربهانهم أرباباً من دون الله) فلا جرم بينه بقوله (ملك الناس) ثم الملك قد يكون لها وقد لا يكون فلا جرم بينه بقوله (إله الناس) لأن الإله خاص به وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره وأيضاً بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه ، وهو من أوائل نعمه إلى أن ربه وأعطاه العقل فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملكه ، فثني بذكر الملك ، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وعرف أن معبوده مستحق لتلك العبادة عرف أنه إله ، فلهذا ختم به ، وأيضاً أول ما يعرف العبد من ربه كونه معطياً لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الرب ، ثم لا يزال يتنقل من معرفة هذه الصفات

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ «٤» الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ  
النَّاسِ «٥»

إلى معرفة جلالته واستغناؤه عن الخلق ، فحينئذ يحصل العلم بكونه ملكا ، لأن الملك هو الذي يفترق إليه غيره ويكون هو غنياً عن غيره ، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواسفين وأنه هو الذي ولط العقول في عزته وعظمته ، فحينئذ يعرفه إلهاً .  
( المسألة الرابعة ) السبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات ، لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار ، ولأن هذا التكرير يقتضى مزيد شرف الناس ، لأنه سبحانه كأنه عرف ذاته بكونه رباً للناس ، ملكاً للناس ، إلهاً للناس . ولولا أن الناس أشرف مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه رباً وملكاً وإلهاً لهم .

( المسألة الخامسة ) لا يجوز ههنا مالك الناس ويجوز ( مالك يوم الدين ) في سورة الفاتحة ، والفرق أن قوله ( رب الناس ) أفاد كونه مالكا لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد أنه مالك ومع كونه مالكا فهو ملك ، فإن قيل أليس قال في سورة الفاتحة ( رب العالمين ) ثم قال ( مالك يوم الدين ) فيلزم وقوع التكرار هناك ؟ قلنا اللفظ دل على أنه رب العالمين ، وهى الأشياء الموجودة في الحال ، وعلى أنه مالك ليوم الدين أى قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شىء والمالك إلى شىء آخر فلم يلزم التكرير ، وأما ههنا لذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شىء واحد ، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق ، وأيضاً فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس ، وقد قرئ مالك لكن في الشواذ .

قوله تعالى ( من شر الوسواس الخناس ) الوسواس اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كالزلزال والمراد به الشيطان سمي بالمصدر ، كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعتها وشغله الذى هو عاكف عليه ، نظيره قوله ( إنه عمل غير صالح ) والمراد ذو الوسواس وتحقيق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله ( فوسوس لها الشيطان ) وأما الخناس فهو الذى عادته أن يخنس مذنوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والنفاث ، عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى . فإذا غفل وسوس إليه .

قوله تعالى ( الذى يوسوس فى صدور الناس ) .  
اعلم أن قوله ( الذى يوسوس ) يجوز فى محله الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبتدىء الذى يوسوس ، على أحد هذين الوجهين .

## مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

أما قوله تعالى ﴿ من الجنة والناس ﴾ ففيه وجوه :

﴿ أحدها ﴾ كأنه يقول الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال (شياطين الإنس والجن) وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخفس أخرى فشياطين الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ، ويترك الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه ( وثانيها ) قال قوم قوله ( من الجنة والناس ) قسيمان متدرجان تحت قوله في ( صدور الناس ) كأن القدر المشترك بين الجن والإنس ، يسمى إنساناً والإنسان أيضاً يسمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالاشتراك ، والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم فقالوا أناس من الجن ، وأيضاً قد سماهم الله رجالاته في قوله ( أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ) فجاء أيضاً أن يسميهم ههنا ناساً ، فعنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخبث لا يقتصر على إضلال الإنسان بل يصل جنسه وهم الجن ، فجدير أن يحذر العاقل شره ، وهذا القول ضعيف ، لأن جعل الإنسان اسماً للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سماوا جناتاً لاجتماعهم والإنسان إنساناً لظهوره من الإناس وهو الإبصار ، وقال صاحب الكشاف من أراد تقرير هذا الوجه ، فالأولى أن يقول المراد من قوله ( يوسوس في صدور الناس ) أى في صدور الناس كقوله ( يوم يدع الداع ) وإذا كان المراد من الناس هو الناس ، فحينئذ يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى ( وثالثها ) أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس .

واعلم أن في هذه السورة لطيفة أخرى : وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق . والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهي العاسق والنفقات والحاسد ، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، والفرق بين الموضوعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت ، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



## خاتمة الطبع

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رفيع الدرجات ، المقصود بالقربات ، المتمم للصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب المعجزات ، والمؤيد بالآيات البينات ، وعلى آله وصحبه ذوى المقامات والكرامات ، والناهجين على منواله إلى يوم المات .

وبعد فقد تم الفراغ من طبع هذا التفسير الكبير الذى هو أجل التفاسير وأعظمها وأوسعها وأغزرها مادة ، وأكثرها وأعمها فى الإفادة ، ولا عجب فؤلغه الإمام نغرا الدين الرازى البحر الذى لا ينزف علمه ، والخضم الذى لا يسبر غوره ، والطود الشاىخ الذى لا يوصف أمه ولا تعلق قومه ، وذلك [ بالمطبعة البهية المصرية ] التى أسسها بالقاهرة المرحوم السيد - محمد مصطفى فى سنة ١٣٠٢ هجرية ، وهى ليست أقدم دار عربية للنشر لحسب بل هى أقدم مطبعة مصرية أهلية على الإطلاق مازالت قائمة إلى الآن ، وقد أخرجت للمسلمين منذ تأسيسها أعظم الكتب قدراً وأعمها فائدة وأجلها شأناً وأدقها تصحيحاً وتحقيقاً وإخراجاً - وبوفاة مؤسس هذه المطبعة العظيمة فى سنة ١٣٢٨ هجرية انتقلت ملكيتها وإدارتها إلى نجله السيد - عبد الرحمن محمد صاحب الخط الجميل ، الفائق البديع ، البالغ فى الإتقان أعلى درجات الإحسان ، والذى كتب القرآن الكريم بقله عدة مرات وإليه تنسب المصاحف القرآنية - فسار على منوال المغفور له والده فى إدارة تلك المطبعة وفى خدمة كتاب الله العزيز وكتب التفاسير والأحاديث الشريفة فنشرها على المسلمين فى أدق وضع وعلى أحسن صورة ، وكان من آخر ما أخرجته فيها كتاب فتح البارى فى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى فى ثلاثة عشرة مجلداً كبيراً ، وكتاب شرح صحيح البخارى للإمام السكرمانى فى خمسة وعشرين جزءاً ، وهى من أمهات كتب شرح الحديث الشريف ، فنسأل الله أن يضاعف له الأجور وأن يتقبل عمله فى هذا الكتاب وفى غيره ،

٢٦ - نجر - ٣٢ ،

خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعل تجارته في الدارين لن تبور - وأعلى الله شأن الإسلام ورفع قدر الأمة الإسلامية وأعمر أمصارها وأوسع أقطارها وأعز أقدارها وأكثر أنصارها وأدام نصرها ومجدها وأعلى منارها وبارك في أرزاقها وأهلها وخيراتها ووفق قادتها إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين وأعزازهم ونصرهم على سائر الأمم بجاه محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبيائه ورسله أنه سميع مجيب ؟

محمد عبد الرحمن محمد مصطفى

صاحب القرآن الكريم المطبوع على صفحة واحدة

ومساعد مدير إدارة المطابع والتوريدات بالحكومة المصرية سابقا  
ومدير المطبعة الهيئة المصرية المعروفة حالياً بمطبعة ومكتبة عبد الرحمن محمد  
لنشر القرآن الكريم والسكتب الإسلامية بميدان الجامع الأزهر بالقاهرة

فهرست الجزء الثانى والثلاثون  
من التفسير الكبير للإمام نجر الدين الرازى

| صفحة | صفحة  |
|------|---|
| ١٠   | ٢ ( تفسير سورة ألم نشرح ) .                           |
| ١٠   | قوله تعالى ( ألم نشرح لك صدرك ) .                     |
| ١١   | ٣ لم لم يقل ألم نشرح لك قلبك ؟ .                      |
| ١٢   | لم لم يقل ألم نشرح صدرك ؟ .                           |
| ١٣   | » » ألم أشرح ؟ .                                      |
| ١٣   | ٤ قوله تعالى ( ووضعتنا عنك وزرك ) .                   |
| ١٣   | الاحتجاج بالآية على جواز وقوع المعصية من الأنبياء .   |
| ١٤   | ٥ قوله تعالى ( ورفعتنا لك ذكرك ) .                    |
| ١٥   | تفصيل وبيان لوجوه رفع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم . |
| ١٦   | ٦ قوله تعالى ( فإن مع العسر يسراً ) .                 |
| ١٦   | وجه تعلق الآية بما قبلها .                            |
| ١٧   | معنى اليسر والعسر .                                   |
| ١٧   | وجه التنكير فى اليسر .                                |
| ١٧   | ٧ قوله تعالى ( فإذا فرغت فانصب ) .                    |
| ١٧   | وجه تعلق هذا بما قبله .                               |
| ١٧   | قوله تعالى ( وإلى ربك فارغب ) .                       |
| ١٧   | ٨ ( تفسير سورة التين ) .                              |
| ١٧   | قوله تعالى ( والتين والزيتون ) الآيات .               |
| ١٧   | المراد التين والزيتون المعروفان .                     |
| ١٧   | بيان مزايها .   |
| ١٧   | ٩ ليس المراد بهما هاتين الثمرتين ؟ .                  |
| ١٠   | ما المراد بالطور ؟ .                                  |
| ١٠   | ما المراد بالبلد الأمين ؟                             |
| ١١   | قوله تعالى ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ) .      |
| ١١   | قوله تعالى ( ثم رددناه أسفل سافلين ) .                |
| ١٢   | » » ( إلا الذين آمنوا ) الآية .                       |
| ١٢   | » » ( أليس الله بأحكم الحاكمين ) .                    |
| ١٣   | ( تفسير سورة القلم ) .                                |
| ١٣   | قوله تعالى ( اقرأ باسم ربك ) .                        |
| ١٣   | المراد ( اقرأ القرآن ) .                              |
| ١٣   | قوله تعالى ( الذى خاق ) .                             |
| ١٤   | الكلام على لفظ الرب .                                 |
| ١٥   | الحكمة فى أنه أضاف ذاته إليه .                        |
| ١٥   | وجوه تفسير الآيات الثلاثة .                           |
| ١٥   | احتجاج الأصحاب على أنه لا خالق غير الله               |
| ١٥   | اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله .       |
| ١٦   | لم قال ( من عاق ) .                                   |
| ١٦   | قوله تعالى ( اقرأ باسم ربك الأكرم ) .                 |
| ١٦   | معنى الكرم .  |
| ١٦   | المناسبة بين الخاق والتعلم .                          |
| ١٦   | المراد من القلم الكتابة مطلقاً ، أو الكتابة بالقلم .  |
| ١٧   | قوله تعالى ( علم الإنسان ما لم يعلم ) .               |



| صفحة  | صفحة   |
|---|--|
| ٤٩  | ١٧   |
| قوله تعالى ( إن الذين كفروا من أهل الكتاب ) الآية .   | قوله تعالى ( كلا إن الإنسان ليطغى ) المراد إنسان واحد هو أبو جهل . |
| ٥١  | ١٨   |
| قوله تعالى ( أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) الآية . | معانى ( كلا ) .  |
| ٥٢  | ١٩   |
| قوله تعالى ( جزاؤهم عند ربهم جنات عدن ) الآية .       | ما سبب التأكيد باللام ؟ .  |
| ٥٧  | ١٩   |
| ( تفسير سورة الزلزلة ) .                              | قوله تعالى ( أن رأه استغنى ) .                                     |
| قوله تعالى ( إذا زلزلت الأرض ) .                      | وجوه الاستغناء .   |
| ٥٨  | ٢٠   |
| » » ( وأخرجت الأرض أثقالها ) .                        | في الآية مدح للعالم وذم للمال .                                    |
| ٥٩  | ٢١   |
| » » ( وقال الإنسان ما لها ) .                         | الالتفات في الآية .  |
| ٦٠  | ٢١   |
| » » ( يومئذ تحدث أخبارها ) .                          | قوله تعالى ( إن إلى ربك الرجعى ) .                                 |
| ٦٠  | ٢٢   |
| » » ( بأن ربك أوحى لها ) .                            | » » ( أرأيت الذى ينهى ) الآية .                                    |
| ٦١  | ٢٢   |
| » » ( فمن يعمل مثقال ذرة ) الآيات .                   | » » ( أرأيت إن كذب وتولى ) الآية .                                 |
| ٦٣  | ٢٣   |
| ( تفسير سورة العاديات ) .                             | » » ( كلا لمن يبتغى لنفسه ) الآية .                                |
| قوله تعالى ( والعاديات ضبحاً ) .                      | ٢٥   |
| ٦٤  | ٢٦   |
| » » ( فالمرورات قدحاً ) .                             | » » ( فليدع ناديه ) الآية  |
| ٦٥  | ٢٦   |
| » » ( فالمغيرات صبحاً ) .                             | » » ( كلا لا تطعه واسجد واقترب )                                   |
| ٦٦  | ٢٧   |
| » » ( فأتأثرن به نفعاً ) .                            | ( تفسير سورة القدر ) .   |
| ٦٦  | ٢٧   |
| » » ( فوسطن به جمعاً ) .                              | قوله تعالى ( إنا أنزلناه فى ليلة القدر ) .                         |
| ٦٧  | ٢٨   |
| » » ( إن الإنسان لربه لكنود ) .                       | » » ( وما أدراك ما ليلة القدر ) .                                  |
| ٦٨  | ٢٨   |
| » » ( وإنه على ذلك لشهيد ) .                          | » » ( ليلة القدر خير من ألف شهر ) .                                |
| ٦٨  | ٢٩   |
| » » ( أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ) .             | » » ( تنزل الملائكة والروح فيها ) .                                |
| ٦٩  | ٢٩   |
| » » ( وحصل ما فى الصدور ) .                           | » » ( ياذن ربهم ) .  |
| ٦٩  | ٣٥   |
| » » ( إن ربهم يومئذ لمحير )                           | » » ( من كل أمر ) .  |
| فى التى بعدها .                                       | ٣٦   |
|   | ٣٨   |
|   | قوله تعالى ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ) الآية .            |
|   | ٤٣   |
|   | قوله تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) الآية .  |

| صفحة  | صفحة   |
|---|--|
| ٩٤ قوله تعالى (وما أدريك ما الخطمة) الآيات          | ٧٠ ( تفسير سورة القارعة ) .                      |
| ٩٥ » ( في عمد ممددة ) .                             | قوله تعالى ( القارعة ، ما القارعة ) .            |
| ٩٦ ( تفسير سورة الفيل ) .                           | » ( وما أدراك ما القارعة ) .                     |
| قوله تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك<br>بأصحاب الفيل ) . | ٧١ » ( يوم يكون الناس كالفراش<br>المبثوث ) .     |
| ٩٩ » ( ألم يجعل كيدهم في تضليل ) .                  | » ( وتكون الجبال كالعهن<br>المنفوش ) .           |
| » ( وأرسل عليهم طيراً أبابيل )                      | ٧٣ » ( فأما من نقلت موازينه ) .                  |
| ١٠٠ » ( ترميهم بحجارة من سجيل ) .                   | » ( فهو في عيشة راضية ) .                        |
| ١٠١ قوله تعالى ( فجعلهم كدصف ما كؤل )               | » ( وأما من خفت موازينه ) .                      |
| ١٠٣ ( تفسير سورة قريش ) .                           | ٧٤ » ( فأمه هاوية ، وما أدريك<br>ماهيه ) الآية . |
| قوله تعالى ( لإيلاف قريش إيلافهم )                  | ٧٥ ( تفسير سورة التكاثر ) .                      |
| » ( رحلة الشتاء والصيف ) .                          | قوله تعالى ( ألهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر )   |
| » ( فليعبدوا رب هذا البيت ) .                       | ٧٨ » ( كلا سوف تعلمون ) الآيات .                 |
| ١٠٨ » ( الذي أطعمهم من جوع )                        | ٨٠ » ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) .             |
| ١٠٩ » ( وآمنهم من خوف ) .                           | ٨٤ ( تفسير سورة العصر ) .                        |
| ١١١ ( تفسير سورة أرايت ) .                          | قوله تعالى ( والعصر ) .                          |
| ١١١ قوله تعالى ( أرايت الذي يكذب بالدين ) .         | ٨٦ » ( إن الإنسان لفي خسر ) .                    |
| » ( فذلك الذي يدع اليتيم ) .                        | ٨٨ » ( إلا الذين آمنوا وعملوا<br>الصالحات ) .    |
| » ( ولا يحض على طعام المسكين )                      | ٨٩ » ( وتواصوا بالحق وتواصوا<br>بالصبر ) .       |
| » ( فويل للمصلين ) .                                | ٩١ ( تفسير سورة الهزلة ) .                       |
| » ( الذين هم عن صلاتهم ساهون )                      | قوله تعالى ( ويل لكل همزة لمزة ) .               |
| ١١٥ » ( الذين هم يرامون ) .                         | ٩٢ » ( الذي جمع مالا وعدده ) .                   |
| » ( ويمنعون الماعون ) .                             | ٩٣ » ( يحسب أن ماله أخلده )                      |
| ١١٧ ( تفسير سورة الكوثر ) .                         | الآيات .   |
| قوله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) .                 |  |
| » ( فصل لربك وانحر ) .                              |  |
| ١٢٨ » ( إن شانئك هو الأبتر ) .                      |  |
| ١٣٢ ( تفسير سورة الكافرون ) .                       |  |

| صفحة  | صفحة                                    |
|---|---|
| ١٧١   | ١٣٦                                     |
| بيان الأعمال التي كانت تعملها .                         | قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون) .      |
| ١٧٢   | ١٤٤                                     |
| رجز أم جميل في الرسول عليه الصلاة والسلام .             | » (لا أعبد ما تعبدون) .                 |
| كيف جاز أن ترى أم جميل أبا بكر ولا ترى الرسول وهو معه ؟ | » (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .           |
| ١٧٣   | ١٤٥                                     |
| وجه الوصف بأنها حمالة الحطب .                           | » (ولا أنا عابد ما عبدتم) .             |
| قوله تعالى (في جديها جبل من مسد)                        | » (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .           |
| ١٧٤   | ١٤٧                                     |
| (سورة الإخلاص) .  | » (لكم دينكم ولي دين) .                 |
| قوله تعالى (قل هو الله أحد) .                           | ١٤٩                                     |
| فضل الدعاء بالسورة                                      | (تفسير سورة النصر) .                    |
| ١٧٥   | ١٥٣                                     |
| سبب نزولها .  | قوله تعالى (إذا جاء نصر الله) .         |
| ألقاب السورة وأسمائها .                                 | » (والفتح) .                            |
| ١٧٦   | ١٥٥                                     |
| فضائل قراءة هذه السورة .                                | » (ورأيت الناس يدخلون                   |
| ١٧٧   | في دين الله أفواجا) .                   |
| ما في الآية من المسائل .                                | ١٥٨                                     |
| بيان أن معرفة الله جنة حاضرة .                          | قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره      |
| ١٧٨   | إنه كان تواباً) .                       |
| إعراب الآية .   | ١٦٥                                     |
| ما في (أحد) من الوجوه .                                 | (تفسير سورة أبي لهب) :                  |
| ١٧٩   | مقدمة في السورة .                       |
| وجوه القراءة في قوله تعالى (أحد ،                       | ١٦٦                                     |
| الله الصمد) بالوقف والتنوين إلخ .                       | قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب) .          |
| بيان ما في الآية من مقامات .                            | ١٦٧                                     |
| ١٨٠   | » (وتب) .                               |
| تقسيم صفات الله إلى إضافية وسلبية .                     | ١٦٩                                     |
| ١٨١   | وجه إسكان الهاء من أبي لهب في           |
| قوله تعالى (الله الصمد) .                               | قراءة ابن كثير .                        |
| معاني الصمد .   | قوله تعالى (ما أغنى عنه ماله وما كسب)   |
| ١٨٢   | ١٧٠                                     |
| وجه التنكير في (أحد) والتعريف في                        | (الفرق بين (ما أغنى عنه ماله وما كسب)   |
| (الصمد) .   | و (إذا تردى) .                          |
| ١٨٣   | قوله تعالى (سبيلي ناراً ذات لهب)        |
| فائدة تكرير لفظة (الله) .                               | ما في هذه الآيات من الإخبار بالمغيبات . |
| قوله تعالى (لم يلد ولم يولد) .                          | ١٧١                                     |
| نفي كونه تعالى والدأ .                                  | احتجاج أهل السنة بهذه الآيات على        |
|   | وقوع تكليف ما لا يطاق .                 |
|   | قوله تعالى (وامرأته حمالة الحطب) .      |
|   | اسم المرأة أم جميل .                    |

| صفحة  | صفحة  |
|---|---|
| ١٩٣ هل المراد إبليس خاصة ؟ .                              | ١٨٣ نفي كونه تعالى مولوداً .                        |
| ١٩٤ هل المستعاذ منه واقع بقضاء الله تعالى أو غير واقع ؟ . | ١٨٤ المعاني الزائدة على ذلك في الآية إلى ما بعدها . |
| ١٩٥ قوله تعالى ( ومن شر غاسق إذا وقب )                    | ١٨٦ مقدمة سورة الفلق .                              |
| ١٩٦ » ( ومن شر النفاثات في العقد )                        | ١٨٦ شرح مراتب المخلوقات .                           |
| ١٩٧ ( تفسير سورة الناس ) .                                | ١٨٧ سبب نزول المعوذتين .                            |
| ١٩٧ قوله تعالى ( قل أعوذ برب الناس )                      | ١٨٧ قوله تعالى ( قل أعوذ برب الفلق ) .              |
| الآيات .  | ما في قوله ( قل ) من الفوائد .                      |
| ١٩٨ قوله تعالى ( من شر الوسواس ) الآيات                   | الاستعانة بالرقى .                                  |
| ٢٠١ خاتمة الطبع .   | ١٩٠ الاستعاذة .                                     |
| ٢٠٣ الفهرست وبها تمام التفسير .                           | ١٩١ التأويل في الفلق .                              |
|   | ١٩٣ قوله تعالى ( من شر ما خلق ) .                   |

تمت الفهرست

والحمد لله رب العالمين اولا وآخرأ ، وصلى الله  
على سيدنا محمد الجي الاكرم ، وعلى  
آله وصحبه وسلم

